

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الحركة الشعرية في الأندلس
(عصر بني الأحمر)

إعداد

أيمن يوسف إبراهيم جرار

إشراف

أ. د. وائل أبو صالح

قُدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين.

2007

د. وائل أبو صالح



الحركة الشعرية في الأندلس

(عصر بني الأحمر)

إعداد الطالب

أيمن يوسف إبراهيم جرار

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 9 / 4 / 2007م، وأجيزت.

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة:

د. وائل أبو صالح

أ.د. وائل أبو صالح مشرفا

.....

أ.د. إبراهيم الخواجا ممتحنا خارجيا

.....

أ.د. خليل عودة ممتحنا داخليا

الإهداء

إلى الماس الذي لا ينكسر... إلى حاضري ومستقبلي... إلى مَنْ
أكنُّ له الحب والتقدير والإمتنان والعرفان بالجميل... إلى الذي
طالما انتظر هذه اللحظة أكثر مني... إلى زوجتي الحبيبة
"نوال"...

إلى مَنْ تفتّحت بين حروفها الرياحين... وانتثرت من عبق
اسمها رائحة الياسمين... إلى مَنْ تسمّت باسمها بلادُ العزّةِ
والكرامة... بلاداً سقتني علماً وأدباً... إلى طفلي الغالية
"شام"...

إلى سراج روعي وعقلي... إلى مَنْ أولاني عزّاً وحياءً...
ووهبني العطاء والقدرة والثقة... إلى الذي زرع في وجداني
بذور الإيمان والانتماء... إلى "والدي الغالي"...

إلى نبع الحنان والعطاء... إلى الشمعة المضيئة في حياتي...
والزهرة الرقيقة في ربيع عمري... إلى من تنحني القامات
احتراماً لها وترتفع الهامات افتخاراً بها "أمي الغالية"...

إلى مَنْ لَوّنوا حياتي بأجمل الألوان... وأطربوا روعي بأعذب
الألحان... وكانوا الشمس التي تبدّد وحشتي... والبلسم الذي
يداوي جراحات أيامي... إلى إخوتي أخواتي: ملحم وخليل
وأمين – دينا وفداء وميساء...

شكر وتقدير

ليس في الحياة أجمل من لحظة يحقّق فيها الإنسان ما تصبو إليه نفسه وتتوق إليه روحه... ولعلّ لذة النجاح، هي أعظم لذات الحياة جميعها، ولكن حرّيّ بنا ونحن نقطف ثمرة النجاح أن نتقدّم بالفضل لكلّ من ساندنا وشدّ من أزرنا لبلوغ ما بلغنا، ولذا

فالشكر بداية لصاحب الفضل والمنة لله العليّ القدير الذي أعانني على إتمام دراستي...

ولصاحب الفضل الأول بعده إلى أستاذي الذي بعث الأمل في العروق ليحييها من جديد... إلى الأستاذ الدكتور المشرف "وائل أبو صالح" الذي تفضّل بالإشراف على هذه الرسالة...

وأخصّ بالشكر الأستاذ الدكتور "صلاح جرّار" الذي لا يسعني وأنا أقطف من ثماره العذبة أن أشكره على ما أبداه لي من تعاون فجزاه الله خيراً...

وأقدم بالشكر إلى الأستاذ الدكتور خليل عودة والأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجا اللذين قاما بمناقشة هذه الأطروحة فلهما مني كل تقدير .

ولا أنسى أخوتي في مكتبة بلدية جنين على ما أبدوه لي من تعاون ومحبة...

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	فهرس المحتويات
ز	الملخص.
1	التمهيد
9	المقدمة.
11	الفصل الأول عوامل ازدهار الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر
13	المبحث الأول: تشجيع الأمراء ووجود الملوك الشعراء.
20	المبحث الثاني: الهجرة من المدن الأندلسية إلى غرناطة.
25	المبحث الثالث: السعي من أجل تثبيت الشخصية العربية والحفاظ عليها.
32	المبحث الرابع: ضياع المدن الأندلسية واستنهاض الهمم.
40	المبحث الخامس: تأثر أهل غرناطة بالمشرق العربي.
48	المبحث السادس: التأثير بالأمم الأخرى داخل المجتمع الأندلس.
55	المبحث السابع: الطبيعة الجغرافية.
65	الفصل الثاني الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر
66	المبحث الأول: الوصف.
82	المبحث الثاني: الحماسة.
89	المبحث الثالث: الفخر.
93	المبحث الرابع: الرثاء.
99	المبحث الخامس: الهجاء.
105	المبحث السادس: المدح.
113	المبحث السابع: الغزل.
121	المبحث الثامن: الخمريات.
127	المبحث التاسع: الإخوانيات.
132	المبحث العاشر: الاستعطاف والشفاعات.
136	المبحث الحادي عشر: شعر الحنين.
138	المبحث الثاني عشر: الشعر الديني.
144	المبحث الثالث عشر: الشعر التعليمي.
147	المبحث الرابع عشر: شعر الحكمة.
151	الفصل الثالث

	الخصائص الفنيّة للشّعر في عصر بني الأحمر.
152	أولاً- البناء اللغوي:
152	المبحث الأول: التكرار.
161	المبحث الثاني: التقديم والتأخير.
164	المبحث الثالث: الطباق.
168	المبحث الرابع: التضمين والاقْتباس.
175	ثانياً: الموسيقى الداخليّة:
175	المبحث الأول: إيقاع الحروف.
188	المبحث الثاني: المشتقّات.
191	ثالثاً: الموسيقى الخارجيّة.
191	المبحث الأول: الوزن.
197	المبحث الثاني: القافية.
201	رابعاً: مناسبة الألفاظ للمعاني المطروقة.
214	الخاتمة.
218	أ. المصادر.
222	ب. المراجع.
232	ج. الرسائل الجامعية.
233	د. الدّوريّات.
234	- فهرس الأشعار.
243	- فهرس الآيات القرآنية.
243	- فهرس الأحاديث الشريفة.
243	- فهرس الأمثال.
B	Abstract

(عصر بني الأحمر)

إعداد

أيمن يوسف إبراهيم جرار

إشراف

أ. د. وائل أبو صالح

الملخص

ازدهرت الحركة الشعرية في مملكة بني الأحمر، التي نشأت في عام 637 للهجرة ضمن ظروف عدّة. ولعلّ من أهمّها ما كان يتعلّق بالناحية السياسيّة، فهذا الجانب جاء رافداً للعديد من الأغراض الشعرية، وفي مقدّمها أشعار الجهاد واستنهاض الهمم.

إنّ المتتبع للأحداث التي جرت في هذه المملكة، يرى أنها مرّت بثلاث مراحل، كان لها أثرٌ واضحٌ في انتشار أغراضٍ شعريّةٍ دون أخرى:

المرحلة الأولى: تتسمّ هذه المرحلة بانتشار الأشعار الحماسيّة التي تنادي بالعودة إلى الدّين واسترجاع ما ضاع من مدن الأندلس، وامتدّت زهاء خمسة عقود.

المرحلة الثانية: وفيها عمّ الرّخاء والازدهار، فانتشرت أشعار المدائح والخمريّات، وتميّزت بالبذخ والتّرف، وامتدت مدّة قرن ونصف.

المرحلة الثالثة وهي الأخيرة: وتعتبر مرحلة التراجع والسقوط، وفيها عودةٌ لأشعار الحماسة ورثاء المدن.

ولعبت الطبيعة دوراً مهماً في ازدهار هذه الحركة، وتميّرت غرناطة بطبيعة جميلة، حيث كُثرت فيها المياه والريّاض والقصور الجميلة.

وسار ملوك بني الأحمر على عادة من سبقوهم من ملوك الأندلس، فشجّعوا الآداب والعلوم، وبنوا القصور التي عُقدت فيها المجالس الأدبيّة.

والفنونُ الشعريَّةُ التي ظهرت في هذا العصر، هي نفسها التي جاءت في العصورِ السابقة، وجاء في مقدِّمتها وصفُ الطبيعة، ففي أحضانها قيلت أشعار الخمرِيات والغزل.

وازدهر شعرُ الجهادِ نتيجةً للتَّسارعِ الذي حدث في سقوطِ مدنيهم، فهبَّوا يستحثُّونَ الهممَ لاستعادة ما ضاع منهم. ونرى أن أشعارهم المدحية، قد انصبَّت في أكثرها على بيانِ نَسَبِ ملوكهم، الذي يتَّصلُ بالصحابيِّ الجليلِ سعد بن عبادة الأنصاري.

وجاءت أشعارهم رقيقةً عذبةً، وفيها من لطيفِ الصورِ والأخيلةِ ما يبهجُ القلوبَ، وعُني شعراؤهم بتزيينِ ألفاظهم، فظهر عندهم الجناسُ، والطباقُ، والاقْتباسُ، وغيرُ ذلك من ألوانِ البيانِ والبديع، ممَّا جعلَ ألفاظهم مناسبةً للمعاني التي تطرقوا إليها.

واستخدموا البحورَ الشعريَّةَ بما يتناسب وواقعِ الحالِ عندهم، وأكثرُوا من استخدامهم لبحورِ الكاملِ، والوافرِ، والطويلِ، والبسيطِ .

تمهيد:

تعاقبت على الأندلس حضارات متعدّدة، حملها إليها العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، وبسبب ذلك، فقد حفلت مناطقها بمعالم حضارية وثقافية متنوعة، وزادها في هذا ما جلبه إليها العرب من تقدم كان على الصعيدين المادي والروحي.

وقد كان لغرناطة النصيب الأوفر من معالم ومآثر هذا التقدّم، وساعدها على ذلك موقعها الجغرافي وخصائصها الطبيعية المتميزة، علاوة على أنّها كانت آخر القلاع والحصون التي سقطت من أيدي المسلمين في الأندلس. فكانت الملاذ الأخير للعرب المسلمين الذين هُجّروا مكرهين من ديارهم بعد أن اشتدت عليهم نار النصارى، فاستقرّوا في حمى هذه المدينة التي تحولت إلى دولة ذاعت شهرتها، وأصبحت حضارتها مركزاً يؤمه الأدباء والمفكّرون من شتى أنحاء البلاد وخاصة في ظلّ حكم ملوك بني الأحمر. ويرجع نسب بني الأحمر إلى سعد بن عبادة الأنصاري سيد الخزرج في المدينة المنورة، وكان كبيرهم وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن قيس الخزرجي من أهل بلدة صغيرة تسمى (أرجونة) جنوبي (جيان) وكانوا أسرة كبيرة في موطنها⁽¹⁾.

ونحن في حديثنا عن مملكة بني الأحمر سوف نتناولها من خلال الجوانب السياسية والاجتماعية والعلمية التي أحاطت بها.

الجانب السياسي:

لقد برزت هذه المملكة وسط ظروف سياسية صعبة، وظهر هذا واضحاً من خلال الهزائم المتتالية التي لحقت بالمسلمين، مما أدّى إلى ضياع العديد من المدن والحصون. وهذا دفع المسلمين إلى الهجرة إلى هذه المملكة التي كانت بعيدةً عن متناول جيوش الإسبان.

ويعود الفضل في إنشاء هذه المملكة إلى مؤسسها محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الملقب بابن الأحمر، فقد استطاع بذكائه أن يعمل على تثبيت سلطانه، وحماية نفسه ضد الأخطار

⁽¹⁾ ينظر: مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ت: د: حسين مؤنس. ط: 1. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي. 1991. ص: 17.

التي كانت تحيط به، فقد واجه الفتن الداخلية من خلال المهادنة التي كان يظهرها لخصومه السياسيين. وهذا ظهر من خلال سياسته مع أبي الحسن بن أشقيلولة، فقد عينه والياً على (وادي آش). وبعد وفاته قام بإحضار ولديه ونقل إليهما الوصاية على هذا الإقليم؛ لكي يحافظ على أركان دولته من النزاعات الداخلية⁽¹⁾.

وفي مقابل هذا فقد لجأ إلى الاستعانة ببني مرين في عُدوة المغرب، والاستتصار بهم في مواجهة الخطر الخارجي المتمثل بالجيش الإسباني. فتظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وافريقية، يخطب لهم زماناً يسيراً، وتوصل بسبب ذلك إلى إمداد منهم وإعانة⁽²⁾.

ولعلَّ ابن الخطيب في كلامه هذا يشير إلى سياسة اتبعتها ملوك بني الأحمر، وتتمثل في عدم الاعتماد على إخوانهم في عُدوة المغرب، فقد لجأ ملوكهم إلى مهادنة الإسبان، وهذا ما فعله ابن الأحمر. فقد فاوض الإسبان، وحاول استعادة ثغر (طريف) من بني مرين فعسكر بقواته في (مالقة)، وقدم العون للنصارى من خلال إمدادهم بالمؤنة والجنود، ولكنَّ وعود ملوك قشتالة له لم تتحقق، فعاد يخطب ودَّ بني مرين مرّة أخرى، وأوفد ابن عمّه الرئيسَ أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيرَهُ أبا سلطان على رأس وفد من كبراء الأندلس، إلى السلطان أبي يعقوب في طلب المودّة، وتجديد العهد، وتقرير المعذرة في شأن طريف، فابرموا العقد وأحكموا الصلح⁽³⁾. وكانت سياساتهم تسير وفق الظروف السياسية المتغيرة والمحيطه بهم، فهم يدركون أن مملكتهم صغيرة وضعيفة، فهي تعيش وسط قوات ثلاث هي: قشتالة، وأراغون، والمغرب.

ونحن لا ننظر إلى سياساتهم على أنها نوع من التخلّي عن الأندلس وأهلها، فهم بفضل هذه السياسة استطاعوا أن يحافظوا على وجود العرب المسلمين، وتأخير نهايتهم لما يقرب من قرنين ونصف من الزمان.

(1) أنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج: 7. ت: تركي فرحان المصطفى. ط: 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1999. ص: 207.

(2) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ت: د: يوسف علي الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2003. ص: 52.

(3) أنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج: 7. ص: 211.

وتميّز نظام الحكم عندهم بالوراثي، وكانوا يحكمون رعيتهم حكماً مطلقاً، معتمدين على أحقيتهم بحماية المسلمين، فهم من سلالة أنصار النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فكان السلطان يمسك بمقاليد الحكم بنفسه، ولا يترك لأحد غيره أن يدير شؤون البلاد. والثابت أن جميع حكامهم كانوا من سلالة بني الأحمر ووصل عددهم إلى اثنين وعشرين ملكاً.⁽¹⁾

الجانب الاجتماعي:

لقد ضمّ المجتمع الغرناطي بين طبّاته العديد من الطبقات الاجتماعية، وهذا يدلّ على أنّ مجتمع غرناطة كان مجتمعاً طبقياً يسوده التناقض في امتلاك الثروات. وقد ساعد النظام الملكي على وجود طبقات غنيّة وأخرى فقيرة، وهذا يتحدّد من خلال قرب هذه الطبقات أو بعدها من مركز الحكم الذي كان مقرّه في قصر الحمراء.

طبقة الحكّام:

وتعتبر هذه الطبقة من أغنى الطبقات داخل المجتمع الغرناطي. وكان أفرادها يميلون إلى الترف والملذّات، وكانوا - على عادة أجدادهم الأمويين - يتسابقون في بناء القصور والمنتزهات فامتلكوا العديد منها، وأقاموا فيها جلسات السمر، وكانت خزائهم مليئة بالأموال.⁽²⁾

إنّ المنتبّع لسير هؤلاء الملوك، يرى أن قسماً منهم كان يميل إلى خشونة العيش والبعد عن ملذات الدنيا الزائلة، وهذا نجده واضحاً في حياة محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الملقّب بالغالب بالله "فقد كان آيةً من آيات الله في السذاجة والسلامة والجمهورية، جندياً، ثغرياً

⁽¹⁾ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 122 - 123.

ينظر: مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ص: 54 - 55.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: كناسة الدكان بعد انتقال السكان. ت: د: محمد كمال شبانة. مصر: المؤسسة العربية للتأليف والنشر.

ص: 20 - 21.

⁽²⁾ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 31.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 28.

شهماً، عظيم التجلّد، رافضاً للدّعة والراحة، يخصّف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجدّ في أمره⁽¹⁾.

وظهر ترف هذه الطبقة من خلال الجوّاري التي كثرت في قصورهم، فمال هؤلاء إلى حياة المجون كالسلطان أبي الحسن النصري، الذي انهمك في شهواته وملذاته والتمتع بالجوّاري، فتزوج فتاة نصرانية تسمى إيزابيللا، وأسلمت وتسمّت بثريا، ولكنها منذ اللحظة الأولى بدأت تدبر لنقل ولاية العهد إلى ابنها سعد⁽²⁾ وهذا أثار الفتن الداخلية في هذه المملكة.

أمّا ما يخصّ وراثة العيش، فلم أجد في المصادر ما يدلّ على قاعدةٍ محدّدة يتم من خلالها اختيار ولي العهد داخل الأسرة الحاكمة، فالسلطان محمد الأول قام في حياته بتعيين ولده محمد الثاني ولياً للعهد⁽³⁾.

وتولّى محمد الرابع الحكم بعد وفاة والده في السابع والعشرين من شهر رجب من سنة خمس وسبعمئة للهجرة، ولم يكن قد بلغ بعد سنته العاشرة⁽⁴⁾.

وتولّى الغني بالله الحكم بعد وفاة والده على بغتة من سنة خمس وخمسين وسبعمئة، وكان قريب العهد بالمراهقة، وناب عنه في الحكم الوزير أبو النعيم رضوان⁽⁵⁾.

وقد انحصرت السلطة بين هذه الأسرة: فحكمت البلاد حكماً مطلقاً ولم نجد في سيرتهم - على الرغم من الفتن الداخلية - ما يدلّ على أنهم قد ظلموا رعيتهم، بل عاش الناس في رخاءٍ وازدهار حتى أواخر عهد هذه المملكة.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 52.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللحة البدرية في الدولة النصرانية. ص: 30.

(2) مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ص: 57 - 58.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: اللحة البدرية في الدولة النصرانية. ص: 38.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه. ص: 77.

(5) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 4.

طبقة الوزراء والخاصة:

تمتع الوزير بمكانة مرموقة داخل البلاط الملكي في الدولة النصرية، وظهر هذا من خلال مشاركته في وضع وتنفيذ القرار السياسي داخل الدولة.

وساعدت الظروف السياسية على اتساع مهام الوزير، فكان يتولى مهام السلطان أثناء غيابه، كما حدث لابن الخطيب حينما ناب عن أبي الحجاج أثناء حروبه، إذ ألقى إليه السلطان بسيفه وخاتمته، وسُمي بـ "ذي الوزارتين" بجمعه بين الكتابة والوزارة⁽¹⁾.

ومن الحكام مَنْ كان يتخذ له جماعة من الوزراء، على نحو ما فعل (الغالب بالله) ومن الوزراء الذين اتخذهم الوزير عبد الملك ابن يوسف بن صناديد، زعيم قاعدة (جيان)؛ وهو الذي مكّنه من ناصية (جيان) المذكورة. واستوزر علي بن إبراهيم الشيباني، والرئيس أبا عبد الله ابن الرئيس عبد الله الرميمي، والوزير أبا يحيى ابن الكاتب، وغيرهم ممّن تبلى به الشهرة مبلغاً⁽²⁾.

ومن المناصب المهمة في الدولة النصرية ما جاء في باب القضاء. ومثّل هذا المنصب السلطة الدينية، ولعلّ المسحة الدينية التي اتخذها حكام غرناطة، قد ساعدت على بروز طبقة من القضاة كان لهم أثرٌ بالغ في كيان هذه الدولة فكان لهم النظر في جميع الأشياء، من إقامة الحقوق، وتغيير المناكر، والنظر في المصالح⁽³⁾. وكان القضاة من أصحاب الفضل، وأهل العلم والعدل، وأنصفوا بمعرفتهم العميقة بتعاليم الشريعة الإسلامية.

ومن القضاة المشهورين في غرناطة ابن الحاج البليقي الذي كان في عهد الغني بالله. "وكان التكلّم بالشعر أسهل شيء عليه، وله ديوانٌ كبيرٌ، يحتوي على ضروب الأدب"⁽⁴⁾.

وقد عرفت غرناطة العديد من القضاة أمثال: القاضي أحمد بن فركون، والقاضي ابن مسعود المحاربي وغيرهم.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: اللوحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 103.

(2) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 53.

(3) التباهي، ابن الحسن: تاريخ قضاة الأندلس. ت: د: مريم قاسم الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1995. ص: 21.

(4) التباهي، ابن الحسن: المصدر نفسه. ص: 204.

الجانب العلمي والأدبي:

لقد حفل عهد غرناطة بعدد كبير من الشعراء والأدباء، وعمت البلاد نهضةً علميةً وأدبيةً واسعة، فنبع العديد منهم، ومن هؤلاء: الوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير ابن زمرك، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الجيَّاب والملك يوسف الثالث...

وقد شجع ملوك بني الأحمر الشعراء وقرَّبوهم منهم، ومن أشهرهم الشاعر الوزير لسان الدين بن الخطيب، وكان من أهل العلم والأدب والدين والخير، ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليه العربية، ولازم القراءة والفقاه والتفسير، وكان شيخه ابن الفخار الألبيري، ومن تأليفه: الإحاطة في أخبار غرناطة، واللمحة البدرية في الدولة النصرية، وريحانة الكتاب، وروضة التعريف بالحب الشريف. وزادت مصنفاته على الخمسين⁽¹⁾.

ولعلَّ المتصفح لكتب التراجم الخاصة بهذا العصر يثيرة الانتباه، إذ لا يجد متخصصاً نظم الشعر دون سواء من فنون الأدب المختلفة، فكانوا شعراء وكتّاباً في آن واحد، وهذا نجدُه عند ابن الخطيب وابن زمرك وابن الجيَّاب وغيرهم.

ولم يختلف شعراء غرناطة عمّن سبقوهم من شعراء الأندلس، فجاءت أشعارهم في الوصف والمدح والهجاء وغيرها من الأغراض الأخرى، والمنتبع لها يجدها في مجملها لا تخرج عن كونها أغراضاً كانت منتشرة عند الشعراء السابقين، ولكن في مقابل هذا نجد أغراضاً قد ازدهرت دون غيرها مثل أشعار الحماسة ورتاء المدن.

وإلى جانب هذا نجد الشعر الديني المفعم بحب الله، وكان يلقي في المناسبات الدينية، أو عند الاستعداد للحروب ضد العدو المسيحي، لإيقاظ الهمم، والدعوة لنصرة الدين، والدفاع عن

(1) أنظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عيَّاض. ج: 1. ت: مصطفى السقا وآخرون. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة

والنشر. 1939. ص: 187 – 189.

ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة. 373/4.

المسلمين: كما كانوا تارة يدعون للجهاد في سبيل الله، وأحياناً أخرى سيكون أسراهم بأرض العدو وما يلقونه من تعذيب هناك (1).

وقد لعبت الصراعات والفتن الداخلية دوراً رئيساً في توجيه الشعراء، وهذا ما حصل مع الشاعر ابن زمرك في خلافه مع شيخه لسان الدين بن الخطيب، حيث كان سبباً في قتله. فبعد فرار ابن الخطيب بسبب ما كان يدبره ابن زمرك من مؤامرات ضده، استطاع هذا أن يتصدى للعديد من الفتن الداخلية من خلال تنفيذ أوامر سلطانه في القضاء على وزير مشاغب خطير هو لسان الدين بن الخطيب (2).

وكان للعلوم حظاً في مملكة غرناطة، فقد مالت أذهان المفكرين إلى الاهتمام بمختلف العلوم التي انتشرت بشكل واسع في كل أرجاء المملكة، حتى غدت تضم العديد من المبدعين والمفكرين الذين ألّفوا وأبدعوا في هذا المجال. وقد حرص أهل الأندلس على التميّز في العلوم والفنون، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يُشار إليه، ويُحال عليه. ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة. وكل العلوم لها عندهم حظاً واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإنّ لها حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة. ولا مذهب عند أهل الأندلس سوى مذهب مالك بن أنس (3).

ومن الذين نبغوا في دولة بني الأحمر في علوم القرآن والتفسير، محمد بن محمد النمري الضرير، وكان حافظاً للقرآن، طيب النّعمة به، طرفاً في ذلك، ومن أهل المشاركة في العلم، واعظاً بليغاً، ويستحضر الشواهد من كتاب الله (4).

(1) أنظر: المقرّي، شهاب الدين أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 1. ص: 277.

(2) أنظر: ابن زمرك، محمد: الديوان. ت: محمد توفيق النيفر. ط: 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ص: 14.

(3) أنظر: المقرّي، أحمد: نفع الطيب عند غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ج: 1. ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي.

ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1998. ص: 181.

(4) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 19.

ونبغ من علماء الدين والفقهاء في تلك الفترة، القاسم بن عبد الله بن الشَّاطِ الأنصاري، وله كتاب (البرنامج) عن قضاة الأندلس (1).

ومن الذين نبغوا في اللغة والفقهاء، محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبى، وكان فقيهاً وحافظاً في فنون كثيرة. واشتغل بالتدريس بغرناطة، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم، وله عدة مؤلفات منها كتاب "التسهيل لعلوم التنزيل" و"الأنوار السننية في الألفاظ الكلمات السننية" وله فهرسة كبيرة اشتهرت واشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب (2).

(1) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 217.

(2) أنظر: المقرئ، أحمد: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 7. ص: 54.

المُقدِّمة:

يُعدُّ عصر بني الأحمر من الأعصر التي نالها ظلمٌ كبيرٌ من الباحثين، ومرّد هذا، كونهم اعتبروه امتداداً لعصر الموحدين، على الرّغم من ظروفه السياسية والاجتماعية والثقافية المستقلّة، والتي واكبها نتاج أدبيّ واسع.

ومنذ بداية البحث، توجّهتُ إلى التتقيب في المصادر التي توفرت بين يدي من خلال توجيهات الأستاذ المشرف، والأمر اللافت للنظر، أنّ الباحثين في هذا الأدب لم يتطرقوا إلى عصر بني الأحمر - وإن فعلوا - كانوا في عجلةٍ من أمرهم، وكأنهم أخرجوه من الأعصر الأدبية في الأندلس.

هذا الأمر دفعني إلى البحث عن هذه المصادر داخل الوطن وخارجه، فوجدتُ بعضاً منها في الأردن والعراق وسوريا، وكان اعتمادي في بحثي على المصادر الأصيلة لهذا العصر، كالدواوين، وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، الذي كان المرشد الأساس في تعيين الشعراء الذين دخلوا غرناطة في هذا العصر. وإضافة إلى هذا الكتاب، فقد لجأتُ إلى النّفح والأزهار وهما من تأليف المقرّي التلمساني.

وقد تم تقسيم هذا البحث على فصول ثلاثة، جعلتها على النحو الآتي:

الفصل الأول: وتناولتُ فيه العوامل التي أدت إلى ازدهار الحركة الشعرية في هذا العصر، وفيه ابتعدتُ عن التقليد، وحاولت الخروج بشيء جديد حول هذا الازدهار. وفيه عدتُ إلى المصادر والمراجع والدراسات الحديثة، من الناحية الأدبية والتاريخية والدينيّة.

الفصل الثاني: وهو دراسة للأغراض الشعرية التي ظهرت في هذا العصر، وأظنّها شاملةً، فمن خلال العودة للأشعار الواردة في المصادر، استطعتُ الخروج بأربعة عشر غرضاً، بدأتها بغرض الوصف الذي يعتبر الأوسع انتشاراً، لما فيه من خصوصيات دون غيره، وأنهيتها بأقلها انتشاراً كالشعر التعليمي.

أمّا الفصل الثالث: فقد تناولت فيه الخصائص الفنيّة المتعلّقة بهذه الأشعار، وجاء هذا من النواحي البلاغية والأسلوبية والصوتية، وانصبّ اعتمادي في هذا الفصل على المراجع الحديثة التي تعنى بهذه النواحي.

وحاولت الربط بين الدراسات القرآنية وما فيها من آراء للعلماء في اللغة، وبين الأشعار الواردة في هذه الحقبة، مما دعاني إلى العودة إلى كتب عنيت بهذا الجانب، ككتب التجويد والترتيل وغيرها.

أمّا الخاتمة، ففيها عدّد من النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي، وأضفت إليها الفهارس التي تبين الأشعار، والآيات القرآنية، والأحاديث، والأمثال، وقائمة بالمصادر والمراجع والمخطوطات.

أما عن منهجية البحث، فإنني اتّبعْتُ في دراستي أكثر من منهج، وجاء هذا متماشياً مع طبيعة كلّ فصل، فقد اتّبعْتُ المنهج الوصفي في الفصل الأول؛ لما تميّز به من معلوماتٍ تعتمد على الجانب التاريخي. أمّا الفصل الثاني والثالث، فقد اتّبعْتُ فيهما المنهج التحليلي والنقدي.

الفصل الأول

عوامل ازدهار الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر

تمهيد.

المبحث الأول: تشجيع الأمراء ووجود الملوك والشعراء.

المبحث الثاني: الهجرة من المدن الأندلسية إلى غرناطة.

المبحث الثالث: السعي من أجل تثبيت الشخصية العربية والحفاظ عليها.

المبحث الرابع: ضياع المدن الأندلسية واستنهاض الهمم.

المبحث الخامس: تأثر أهل غرناطة بالمشرق العربي.

المبحث السادس: التأثر بالأمم الأخرى داخل المجتمع الأندلسي.

المبحث السابع: الطبيعة الجغرافية.

عوامل ازدهار الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر

تأثرت الحركة الشعرية في عصر بني الأحمر بمجموعة من العوامل التي ساعدت على تقدّمها وازدهارها. ونحن بدورنا لا نستطيع أن نغلب عاملاً على آخر، فجميعها تألفت في رفق النتاج الشعري وجعله يأخذ مكانه بين غيره من الآداب. وكانت هذه الحركة في النصف الأول من القرن السابع الهجري، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها. فلما نهضت مملكة غرناطة من غمرة الفوضى، بدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظلّ هذه المملكة الفتية، حيث أخذت هذه الحركة في الاستقرار والهدوء.

وكان ملوك غرناطة من حماة العلوم والآداب، وكان بلاطهم يسطع بتقاليد الأدبية كما فعل من قبلهم ملوك الطوائف. وخرج من بينهم الشعراء الذين تركوا نتاجاً شعرياً لا يقل عن غيره جمالاً وفتناً، على نحو ما سنرى عند الملك يوسف الثالث. واشتهر مؤسس دولتهم محمد بن الأحمر بحبّه للشعراء والعلماء ورعايتهم، فكان يعقد مجلساً يستقبلهم فيه، فينشدونه قصائدهم.

وساعدت الهجرة التي قام بها سكان المدن التي سقطت بيد الإسبان، على تقدّم أغراض عديدة من الشعر، ولاسيما رثاء المدن، والذي عبّر بدوره عن هموم المسلمين الذين عانوا ذلّ التهجير الذي مارسه عليهم الإسبان، وما ترافقه من قتلٍ وتكيل، فلم يفرقوا بين طفلٍ رضيع، أو شيخٍ طاعن في السنّ، وأصبحت غرناطة ملاذاً يلجأ إليه الشعراء وعامة الناس.

وكان العامل السياسي رافداً رئيساً للنتاج الشعري في هذا العصر، وجاءت أحداثه متسارعة، حيث تراجع النفوذ الإسلامي في الأندلس، وواكب هذا التراجع ثوراتٌ وفتنٌ داخليةٌ جرت بين ملوكهم، على نحو ما حدث مع الغني بالله وغيره من الملوك. وقد تنبّه الشعراء إلى هذا الواقع، فلم يرضوا عنه، وهذا ما دفعهم إلى إرسال الصرخات من أجل الحفاظ على الشخصية العربية، واستنهاض الهمم للوصول إلى الغاية المرجوة وهي الحفاظ على الأرض والإنسان.

وأولع الأندلسيون كثيراً بالطبيعة، وأكثروا من وصفها، فكانت منتجع العيون والأفئدة. ويندر أن نجد شاعراً أندلسياً يغفل هذا الموضوع، كما أنهم كانوا يصدّرون قصائدهم بمقدمات تصف طبيعة بلادهم، على غرار أسلافهم من الجاهليين الذين كانوا يبدؤون قصائدهم من خلال الوقوف على الأطلال وبكاء الحبيب. فجاء وصف الطبيعة عندهم ظاهراً في معظم أغراضهم الشعرية، وعبرت قصائدهم عن حبهم لوطنهم وتعلقهم به. ولم ينفصل هؤلاء الشعراء عن إخوانهم في المشرق، فجاءت المعاني والأفكار التي عرضوها في قصائدهم متأثرة بهم، وكان هذا واضحاً في أشعارهم. وهذا أمر طبيعي، فالروابط لم تنقطع بينهم، فالأندلسيون كانوا ينظرون إلى الأدب في المشرق نظرة احترام وتقدير. فهو جزء لا ينفصل عن أدبهم. واستمرت الهجرات والرحلات بينهم طوال حكم المسلمين في الأندلس.

وسنحاول في هذا الفصل أن نعرض على نحو من التفصيل العوامل التي أسهمت في ازدهار الحركة الشعرية في هذا العصر.

المبحث الأول: تشجيع الأمراء ووجود الملوك الشعراء:

تبوأ الشعراء مكانة هامة في مجتمعاتهم، وكان لهم دور بارز في كسب رأي عامة الناس بمختلف طبقاتهم، ويرجع هذا إلى طبيعة الإنسان العربي، التي اتسمت بالعاطفية ورقة المشاعر من جانب، والعصبية القبلية من جانب آخر، فالولاء للقبيلة والأسرة عُرِف منذ العصر الجاهلي واستمر إلى عصرنا الحديث.

هذا الدور لم يغفله أصحاب السياسة والحكم، بل منحوه جلّ اهتمامهم، من أجل الحصول على ودّ الشعراء، أو أن يأمنوا ألسنتهم على أقلّ تقدير.

والمتتبع للتاريخ العربي، يرى أن بلاطات الحكّام والخلفاء، لم تخل منهم، فقد جعلوهم المدافعين عن سياساتهم الداخلية تجاه شعوبهم، أو الخارجية في مواجهة خصومهم، على النحو الذي ساد في سياسات ملوك بني الأحمر. لقد كان للشعر مكانة لدى الملوك، فنبغ منهم من يقرض الشعر، ودرجوا على استوزار الشعراء، فكان الوزير نديم الملك، وشاعره، ومدبر

مملكته، فاعتزّ الشعراء بذلك، وسمت مكانتهم، وحفلت بهم دور الأمراء، ودرّ عليهم الرّزق، كما اتّفق لابن الخطيب عند بني الأحمر.⁽¹⁾

ونلاحظ أنّ الحركة الفكرية في الأندلس - منذ النّصف الأوّل من القرن السّابع الهجري - تحاول أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها. فلمّا نهضت مملكة غرناطة من غمرة الفوضى، وبدأت الأندلس حياةً جديدةً، أخذت الحركة الفكرية بالاستقرار، وكان ملوك غرناطة جرياً - على سنن ملوك الأندلس السّابقين - من حماة الأدب، وكان بلاطهم يسطع بتقاليد الأدبية الزاهرة.

وقد بلغت الحركة الثقافية مبلغاً مهماً في عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر ثاني ملوك بني نصر، وأيام السلطان أبي الحجاج يوسف الأوّل، الذي تميّز عهده بوفرة الإنتاج الأدبي نثراً ونظماً.⁽²⁾

والمتصفح لكتب التراجم الخاصة بهذا العصر يثيرة الانتباه، إذ لا يجد متخصصاً انكبّ على نظم الشّعرون سواه من الفنون المختلفة أمثال ابن الخطيب، وابن الأحمر، وابن زمرك، فكلهم كانوا كتاباً وشعراء في آن واحد. بل نجد ابن الخطيب وابن الأحمر أبا الوليد إسماعيل بن يوسف اشتهرا بالشعر أكثر من شهرتهما كاتبين.⁽³⁾

وقد عُرف عن ابن الأحمر - إلى جانب بنائه القصر المشهور - أنّه كان يعقد مجلساً عامّاً يومين في الأسبوع، ترتفع إليه الظلمات، ويشافهه طلاب الحاجات، وينشده الشعراء، وتدخل إليه الوفود، ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضره أعيان الحضرة وقضاة الجماعة.⁽⁴⁾

(1) أنظر الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ط2. مصر: دار المعارف 1966. ص 63.

(2) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللوحة البدرية في الدولة النصرية. القاهرة: المطبعة السلفية. ص: 38.

(3) الدوسري، أحمد ثاني: الحياة الاجتماعية في غرناطة في دولة بني الأحمر. الإمارات العربية المتحدة: المجتمع الثقافي. 2004. ص 233 - 235.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: اللوحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية. ص 31.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في تاريخ غرناطة. ج2. تحقيق يوسف الطويل. ط1. بيروت. دار الكتب العلمية. 2003. ص 23.

وكان من بين كتّابه المحدثّ الشهير أبو الحسن علي بن محمد بن سعيد اليحصبي اللّوشي. وكان من شعرائه أبو الطيّب الرّندي صاحب المرثية الشهيرة، وكان أثيراً لديه، وقد نظم في مدحه غرر قصائده.⁽¹⁾

وإذّ اما نظرنا إلى ملوك بني الأحمر فإنّنا نجد كثيراً منهم ممن خاضوا ميادين الشعر، ونذكر منهم: محمداً الثاني الملقب بالفقيه، وأبا عبد الله محمد الثالث، والملك يوسف الثالث، وله ديوان شعر احتوى على معظم أغراض الشعر العربي من مديح وفخر وغير ذلك من الأغراض الأخرى.

وجاء في وصف محمد أبي عبد الله (محمد الثالث) الملقّب بالملخوع، أنّه كان يقرض الشعر، ويصغي إليه، ويثيب عليه، فيجيز الشعراء، ويرضخ للندماء باذلاً لهم العطايا، ويعرف مقادير العلماء، ومن شعره:

مَلَكْتُكَ الْقَلْبَ وَإِنِّي أَمْرٌ عَلَيَّ مَلِكِ الْأَرْضِ قَدْ وَقَّفا
أوامري في الناسِ مسموعةٌ وليس مني في الوري أشرفا
نحنُ ملوكُ الأرضِ منْ مثلنا حُزناً تليدَ الفخرِ والمُطْرِفا⁽²⁾

(السريع)

ومن الملوك الشعراء الرئيس إسماعيل بن الأمير أبي سعيد فرج خامس ملوك بني الأحمر، حيث وصفه الأمير إسماعيل بن يوسف صاحب كتاب (نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان) بقوله: "طلع في سماء البراعة نجماً، وبرز في ميدان البلاغة ضيغماً شهماً، حاز من الفصاحة ما لم يحزه سواه، ومن الذكاء ما هو ألدّ من الشهد في الأفواه. ومع ذلك فهو

⁽¹⁾ أنظر: عنان، محمد عبد الله: هُماية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس. ط: 3. مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1966: ص 460.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. 1. ص 316.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللوحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية. ص 48 - 49.

بالأدب عارفٌ، وعلى محبته عاكف. وربما نظم القصائد، فتأتي كالقلائد في أجياد الخرائد، وتشبيهاته في الأدب ملوكية".⁽¹⁾

وقد انتشرت ظاهرة التكليف في قول الشعر في عصر بني الأحمر على نحو ما فعل أبو الحجاج، عندما طلب من لسان الدين بن الخطيب القول في أغراض يقترحها عليه.

يقول ابن الخطيب "وقلتُ أصفُ ليلةً أنسٍ حسبما كلّفتُ ذلك، و"قلت من النظم القديم باقتراحه رحمه الله". وما أكثر هذه الأشياء التي يراها السلطان أبو الحجاج وغيره من السلاطين الذين اتصل بهم ابن الخطيب، فيريدون فيها شعراً، فيلبي هذه الإرادة ابن الخطيب، ومن ثمة نجد شعراً كثيراً قاله باقتراح".⁽²⁾

وقد ساعد غنى الأندلس وأمرؤها على تشجيع الأدب، وأغدقوا الأموال والجوائز على الأدباء، وتفاوت شعر هذه الطبقة بين الجودة والضعف، أو بين الضعف والتكلف، واتجهوا في معظم أشعارهم نحو الغزل بالجواري والفخر والحماسة.⁽³⁾

أثرت الصراعات السياسية الداخلية والخارجية في نتاجات غالبية شعراء غرناطة، وظهر هذا في بدايات دولة بني الأحمر، وفي ظلّ هذه الظروف، تنبّه الشعراء لأهمية مناصرة الحكام في خوض هذه الصراعات، ولهذا كانت أشعار ابن الخطيب هي سبيله الوحيد لاحتلال أعلى مكانة عند الأمير. "واشتهر بأشعاره وأسلوبه الممتاز في كتابة رسائل الدولة لحكام البلاد الأخرى. ولقد قدّم لسيده ملك غرناطة أكبر الخدمات برسالتيه اللتين بعث بهما إلى سلطان مراكش، واستدرّ بهما عطف السلطان ودموع رجال بلاطه".⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان. ص 81.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج 1. ت: محمد مفتاح. ط 1. الدار البيضاء: دار الثقافة. 1989. ص 18.

⁽³⁾ أنظر: ياغي، هاشم وآخرون: تاريخ الأدب العربي. ط 1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 2005. ص 321.

⁽⁴⁾ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الأعتراب. ت: أحمد مختار العبادي. القاهرة: دار الكتاب العربي ص: 343.

ويصعب علينا اليوم أن نتحدث عن شعرائهم، فالكل يقرض الشعر ويرتجله. وجميع الملوك والوزراء ورجال الدولة ورجال السيف والقلم قد نظموا الشعر وتغنوا به.⁽¹⁾

والتنافس بين الأمراء والحكام، لم يقتصر على الجانب السياسي، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً، وكان كل أمير يعمل على أن يكون في كنفه من الشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانةً.⁽²⁾

وما من شك أن موقفهم الإيجابي، قد رفع من شأن الأدب والعلم في أعين الناس، وشجّع على التنافس والإبداع، مما أكسب الحركة الأدبية أبعاداً جديدة. وقد اتخذ هؤلاء الملوك حجابهم ووزراءهم من مشاهير الأدباء، الذين استطاعوا أن يبيثوا روح التجديد والتطور، حتى نمت آداب الأندلس، وبلغت ذروة كمالها.⁽³⁾

فالسُلطان بحاجة دائمة إلى أن يكون حكمه شرعياً، وهنا يأتي دور الشعر في إثبات هذه الناحية، واستمدّ بنو الأحرر هذه الشرعية في حكمهم معتمدين في ذلك على نسبهم الذي يتصل بالصحابي الجليل سعد بن عبادَةَ الأنصاري. وظهر هذا واضحاً من خلال سياستهم في الحكم، فمنذ البدايات نراهم يتخذون شعارهم الديني "لا غالب إلا الله". وهم في هذا يمنحون أنفسهم الأهمية في حكمهم للمسلمين في الأندلس. وقد حاولوا أن يظهرُوا أمام العامة بمظهر المخلصين الذين اختارهم الله لحماية دينه. وهذا الأمر لم يغفلهُ الشعراء، فقد أدركوا أهميته بالنسبة إلى بني الأحرر فكانوا يتقربون إليهم من خلاله. وهذا ما دفعهم لذكره في أشعارهم وخصوصاً الكبار منهم أمثال: ابن الخطيب وابن زمرك وابن خاتمة الأنصاري.

يقول ابن زمرك موضحاً نسبهم:

يا ابن الألى قد أحرزوا فضل العلا
وسموا بطيب أرومةٍ ونجارٍ

⁽¹⁾ هونكة، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب. نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي. ط8. بيروت: دار صادر. 2002. ص

506.

⁽²⁾ الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي. ص 64.

⁽³⁾ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. القاهرة: دار الآفاق العربية. ص 156. ينظر الحمصي، أحمد: ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه.

وتتوبُ عن صوبِ الغَمَامِ أَكْفُهُم
مِنْ آلِ سَعْدِ رَافِعِي عِلْمِ الْهُدَى
وتتوب أوجُهُهم عن الأَقْمَارِ
والمصطَفَيْنِ لِنَصْرَةِ الْمُخْتَارِ
وأصبحتَ وارثَ مَجْدِهِمْ وفخارِهِم
ومشَرَّفَ الأَعْصَارِ والأَمْصَارِ⁽¹⁾

(الكامل)

ولعلَّ لسانَ الدينِ بنِ الخطيبِ منْ أكثرِ الشعراءِ الذينَ حاولوا إبرازَ أحقيَّةِ ملوكِهِم في حكمِهِم، فجاءت هذه الدعوةُ سمةً واضحةً في أغلبِ أشعارِهِ التي قيلت في مدحِهِم وإظهارِ شجاعتِهِم في الحروبِ التي يخوضونها دفاعاً عن الإسلامِ والمسلمين. ومن هذا ما جاء في مدحِ السلطانِ أبي الحجاجِ بنِ نصرٍ حيث يقول في نسبِهِم:

أبني عُبَادَةَ إِنَّ فَخْرَ قَدِيمِكُمْ
النَّصْرُ لَفِظٌ أَنْتُمْ مَدْلُولُوهُ
تُلَيْتُ بِفِرْقَانِ الْهُدَى أَسْطَارُهُ
والدِّينُ رَوْضٌ أَنْتُمْ أَنْوَارُهُ
فَهُوَ النَّسِيمُ وَأَنْتُمْ أَسْحَارُهُ
حَاطَ الْيَقِينُ بِهِمْ مَعَزَّ ذِمَّارُهُ
من كان أنصارُ النبيِّ جُدُودَهُ
فملائكُ السَّبْعِ العِلا أنصارُهُ⁽²⁾

(الكامل)

وكثيرٌ من الشعراءِ لم يلتفت إلى ذكرِ هذه القضيةِ في أشعارِهِ، إلا أنهم التفتوا إلى بيانِ دورِهِم في حمايةِ الدِّينِ والدِّفاعِ عنه، وهم بهذا يُسهِّمون في رفعِ مكانتِهِم بينَ النَّاسِ، حيثُ يقول أبو عبد الله محمد بن أبي عاصم القيسي مبيِّناً دورِهِم في حمايةِ الدينِ، وجاء هذا في سياقِ مدحه للسلطانِ إسماعيل بن فرج:

شَيَّدْتَ بِمَلِكِكَ لِلْهُدَى أَرْكَانُ
والله أسعدُهُ بدولتِكَ التي
وسمَّا له فوق السَّهْلِ بَنِيانُ
هي للعبادِ والبِلادِ اِمَانُ
هي بالرِّضَى لكَ عندهُ إِعْلَانُ
أَخْلَصْتَ فِي دِينِ الْإِلَهِ سَرِيرَةً

(1) ابن زمر، محمد: الديوان. ص: 54.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 373 - 374.

وأقمتَ من سنن النبي محمدٍ ما قامَ منك بشكره الإيمان⁽¹⁾

(الكامل)

رأينا أنّ ملوك الأندلس كان أكثرهم من الشعراء على عكس ملوك الشرق، فلدينا ما يشبه القاعدة العامّة، وهي أنّ الملوك كلّهم شعراء، وقلّما وجدنا فيهم ملكاً أو أميراً غير شاعرٍ، "وأغلب الظنّ أنّ البراعة في الشعر والبيان، كانت من المرشحات للملك وللמناصب العالية، وكذلك تنافس في الشعر كلٌّ من طالته نفسه إلى الرياسة".⁽²⁾

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في منّ لقيناها بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. ص: 173.

⁽²⁾ انظر: حميد، بدير: قضايا أندلسية. ط1. القاهرة: دار المعرفة. 1964. ص 127. ينظر: مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر.

المبحث الثاني: الهجرة من المدن الأندلسية إلى غرناطة:

أصبحت غرناطة حاضرة المسلمين الكبرى في الأندلس، إلا أنها لم تستطع بقوة أمرائها من بني الأحمر حماية جميع الأندلس التي كانت تحت حماية سلطان الموحدين، وسقطت مدن (قرطبة)، (وبلسية)، و(إشبيلية)، ومجموعة من المدن والحصن الإسلامية، وكان سقوط (إشبيلية) مؤذناً بالانهيار التام للوجود العربي، وسبباً في إثارة أطماع النصارى، وخاصة البرتغاليين الذين هالهم ما قام به فرديناند الثالث من أعمال.

وكان ابن الأحمر رجلاً بصيراً بالأمر حسن التصرف، وأحسن من سياسة الرعية، وتفانى لخدمة دولته، وحصل على مساعدة المرينيين ملوك مراكش في صراعهم للقوى الإسبانية، فأطال ذلك من وجود المسلمين في الأندلس، كما وفد على غرناطة ألوف النازحين من الممالك الإسلامية التي سقطت بأيدي النصارى، من أرباب العلم والحرف والصناعات ورجال السيف، فَعَمَرَ ابن الأحمر مملكته وأتخذ منهم جيشاً، وهكذا عُدَّت عليه الآمال لإحياء الأمجاد العربية الإسلامية.⁽¹⁾

ولعلَّ السقوط المتسارع للمدن الأندلسية، وعدم وجود الفاصل الزمني بينها، هو الذي دفع غرناطة لأن تنهض سريعاً من أجل الدفاع عن الوجود العربي في الأندلس.

"إن العدد الكبير للمدن والحصون التي سقطت بيد الأسيان، أدّى بالمسلمين قسراً أن ينحازوا في ركن ضيق بالجنوب هو مملكة غرناطة".⁽²⁾

لقد شعر الأندلسيون أن غرناطة ستكون ملاذهم الأخير، والمنتجع للهزائم التي لحقت بالمسلمين، يلاحظ هذا الأمر بشكل جليّ وواضح، فعندما سقطت (لوشة) بيد القشتاليين في سنة

⁽¹⁾ أنظر : ابن الخطيب ،لسان الدين: الملحمة البدرية في الدولة النصرية. ص:30 . ينظر عودات، أحمد وآخرون: تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس الهجري حتى القرن العاشر الهجري. أريد: دار الأمل للنشر والتوزيع. 1989. ص 160.

⁽²⁾ أنظر ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط10. القاهرة: دار المعارف. 1960. ص 411. المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج5. ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط1. بيروت: دار الفكر. 1998. ص 194.

إحدى وتسعين وثمانمئة، هاجر أهلها إلى غرناطة، وعندما قدم ملك غرناطة إلى (إلبيرة) خرج أهلها وقدموا على غرناطة، وأصبحت في نهاية الأمر تجمعاً لكل بلد تسقط في يد الأسبان.⁽¹⁾

ومع تزايد هجرات المسلمين الأندلسيين إلى غرناطة، فقد أصبحت المدينة مستودعاً لتراث الأندلس القومي والسياسي والفكري والحضاري بشكل عام. ونشأت عادات اجتماعية محببة في مجتمع غرناطة، كالصدق والعدل والتكافل واحترام الغريب.⁽²⁾

في هذا المقام لا بدّ أن نبين أمراً، هو أنّ المهاجرين لم يلجأ جميعهم إلى غرناطة، وإنما لجأ بعضهم إلى المغرب، ولكنّ الكثرة الغالبة فضلت البقاء في الأندلس ممثلة بحصنها الأخير وهو غرناطة. حيث تجمّع فيها على مدى السنين أكثر من مليون أندلسي، انضم إليهم في القرن الثالث عشر نحو نصف مليون أندلسي آخر، جاء أكثر من نصفهم من مدن قرطبة وأشبيلية وشريش وقادس (300.000 تقريباً)، ونحو 50.000 شخص من مملكة بلنسية وما حولها. ولم تكن هذه القوة كافية لانتزاع الأراضي التي احتلها القشتاليون، إلا أنّها كانت قادرة على صدّ الشماليين فترة طويلة.⁽³⁾

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي دفعت المسلمين للهجرة إلى غرناطة، الشعور الذي سيطر عليهم - وهم محقّون في ذلك - بأنّ حكمهم لم يعودوا قادرين على حمايتهم بسبب خلافاتهم السياسية، وتساعد الدعوات بينهم لمهادنة العدو مقابل التنازل عن المدن والحصون. وخير دليل على ذلك، ما أبداه أهل (مالقة) من صمود أمام النصارى قبل سقوطها، فقد نفذ ما عندهم من الأطعمة والزاد، وأكلوا ما كان معهم من المواشي، من خيل وبغال، وحمير وكلاب، والجلود،

(1) المقرّي: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج.5. ص 400.

ينظر: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر (مؤلف مجهول). ت: حسين مؤنس. ط.1. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي. 1991. ص 91 - 92.

(2) أنظر جودة، صادق: تاريخ المغرب والأندلس. ط.1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1997. ص 291.

(3) أنظر بشتاوي، عادل: الأمة الأندلسية الشهيدة. ط.1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2000. ص 115.

وورق الشجر، وغير ذلك من الأشياء التي يمكن أكلها، ومات منهم الكثير، ولم يدخل العدو المدينة إلا بالمكر والخديعة، فأمعن فيهم القتل والأسر وسبي النساء والأطفال.⁽¹⁾

وتعتبر هذه المرحلة من أخصب المراحل في مجال الشعر الوطني، بما اشتمل عليه من قصائد تحريض وحنين ورتاء واستصراخ. فمع ازديادها وكثرة عدد المهاجرين، استطاع ابن الأحمر أن يؤلف جيشاً كبيراً عاودهم بعد حلم استرداد الممالك الضائعة، غير أن ذلك بقي حلماً مستحيلاً.⁽²⁾

ومع تنامي هذه الهجرات، فقد اتسعت مدنٌ أخرى ومنها المريّة، حيث وفد إليها العديد من مسلمي الأندلس الذين أنفوا الحياة في بلادهم في ظلّ الحكم المسيحي. وأصبحت في القرن الرابع عشر الميلادي من أهمّ ثغور مملكة غرناطة بعد مدينة مالقة، فلم يبق للمسلمين من الثغور سوى (المريّة)، و(المنكب)، و(مالقة)، و(طريف)، و(الجزيرة الخضراء)، و(جبل طارق). ومع تقلص ملك المسلمين أصبحت مملكة غرناطة تقتصر على القسم الجنوبي من شبه جزيرة إيبيريا، وامتدت سواحلها من المريّة شمالاً إلى طريق في أقصى الجنوب.⁽³⁾

وكان أغلب سكان الدولة النصرانية من المسلمين، إلا أن أصولهم الوراثية غامضة. ففي سنة 710 هجري، أعلن الرّسل الأراغونيون المبعوثون إلى القصر البابوي لكليمن الخامس عشر، أن منّي شخص عربي يعيشون في غرناطة وليس بينهم سوى خمسين من أصل عربي. وبعد ذلك بخمسين سنة، أشار ابن الخطيب إلى أن معظم سكان غرناطة كانوا من العرب، تبعاً لأصلهم إلى جانب البربر والمهاجرين. وانضمت إلى هذه الطائفة من السكّان سلالات من العرب السوريين، ومن المولّدين، ومن اليهود.

إنّ هذا التباين في العناصر ساعد في تكوين الثقافة ونموّها، وكذلك فقد أعطى لمملكة غرناطة صفة عربية، ونذكر أنّ ابن الخطيب نفسه كان يفتخر بنسبه الذي يمتد إلى قبيلة

(1) أنظر: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. ت: حسين مؤنس. (مؤلف مجهول). ص 97 - 98.

(2) أنظر: عيد، يوسف: أصوات الهرمجة في الشعر الأندلسي. ط1. بيروت: دار الفكر. 1993. ص 12.

(3) أنظر: سالم، السيّد: تاريخ مدينة المريّة الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس. ط1. بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر. 1969. ص:102.

السلمانيين المتفرعة من المراديين، وهم عرب اليمن القحطانية، فعائلة لسان الدين نشأت في سوريا، ثم هاجرت إلى إسبانيا في القرن الثامن الميلادي، واستقرت بقرطبة، ومنها اتجهت إلى (طليطلة) ثم إلى (لوشة)، وانتهى بها المقام في غرناطة.⁽¹⁾

غير أن ما ذكر من عدد العرب بأنه لم يتجاوز أكثر من مئتي شخص، فيه تناقض يرفضه العقل، لأنّ التجمّع العربي الأصيل كان موجوداً في غرناطة قبل قيام دولة بني الأحمر، مع الاعتراف بأثر الهجرات في نمو الدولة. ومن جانب آخر، رأينا أنّ الهجرات إلى غرناطة لم تتسارع إلا في بدايات القرن التاسع للهجرة.

ومما لا شكّ فيه أنّ الإنسان الذي يُهجّر من وطنه يحمل ذكرى المظالم السابقة، وآلام المطاردة المحزنة، وأمل الانتصاف، وشعوراً لا يقهر ببغض النصرانية، كل هذا أدى إلى ازدهار شعر الاستنجاد، وتنامي الدعوات المتلاحقة للنهوض من أجل استرداد ما ضاع من المدن والأعراض.⁽²⁾

وخير ما يمثل هذا الواقع الذي وصل إليه الأندلسيون قول أبي الطيب صالح بن شريف الرّندي، إذ قال يندب بلاد الأندلس، وبهدف بعث العزائم وتحريكها، كي يهبّ أهل الإسلام لنصرة الدين، فيقول مصوراً هذه الآلام من خلال أبيات تدل على ضياع الأرض وانتهاك العرض، وهما أعلى ما يملك الإنسان:

وطَفَلَةٌ ما رَأَتْها الشَّمْسُ إذ بَرَزَتْ كأنَّما هي ياقوتٌ ومرجانٌ
يقودُها العَلَجُ للمَكْرُوهِ مُكْرِهَةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانٌ
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ إن كانَ في القلبِ إسـلامٌ وإيمانٌ⁽³⁾

(البسيط)

⁽¹⁾ أنظر: ابن الخطيب، اسان الدين : الأحاطة في أخبار غرناطة : ج:1. ص:7. ينظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 67 – 68.

⁽²⁾ أنظر: عنان، محمد: هامة الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. ص 53.

⁽³⁾ المقرئ، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار عيَّاض. ج:1. ت: مصطفى السَّقا وآخرون. الرباط: مطبعة فضالة- المحمدية. 1979. ص 50.

وقد دخلت أسرات عريقةً إلى مملكة غرناطة، حيث لجأت إلى المناطق الجنوبية والمدن الساحلية، علاوةً على طوائف البربر الذين وفدوا من المغرب، وطاب لهم المقام بأرض الفردوس، حتى غدت بهم غرناطة يوماً إمارة تميّزت بعنصر البرابرة، على الرغم مما بها من سكان آخرين.⁽¹⁾

اتّبع ملوك بني الأحمر سياسةً دفعت الكثير من الأدياء لكي يهاجروا إلى مملكتهم، ولهذا نستطيع أن نقول: إنّ من أساليب الهجرة إلى غرناطة وجود عامل الترغيب، وهنا ندخل في سعي الشعراء نحو الجاه والمال، فالكثير منهم لم يحالفه الحظ في نيل مرتبة عند وليّه وحاكمه، فحاول أن يعيد ما فاتته عند ملوك بني الأحمر.

وإذا ما استعرضنا كتب التراث فإننا نجد الكثير من هؤلاء أمثال: علي بن يوسف بن محمد بن كماشة، وكان قائداً ووزيراً للغني بالله ثامن سلاطين بني نصر، وهو من بلدة طليطلة التي تبعد عن (إشبيلية) عشرين ميلاً، وعلي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني القيحاطي، وأصله من سبتة، واستوطن غرناطة، حتى عدّ من أهلها قراءة وإقراءً ولزوماً، وقد ورد على غرناطة مُستدعىً عام اثني عشر وسبعمئة هجري، وقعد بمسجدها الأعظم، وكان أديباً لودعياً فكهاً.⁽²⁾

ولهذا فإننا نلاحظ أنّ قسماً كبيراً من شعراء هذه الفترة هم من الذين وفدوا على غرناطة.

المبحث الثالث: السعي من أجل تثبيت الشخصية العربية والحفاظ عليها:

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: كناسة الدكان بعد انتقال السكان. ت: محمد كمال شبانة. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. ص 17.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 4. ص 81.

حاول الأندلسيون الوقوف أمام هجمات النصارى المتكررة على المدن والحصون، لأنَّ الإسبان استطاعوا أن يقودوا المعركة بوعي وإدراك، وساعدهم في هذه المعركة عوامل عدّة نذكر منها:

1. عاش العرب في الأندلس ضمن الصراعات السياسية، وتمثّل هذا في صراع ملوك الطوائف، فقد سعى كلّ ملك للسيطرة على الممالك الأخرى، فرأينا صراع المرابطين والموحدين، ثم الصراع الذي دار بين بني الأحمر أنفسهم، حتى أنّهم في أحلك الظروف، دارت بينهم هذه الصراعات، ولا ننسى القتال الذي جرى بين أبي عبد الله الصغير وعمّه أبي عبد الله الزُّغل، وقد كان الإسبان على أبواب غرناطة.

2. سعى الكثير من ملوك الأندلس لنيل رضى ملوك قشتالة، ومحاولة الميل إلى جانبهم وإهمال أهل المغرب في طلب النّصرة.

3. قتال الإسبان للمسلمين نبع من إيمانهم بأنهم يدافعون عن أرض الآباء والأجداد، فهم ينظرون إلى العرب بأنهم محتلّون، ويجب أن يعودوا إلى بلادهم.⁽¹⁾ فحربهم ضد المسلمين حرب استرداد من وجهة نظرهم.

4. استطاع الإسبان أن يكوّنوا لأنفسهم صورة تدل على التسامح، ولهذا نراهم يتركون لسكّان المدن التي تسقط في أيديهم، حرية البقاء في أراضيهم لكي يزرعوها ويمارسوا حياتهم اليومية. ولكنّ هذا الأمر كان ينطوي على خديعةٍ أبطنها الأسبان في نفوسهم، فهم يدركون أن هؤلاء المدجنين أصحاب خبرة ودراية بالزراعة والصناعة، إضافة إلى ذلك، فإنّهم إن أخرجوا من ديارهم، فلا بدّ أن يلتحقوا بجيش غرناطة تحت قيادة ابن الأحمر.

وكان سقوط أيّ بقعةٍ أو حصن من غرناطة في يد الأسبان، لا يعني انتهاء الوجود السياسي، بل حرب الإفناء في العقيدة، وفي الوجود البشري.

⁽¹⁾ أنظر: القاسمي، جاسم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 2000. ص 175.

وعلى أية حال، فقد دخل العرب إلى الأندلس فاتحين وناشرين لدين الله، ومكوتين دولةً إسلاميةً قويةً، ولكنّ التواجد الاجتماعي المتنوّع العناصر، كان سبباً من أسباب ظهور النعرات العنصرية العرقية، فالمجتمع الأندلسي تكوّن من العرب والبربر وأهل البلاد الأصليين، وظلّ العرب يتسيّدون على العناصر الأخرى حتى ثار قسم منها على الدولة وعاثوا فيها فساداً.⁽¹⁾

"والعرب كانوا يحسّون إحساساً قوياً بنوع من الأرسقراطية نابع من غلبتهم على الأسبان والبربر وإخالهم في الإسلام، وكذلك من لغتهم التي تفوق غيرها. ولعلّ شعور التعالي هذا من قبل العرب، هو الذي كان يولّد الثورات ضدهم".⁽²⁾

وعندما ننظر إلى الصلات التي قامت بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد، فإننا نرى أنّ الصلات بينهم قد توثّقت على مرّ الزمان توثّقاً وتماسكاً بفضل الزواج، ولذلك فإنّ عرب أسبانيا الذين كانوا في العصور التي أعقبت الفتح، يفخرون أعظم الفخر، بتحدرهم من أجدادهم في بلاد العرب أو سوريا.

وقد قام الإسبان بعد سقوط المدن الأندلسية بمحاولة القضاء على الحضارة العربية، وما حاولتهم للقيام بإتلاف الكتب العربية، إلا من أجل طمس هذه الحضارة.⁽³⁾

قام الإسبان بتحويل المساجد في المدن التي تسقط في أيديهم، إلى كنائس واصطبلات لخيولهم، وهذا ما جرى في مسجد البيازين، أشهر أحياء غرناطة، فقد حولّه الأسبان إلى كنيسةٍ بعد سقوط غرناطة، وما يزال حتى اليوم بعض أسوار هذا المسجد قائمةً مع جزء من صحنه.⁽⁴⁾

وهذا الأمر فعله فرناندو الثالث في مدينة اشبيلية، وأزيلت منها المعالم الإسلامية، ولا نستثنى الهجمة التي شنّها الأسبان على الآثار الإسلامية، ومحاولات التخريب التي جرت في

⁽¹⁾ أنظر: القاسمي، حاسم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ص 176.

⁽²⁾ أنظر: عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 133.

⁽³⁾ أنظر: بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس. ترجمة ذوقان فرقوط. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. ص: 71.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. 3. ص 14.

قصر الحمراء. ويصف لنا ارفنج في كتابه (قصر الحمراء) فيقول: "أخذت الغرف رويداً تتسع للسفلة والمجرمين، واغتنمها قطاع الطرق فرصة من استقلالها الشرعي، وأخذوا يعيشون في الأرض فساداً، وهكذا اتخذ اللصوص من هذا المكان ملاذاً لهم، ينقضون منه للسلب على غرناطة".⁽¹⁾

وفي هذا الصدد يقول غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) وهو يصف محاولة طمس الشخصية العربية في الأندلس، وذلك من خلال تدمير آثارهم التي خلفوها بعد السقوط: "وأما مدينة غرناطة، فلا أنصحُ أحداً بأن يزورها، بعد أن وصفها شعراء العرب، بأنها أنضر مدينة تتألف أشعة الشمس وبأنها دمشق الأندلس". ولا أقدر أن أصف الحال التي كانت عليها غرناطة فيما مضى، ولكن غرناطة الحديثة، لم تكن سوى قرية كبيرة كثيفة قذرة ليس فيها ما يجدر ذكره سوى كاتدرائيتها الفخمة وحمرائها، فضلاً عن أنها قائمة على مكان يُعدّ من أجمل الأمكنة في العالم... حقاً لم تكن غرناطة الجديدة سوى مدينة مَيّنة".⁽²⁾

ومن القضايا التي أثرت في الشخصية العربية في الأندلس بعد تتابع سقوط المدن، قضية الزواج بين المدجنين والنصارى، وفقد المدجنون بمضي الزمن دينهم ولغتهم التي كانوا يفاخرون بها، واندمجوا في المجتمع النصراني. ونرى من بين زعماء شرقي الأندلس، بعض الأمراء يرجعون إلى أصل نصراني، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك (بلنسية) و(مرسية)، وكان يتكلم القشتالية، ويلبس الثياب القشتالية، ويتقلد السلاح القشتالي، ومعظم ضباطه وجنده من النصارى.⁽³⁾

ومع توالي الهزائم التي مُني بها العرب في الأندلس، نلاحظ تراجع الفنون الشعرية التي تدلّ على اللهو والعبث وهوى النفس الإنسانية، ممثلةً بالغزل والمجون والخمرة، وفي مقابل هذا، فقد تعالت الأصوات التي تنادي بالحفاظ على كيان المسلمين، ولعلّ شعر الاستتجاد والهزيمة وراثاً المدن والممالك خير دليل على هذا.

⁽¹⁾ إرفنج، داشنجن: قصر الحمراء. ترجمة إبراهيم الإيباري. ط2. مصر: دار المعارف. 1957. ص 25.

⁽²⁾ لوبون، غوستاف: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتير. ط2. مطبعة دار إحياء الكتب العربية. 1948. ص 367.

⁽³⁾ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين، الأحاطة في أخبار غرناطة. ج2. ص: 70. ينظر: عنان، محمد: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. ص 199.

ويرجع اهتمام الكتاب بالأصول العرقية المنتسبة إلى القبائل العربية، إلى أنها محاولة للدلالة على أصالته ونزاهته. وقد عدّ ابن الخطيب الأصول العرقية المنتسبة إلى القبائل العربية، ومنها على سبيل المثال: "القرشي"، والفهري، والأموي، والأزدي، والقيسي، والكناني، والخزرجي، والقحطاني... وابن الخطيب كان دائم الفخر بنسبه الذي يمتد إلى قبيلة السلمانيين، وهم من عرب اليمن القحطانية⁽¹⁾. وعندما كان يمدح الملوك، فإننا نراه يذكر أسماء الخلفاء العباسيين للدلالة على ارتباطه بالمشرق، وللتأكيد على أصوله العربية، ولا ينسى أن يذكر الخصال الحميدة التي اشتهر بها العربي مثل الكرم والشجاعة. يقول:

وبالسَّيفِ "سَفَّاحٌ" وبالهَدْيِ "مُهْتَدٍ" وبالرُّعبِ "مَنْصُورٌ" وبالله "مُسْتَكْفِيٌ"
 مِنَ الْعَرَبِ الشَّمَّ الْأَنْوَفِ إِذَا اجْتَبَوْا تَبَوَّأَتْ فِي جَارٍ مَجِيرٍ وَفِي حِمْفٍ
 كِرَامٌ إِذَا مَا الْغَيْثُ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَكْفُ بِصَوْبٍ حَيًّا كَانَتْ أَكْفُهُمْ تَكْفِيٌ⁽²⁾

(الطويل)

هذا الحرص الذي أبداه لسان الدين من خلال تمسكه بالشخصية العربية، نلمحه واضحاً لدى الملوك الذين ما انفكوا يتغنون بأبائهم وأجدادهم المشرقين. يقول الملك يوسف الثالث مفاخرأً بأبائه وأجداده:

لنا السلف الأَرْضِي، حماها قد ارتضى وناهيك من جدِّ كريمٍ ومِن أب
 فنحن نُزَجِّي بعده كلَّ سَابِحٍ ظَفَرْنَا بما نرجوه من كلِّ مِطْلَبٍ⁽³⁾

(الطويل)

وقد أشعل ملوك النصارى النزعة الدينية عند شعوبهم، فكانوا يطلقون على معاركهم ضد المسلمين، ما يُعرف بحروب التحرير والاسترجاع، وجاء هذا من أجل إشعال الحماس الديني وتسيير الحملات الصليبية إلى أرض الأندلس.

⁽¹⁾ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الأحاطة في أخبار غرناطة، ج. 1، ص. 37.

ينظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في عصر دولة بني الأحمر، ص. 68.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، ج. 2، ص. 675.

⁽³⁾ يوسف الثالث: ديوان ملك غرناطة، ت. عبد الله كنون، ط. 2، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1965، ص. 15.

وفي كثير من الأحيان، كان الأسبان يرفضون عرض الصلح الذي تقدمه بعض المدن الأندلسية، لأنهم أرادوا من المسلمين أن يخرجوا من الأندلس إلى حيث جاؤوا، لأن الهدف ليس التحرير، وإنما الوجود الحضاري العربي. وبسبب طغيان التعصب عندهم، فقد حثّ بعض علماء المسلمين على الهجرة إلى أراضٍ لم تسقط بعد، في الوقت الذي بدأت فيه حرب الإبادة من الأسبان. وقد ساعد في هذا جماعة من الرهبان والقساوسة، ودفعهم هذا إلى شنّ حرب على الأمة الإسلامية.⁽¹⁾

ويظهر هذا التعصب واضحاً في قول المطران الفارو وهو يصف المسلمين في الأندلس حيث يقول: "إنّ هناك أناساً يتحدثون عن الله في المآذن، ومن أبراجهم العالية يومياً، وفي ضجيج كبيرٍ ومخيف، وفي تكشيرة حيوانٍ وحشيٍّ وشفاهٍ متباعدة، وفمٍ مفتوحٍ على وسعه، مثل المصابٍ بمرض القلب، يزعمون ويعوون مثل المجانين".⁽²⁾

واستند التعصّب الأسباني ضد المسلمين على الجانب القومي، لهذا فقد استندوا في إمداداتهم أثناء الحروب على دول أوروبا، فهم لم يغفلوا أنّ العرب اعتمدوا على إخوانهم المغاربة، وبهذا فقد انتقل الصراع من الجانب الإقليمي الذي انحصر في حدود الأندلس، إلى الجانب الدولي (العقائدي) الذي تمثّل في المواجهة بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

كانت ممارسات النصرانية تنمي الرغبة عند المسلمين كي يدافعوا عن عقيدتهم، وهذا كان متأصلاً في نفوسهم، ولا بدّ أن ننوه إلى دور الإعلام في ضرب الشخصية العربية آنذاك. فالقساوسة يصوِّرون للناس والملوك أنهم ليس هناك شي في الدنيا أسوأ من الإسلام، وأنه لا بدّ من إزالته والقضاء على مَنْ يتمسك به من الناس، في حين كان النصارى يعيشون في بلاد المسلمين آمنين، وإن كانت هناك ظواهر من سوء المعاملة هنا أو هناك.⁽³⁾

⁽¹⁾ عودات، أحمد وآخرون: تاريخ المغرب في الأندلس. ص 170.

⁽²⁾ أمين، اسماعيل: العرب لم يغزوا الأندلس. ط1. لندن. رياض الرّيس للكتاب والنشر. 1991. ص: 254.

⁽³⁾ أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر. (مؤلف مجهول). ص 37.

أما بالنسبة لليهود، فإننا ننظر إليهم في بدايات الفتح بصورة مختلفة عما هو في بدايات السقوط، فقد وقفوا موقفاً محايداً أثناء الفتح الإسلامي، وسبب ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العرب نظرة المخلصين لهم من طغيان المسيحيين. واليهود بدورهم لم يتخلوا عن طبيعتهم في المكر والخديعة والتمسك بالسياسات المتذبذبة، لكي يضمنوا الطرف الأقوى دائماً. وهذا ما لمسناه طوال وجودهم في غرناطة، التي عرفت بغرناطة اليهود، فلم يكذب يصبح لهم كيان بفضل الحكم الإسلامي السَّح، حتى كادوا للإسلام، وتكثروا ضد المسلمين، وحاربوهم دينياً وسياسياً، وسخروا من القرآن الكريم، وعملوا على تفتيت كلمة العرب ونازعوهم السلطان، وثاروا على عبد الله بن بكين آخر ملوك غرناطة - زمن الطوائف - منتهزين محنته مع المرابطين فاضطروا إلى مهادنتهم.⁽¹⁾ وفي هذا الجانب يقول ابن الخطيب: قلتُ في اليهود حسبما اقتضاه وقتٌ من الأوقات:

وَعُصْبَةٌ شَرٌّ مِنْ يَهُودٍ لَقِيَتْهَا	يُجَانِبُهَا دَاعِي الْهُدَى وَيَحَاشِيهَا
إِذَا أُمُّوْا وَاسْتَوْتَفُّوا الْبَابَ أَعْلَنُوا	خَبَائِثَ مَا كَانَ اللَّسَانَ لِيُقَشِّيَهَا
كَأَنَّ رُؤُوسَ الْقَوْمِ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ	وَقَدْ أُوْمَأَتْ لِلْأَرْضِ صُفْرَ شَوَاشِيهَا ⁽²⁾
أَقَاحِ أَمَالَتِهَا الرِّيحُ عَلَى الثَّرَى	وَقَدْ أَسْقَطَتْ عَنْهَا بِيَاضَ حَوَاشِيهَا ⁽³⁾

(الطويل)

ومن الأمور التي وقفت في مواجهة حماية الشخصية العربية في الأندلس، كونها اتصفت بالقلق وعدم الاستقرار، فالتاريخ الأندلسي كله تاريخ مواقف متتابعة من القلاقل والاضطرابات ومحاولات الانفصال، وتعليلهم لهذه الظاهرة: هو التباين بين الأجناس التي تركز منها المجتمع الأندلسي، ومن هنا يمكن أن نتصور هذه الشخصية التي عاشت خلال هذه الظروف بأنها قد عاشت نوعاً من القلق.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ أنظر: شليبي، إسماعيل: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف. القاهرة: دار نغمة مصر للطبع والنشر. ص 57.

⁽²⁾ الشواشي: ج شاشية، وهي قبعة اليهودي.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: ج 2. ص 739.

⁽⁴⁾ عناني، محمد: تاريخ الأدب الأندلسي، مصر: دار المعرفة الجامعية. 1999. ص 39 ينظر: هيكل، احمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط

الخلافة. ط 7. مصر: دار المعارف. 1979. ص 50.

وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو، كالشرب والغناء والرقص والموسيقى، وما أشبه ذلك ما كان يكلف به الأندلسيون.

والذي يقرأ التاريخ يجد أن ما لحق بالعرب من محاولات حثيثة لطمس هويتهم الحضارية، وهذه المحاولات - كما مرّ بنا - لم تكن جديدة، فهي قديمة سعى الإسبان من خلالها لإخراج العرب المسلمين من بلادهم والمهم في الأمر، أن هذه المحاولات التي ظاهرها إخراج المسلمين، لم تكن الهدف بكل غاياته، بل هدفهم هو القضاء على حضارة الإسلام متمثلة بكل ما يشير إلى تلك الحضارة التي دامت قرابة الثمانية قرون إن الآثار المبنية والمنحوتة، والفنون المكتوبة قد جرى تدميرها من قبلهم، لأنهم يدركون أن الإنسان مصيره إلى الموت والزوال، ولكن آثاره وأفعاله لن تزول.

المبحث الرابع: ضياع المدن الأندلسية واستنهاض الهمم:

إنّ الظروف السياسية التي سادت الأندلس عند قيام دولة بني الأحمر، كانت مزيجاً من الصراعات الداخلية بين ملوك وحكّام الطوائف. وأدّى هذا إلى ضياع الكثير من المدن والحصون الأندلسية، لأنّ الإسبان استطاعوا أن يرسموا مخططاً من أجل التفرّد بهذه الممالك، وتمّ لهم ما أرادوا، وكانت سياستهم تقتضي إسقاط هذه الممالك الواحدة تلو الأخرى. إنّ قوّة العدو وتفوقه ووجود هذه الظروف، مكنته من افتراض الظروف المناسبة لتنفيذ مشاريعه باقتطاع أجزاء من الأندلس، تتلخص بالمناطق الأقرب إليه فهي أول ما يلقي المصير خلال تقدمه.

وكانت نتيجة هذا السقوط تشتت المسلمين وتفرقهم، ومن الطبيعي أن يواكب الشعراء هذه الظروف، وأن يعبّروا عنها من خلال أشعارهم التي حاولوا من خلالها أن يظهرها حجم المأساة التي أصابت أهالي تلك البلاد، ووجهوا الدعوات والصرخات المتلاحقة لإخوانهم لكي يقفوا إلى جانبهم، من أجل صدّ هذه الهجمة وأن ينهضوا لنصرتهم على عدوهم.

وشعر الاستنجد لم يكن وليد هذا العصر، فقد واكب العصر السابقة من التاريخ الأندلسي، وهذا ما رأيناه عند ابن الأبار القضاعي في استغاثته صاحب افريقيا أبا زكريا بن أبي حفص، حيث يقول:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً	إنّ السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزل منك عزّ النصر ملتمساً
وحاش ما تعانيه حشاشتها	فطالما ذاقت البلوى صباح مساً
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدّها تعسا
يا أيّها الملك المنصور أنت لها	علياء توسع أعداء الهدى تعسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس	ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطيء الفيلق الجرّار أرضهم	حتّى يطأطيء رأساً كلّ من رأسا

وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخسا⁽¹⁾

(البسيط)

وهذه القصيدة قيلت في سنة ستمئة وست وثلاثين للهجرة، أي في بدايات نشوء مملكة غرناطة، وشهد هذا التاريخ هجرة قوية إلى هذه المملكة الفتية.

والواقع أنّ الشاعرَ قد استغلَّ الفكرة المهدوية التي قامت على أساسها الدولة الموحدية في المغرب، فكيف لا يقوم الملك الحفصي بتطهير البلاد من الدنس والكفر؟ فالتطهير صفة من صفات الإمام، وكيف لا يقوم بنصرة الحق؟ ونصر الحق مبدأ من مبادئ عقيدته. إنّ الأنبياء في الأندلس متواترة، على أنّ الملك سيتصدى لقتل ملوك الصفر.⁽²⁾

وكثير من الشعراء، كانوا يتقلّدون مناصب سياسية هامة، فمنهم الوزراء والكتبة، ونتيجة لهذا، فقد كانوا قريبين من مركز القرار، وكان لهم الأثر الواضح في رسم السياسات لبعض الملوك على نحو ما جرى مع الوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب.

وظلت المهادنة سائدةً طوال حكم بني الأحمر، وتقوم على إبقاء التوازن بين القوى المتصارعة في الأندلس للاحتفاظ بمملكتهم. فهم تارة يستغيثون بسلاطين المغرب ضد النصارى إذا ازداد خطر هؤلاء عليهم، وتارة يستغيثون بالنصارى ضد سلاطين المغرب إذا قوي هؤلاء وسيطروا على الأندلس.

ونتيجة لهذه السياسة؛ فقد تخلى عنهم أهل المغرب عند السقوط. يقول مؤلف (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر): "إنّ إخواننا من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم؛ ولا عرّج على نصرتنا وإغاثتنا. وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا وهو يزداد قوّة".⁽³⁾

(1) المقرئ، أحمد بن محمد: نوح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 349-350. زكا: الزوج من العدد، الحسا: الفرد من العدد.

(2) أعراب، الطرايسسي: الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي / مجلة عالم الفكر: المجلد الثاني عشر. الكويت: وزارة الإعلام. 1991. ص: 143

(3) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) تأليف مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة 900—100هـ. ت/ الدكتور محمد رضوان الداية. ط: 2. دمشق: دار الفكر المعاصر. 2002. ص: 104.

وفي سنة خمس وستين وستمئة، جرت هذه المعاهدة حفاظاً على الوجود العربي، وجرى خلالها التنازل عن مدينة شريش ومجموعة من الحصون، فتحركت مشاعر أبي البقاء الرندي لرتاء الأندلس:

لَكلِّ شَيْءٍ إِذا ما تَمَّ نَقْصانُ فَلَما يَغْرَ بِطِيبِ العِيشِ إِنسانُ
هي الأُمورُ كما شَاهدتَها دُولُ مَن سَـرَّةُ زَمَنٍ سَـاعَتُهُ أَزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أَحَدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شَـانُ⁽¹⁾

(البيسط)

وبسقوط معظم المدن بيد ملوك الشمال، ظلَّ قليل من الشعراء متشبثين بفكرة مقاومة العدو والجهاد المقدس، وذلك للحفاظ على مملكة غرناطة، تلك البقعة الصغيرة المتبقية من صروح الأندلس وأمجادها الغابرة. وبات على الشاعر الملتزم ألا تخمدَ جذوة كلمته، وأصبح لزاماً عليه أن يحركَ الضمائرَ من أجل عدم إضاعة المزيد من الممالك، وهكذا اتجه الشعراء نحو بني مرين حكام المغرب الزناتيين بوصفهم المنقذين الوحيدين الذين يُعتمد عليهم.⁽²⁾ ومثَّل هذا الدور أبو عمرو بن المرابط شاعر بني الأحمر فيقول:

أفلا تَذوب قلوبُكُم إِخواننا ممّا دَهانا من رَدَى أو من رَدِي
أفلا تراعونَ الأذِمَّةَ بَيننا من حُرْمَةٍ ومَحَبَّةٍ وتودُدٍ
أكذا يعيُثُ الرومُ في إِخوانِكُم وسُيُوفُكُم لِإِثْثارٍ لَم تَتَقَلَّد⁽³⁾

(الكامل)

وكان ملوك بني الأحمر يعتمدون على المرينيين كلما أحسوا بدنو الخطر منهم، ويرجع سبب ذلك إلى قربهم من المغرب العربي، ومن الملوك الذين اعتمدوا على بني مرين في الاستجداء، السلطان يوسف أبو الحجاج، حيث أرسل وفداً من غرناطة يرأسه الوزير لسان الدين ابن الخطيب، وبعد موت السلطان يوسف خلفه ولده محمد الغني بالله، وبقي ابن الخطيب في

(1) المقري. أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج 5. ص 373.

(2) الطويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ط 1. بيروت: دار الفكر. 1991. ص 32.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج 7. ط 1. ت: تركي فرحان المصطفى. بيروت. دار إحياء التراث العربي. 1999. ص: 195.

منصبه معاوناً له، ولما رأى الغني بالله الاستنصارَ ببلاد فاس، أرسل وزيره ابن الخطيب سفيراً إلى أبي عنان على رأس وفدٍ من رجالات الأندلس يستنصر به.⁽¹⁾ وخاطبه ابن الخطيب بقوله:

لَيْسَ لَنَا مَلْجَأُ نَوْمَلُهُ سِوَاكَ أَنْتَ الثَّمَالُ وَالْوَزْرُ⁽²⁾
وَجَهْكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دُجَى لَنَا فِي الْمَحَلِّ، كَفُّكَ الْمَطَرُ
وَالنَّاسُ طَرّاً بِأَرْضِ أُنْدَلُسِ لَوْلَاكَ مَا أُوطِنُوا وَلَا عَمَّرُوا⁽³⁾

(المنسرح)

وقد أقرّ ملوك بني الأحمر بفضل بني مرين عليهم، ومن ذلك رسالة بعث بها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول إلى معاصره بالمغرب السلطان أبي عنان فارس المريني يقول فيها: "... فإننا إن عقدنا سلماً عقدناه بريحكم التي يحذر العدو هبوبها، وإن شئنا حرباً استعنا بعزماكم التي تنال بها الملةً مطلوبها...".⁽⁴⁾

على أنّ العلاقة بين ملوك غرناطة وإخوانهم في المغرب كانت تسوء في بعض الأوقات، ويرجع هذا إلى سببين؛ أولهما: أن ملوك غرناطة كانوا يلجؤون إلى مهادنة ملوك قشتالة بين الحين والحين، وهذا ما فعله محمد الفقيه. مما أدى في النهاية إلى وقوع التناظر بينهم، وكان وبالاً على الإسلام في الإندلس.⁽⁵⁾

وثانيهما: هو مشيخة الغزاة، فهؤلاء مجموعة من الجند وضعها المرينيون في الأندلس، لتكون جاهزة لملاقاة القشتاليين، فهي فرقة عسكرية يوكل أمرها إلى قائد مريني يحمل لقب

⁽¹⁾ أنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج: 7. ص 319. ينظر: الملاح، ياسر: من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس. ط 1. القدس: مطبعة الإسماء. 1993. ص 247.

⁽²⁾ الثمال: المعتمد، الوزر: الملجأ.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج 1. ص 404.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: كناسة الدكان بعد انتقال السكان. ص 104.

⁽⁵⁾ أنظر: مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس. ط 1. القاهرة: دار ومطابع المستقبل. 1980. ص 387.

(شيخ الغزاة)، وقد أدت هذه خدمات كبيرة لمملكة غرناطة، في الوقت نفسه كانت قاعدة لتدخل المرينيين في شؤون غرناطة الداخلية، وهو أمر لم يقبله ملوك بني الأحمر.⁽¹⁾

وقد ساعد ضياع المدن والحصون إلى ازدهار كثير من الفنون الشعرية كالمديح والرثاء، فهذين الفنين في بدايتهما انصبَّ على مديح الأشخاص ورثاء الأحيّة والأقارب، وانعطف مسارهما نتيجةً لهذه الظروف، فلا تكاد تسمع أشعاراً في المديح خلت من تمجيد الانتصارات في المعارك ووصف البطولات، ومن ذلك قول الكاتب أبي العلاء محمد بن محمد بن سماك العاملي يمدح السلطان الغني بالله:

فتح قضاءه لملكك الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ
فلأيّ يوم سعادةٍ أو لأكه ذلّت بعزة نصره الصلبانُ⁽²⁾

(الكامل)

ويبدو أن هذا الأمر قد ألهب مشاعر العامة والخاصّة من الناس، وكيف لا يكون ذلك، والكلّ يشعر بأن ما حصل مع أصحاب المدن المنكوبة لا بدّ أن يصل إليه، ولكنّ القدر شاء أن يؤخّر ساعة سقوطه.

وصورت أشعارهم الحالة التي وصل إليها الأندلسيون، حيث سادهم الضياع والاضطهاد والفرقة، وبالرغم من هذه المآسي، فقد تميّزت أشعارهم برفع الهمم والمعنويّات، ولامتت المشاعر الدينية عند سامعيها، يقول السلطان أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر صاحب (نثير الجمان):

لولا صبرنا في كلِّ حربٍ لكان لجانب الدين اهتضامُ
نحاربُ دونهُ الأعداءَ حتى تذلّ لعزّه النوبُ العظامُ
وليس يضُرنا أنّا قليلٌ لعمرُ أبيك ما كثر الكرامُ

⁽¹⁾ أنظر: مكّي، محمد: الحضارة العربي الإسلامية في الأندلس. ط1. بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية. 1998. ص129.
⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في منّ لقيناها بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ت: إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة. 1983. ص198.

إذا ما الرّايةُ الحمراءُ هزّتْ فثمَّ هناكَ للحربِ ازدحامٌ⁽¹⁾

(الوافر)

ومن الأسباب التي جعلت القشتاليين يسيرون بخطى حثيثة للاستيلاء على المزيد من المدن، أنه برزت في تلك الفترة - أي في العام ثمانية وستين وثمانمئة للهجرة - مخاوف قشتالية من احتمال استخدام العثمانيين أو الفرنسيين مملكة غرناطة للضغط على قشتالة وأرغون، وكذلك فإن استيلاء إيزابيلا على غرناطة يعني إسكات المعارضة الداخلية؛ لأنّ الأنظار ستنتجه إلى العدو الغرناطي.

وقد احتلّ فرناندو (رندة) عام تسعين وثمانمئة، و(مالقة) عام اثنين وتسعين وثمانمئة، ونصب المدفعية حول غرناطة عام خمسة وتسعين وثمانمئة، ونشر نحو ثلاثين ألف جندي، وأسند إليهم مهمة تخريب الحقول وحرقها وقطع الأشجار؛ لتثديد الضغط على الأهالي داخل المدينة.⁽²⁾

وأثناء الصراع الذي دار بين الأخوة أبناء الدين الواحد، استولى العدو على مدائن جلييلة، وقلاع حصينة، وثور شريفة، وربوع أهلة مثل مدينة (قلهرة)، و(أنتيشة)، و(مدينة سالم)، و(المدينة البيضاء) وهي مدينة (سرقسطة)، و(سنترين)، و(أشبونة)، و(طبرية)، و(طليطلة)، و(بنسية)، و(ميورقة)، و(لبلة) و(جبل العيون) و(كورة باجة). لقد استولى الإسبان في تلك الحقبة على خمسمئة من البلدات، كل هذا والنزاع قائم بين ابن هود وابن نصر.⁽³⁾

ونشير إلى أن شعر الاستجداد عدا عمّا أحدثه من أثر في الواقع السياسي، فقد كان له ردُّ فعل إيجابي على المستوى الأدبي، إذ أخذ شعراء البلاد يجيبون عن تلك القصائد بالروي والوزن نفسيهما، ويحرصون على أن تكون إجاباتهم مطمئنة، وأنّ النجدة في طريقها إليهم.

⁽¹⁾ ابن الأحرر، إسماعيل: نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان. ت: محمد رضوان الداية. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1987. ص 202.

⁽²⁾ أنظر: مؤلف مجهول: أحر أيام غرناطة نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ت: محمد رضوان الداية ط: دمشق دار الفكر. 2002. ص 66. ينظر: بشتاوي، عادل: الأمة الأندلسية الشهيرة. ص 117 - 118.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: تاريخ اسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام) في من بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. ت: ليفي بروفنسال. دار المكشوف. ص 293.

وقد لجأ بعضهم إلى تضخيم الإحساس بالخسارة، وما ينتج عن ذلك من لوعة تبرر ما سيذهب إليه من إثارة العواطف وحفز الهمم في سبيل العودة، ومنها ما يقوم على الحيرة والذهول ورفض الواقع الجديد الذي حدث، فيمزج الشاعر تلك المعاني بإحساسه بالهزيمة، حيث يستطيع تجسيد حنينه أكثر مما تجسّد أمله بالعودة.

وقد يعمد الشاعر إلى تلخيص المأساة في نهاية القصيدة، حيث يأتي البيت الأخير تجسيداً للغرض الذي من أجله أنشأ قصيدته كما جاء في نهاية قصيدة أبي البقاء الرندي، حيث يصور حالة الضعف الذي وصل إليها مواطنوه:

لمِثْلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ إنْ كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانٌ⁽¹⁾

(البيط)

وقد أحسّ أهل غرناطة بأنّ الدفاع عن مدينتهم يقع على عاتق المسلمين جميعاً؛ لأنّ الهجمة كانت موجهة ضد الإسلام والمسلمين، فليس هناك أحدٌ يُعفى من القيام بواجباته، ولهذا فقد استخدم الشعراء الجانب الديني، فهم يلجؤون إلى وضع المستنجد به أمام واجباته الدينية التي تحتم عليه أن يُلبّي النداء.⁽²⁾

وكان واضحاً لأهل غرناطة أنّ انفرادهم بالجهاد غير مجدٍ، لأنّ الأندلس بقواعدها الكبرى قبل سقوطها كانت تنوء بذلك، وكان المسلمون في هجرةٍ مستمرةٍ عن الأندلس من دار الحرب، ومن غرناطة، إلى المغرب والمشرق، في حين كانت الممالك النصرانية تضيف عدداً إلى عدد، ومدداً إلى مدد.⁽³⁾

ونستطيع أن نقول: إنّ هذه الأشعار عبّرت عن صراع البقاء، حيث أدّى ذلك إلى صدور عددٍ كبيرٍ من الرسائل والقصائد التي تصوّر هذا الصراع مثل رسائل الاستجداء ورتاء المدن، وقد تلوّنت معظم الموضوعات الأدبية باللون العسكري والسياسي، حتى لنجد معظم النقوشات

(1) عيّد، يوسف: الشعر الأندلسي وصدى النكبات. ط1. بيروت: دار الفكر. 2002. ص 43 – 49.

(2) ياغي، هاشم: تاريخ الأدب العربي. 314.

(3) ابن الأحمر، إسماعيل: نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان. بيروت: دار الثقافة. 1967. ص: 35.

الشعرية والنثرية على جدران قصر الحمراء وأبوابه مستمدّة كلّها من أجواء الصراع مع
الأسبان؛ لذلك لا نستغرب أن نجد عناوين مؤلفات فيها مصطلحات عسكرية مثل الكتيبة الكامنة
للسان الدين بن الخطيب.

المبحث الخامس: تأثر أهل غرناطة بالمشرق العربي:

إنّ قضية التآثر والتأثير أمر طبيعي بين الشعوب المختلفة، وهو لا يتوقف عند حدود معينة، فقد يكون سياسياً، أو اجتماعياً، أو ثقافياً ولا بدّ لنا عند الحديث عن هذا الأمر أن نبحث عن أصوله ودوافعه، والظروف التي ساعدت على وجوده.

وقد يحدث بين شعوب مختلفة حضارياً وفكرياً، وهذا النوع يبقى في حدود ضيقة قد تكون في بعض الجوانب الثقافية على نحو ما حدث من تأثير للموشحات والأزجال العربية في شعر التروبادور.⁽¹⁾

أمّا النوع الآخر، فيكون بين شعوب متصلة ثقافياً وفكرياً، كما هو الحال بين المشرق العربي والأندلس، وهذا يكون تأثيره في معظم مناحي الحياة.

وكان الأندلسيون ينظرون إلى المشرق على أنه الأساس والمنبع، فالمشاركة كانوا مهد الثقافة الإسلامية، وبلادهم أصل للغة العربية، فكلّ شيء يظهر في المشرق أولاً، ويأخذ منه المشاركة ما يشاؤون، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس. وكان الأندلسيون يحسّون بنوع من التخلف عن المشاركة ويحاولون دائماً أن يعوّضوا ذلك بتأكيد تفوقهم على الرغم من بعدهم عنهم كما نراهم يتعصّبون للأدب التقليدي تعصباً صورياً، ويتسابقون على مذاهبه واتجاهاته ويحاولون أن يقلّدوها.⁽²⁾

"ولم يظهر التجديد عند الأندلسيين إلا في عصر المعتمد بن عبّاد. فقد كانوا مقلّدين لشعراء المشاركة، فتأثروا بالبحثري، وبأبي تمام، وأبي نواس ومسلم بن الوليد، وغيرهم من الشعراء."⁽³⁾

وقد عرفت الشخصية الأندلسية التلاؤم مع المحيط الذي تعيش فيه، وإن كُنّا نراها بعيدة في نمط عيشها عن نمط عيش البدوي، فما ذلك إلا لاختلاف الحياتين، ولكنّ وسائل التعبير بقيت هي هي. وبقي الأندلسي ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشاركة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية.

⁽¹⁾ أنظر: هلال، محمود: الأدب المقارن. ط9. بيروت: دار العودة. 1953. ص 270.

⁽²⁾ هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. ص 53.

⁽³⁾ أنظر: جبور، جبرائيل: الملوك الشعراء. ط1. بيروت: دار الأفاق الجديدة. 1981. ص: 301.

وكان التلقيّ عند الأندلسيين بطيئاً، لكثرة ما كان عندهم من فتن وخصومات، والحق أنّ الحركة الأدبية صيغت صياغة على شكل الحركة الأدبية في المشرق والمُثل التي جاءت في شعر الأندلسيين هي نفسها التي ظهرت عند المشاركة⁽¹⁾.

إنّ الصلات الثقافية بين الأندلس والشرق، جعلت الأندلس تحذو حذوها في النهضة الفكرية في بغداد والشام، على الرغم من التنافس الشديد، والذي اشتدّ وقعه بين العباسيين في المشرق العربي والأمويين في الأندلس، فإن أواصر الثقافة بين الجناحين المشرقي والمغربي للخلافة الإسلامية لم تنفصم عراها. ولم ينقطع الشوق والحنين إلى المشرق العربي مركز القبلة العربية الأم وفيه تاريخها، وميل البيت الأموي في الأندلس إلى بعث ما في البيت الأموي في دمشق⁽²⁾.

وقد أفردَ المقرّي في كتابه (نفتح الطيب) باباً في التعريف ببعض مَنْ رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، وهم كثيرون فيقول "اعلم أن حَصَرَ أهل الارتحال، لا يمكن بوجهٍ ولا بحال، ولا يعلم عن الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المِحَال، ولو أطلنا عِنَانَ الأقاليم فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الأعلام، لطلال الكتاب وكثر الكلام"⁽³⁾.

وقد ذكر المقرّي ثلاثمئة وثمانية من أهل الأدب والعلم، ومن هؤلاء من عاش في عصر بني الأحمر ونذكر منهم: محمد بن علي البيّاسي الغرناطي، وأبا عبد الله محمد بن علي بن يحيى الشامي، وأبا عبد الله محمد بن قاسم القرشي الفهري وعُرف بابن رمان الغرناطي، وأبا عبد الله وابن حكيم الرندي، وأبا حيّان محمد بن يوسف النَّفزي الأثري الغرناطي وغيرهم.

وفي مقابل هذا فقد أفرد باباً آخر، يذكر فيه بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، ويقول المقرّي في هذا: "وأعلم أنّ الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تُحصَرُ

(1) أنظر: ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ص 416 - 417.

(2) أنظر: الفيومي، محمد: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس. ط1. بيروت: دار الحيل. 1997. ص 100 - 101.

(3) المقرّي، احمد بن محمد: نفتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج2. ص 183.

الأعيان منهم، فضلاً عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطناً، وصيرها سكناً، إلى أن وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته".⁽¹⁾

وقد ذكر في هذا الباب ستة وثمانين من رجال العلم والأدب، ولو عقدنا موازنةً بين أعداد الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق، لوجدناها أكثر بكثير من الأعداد التي دخلت من المشرق إلى الأندلس، وأظنّ أنّ السبب في هذا راجع إلى أمور عدّة منها: أنّ أهل الأندلس كانوا ينظرون إلى المشرق على أنه المثل الأعلى في العلم والأدب، ولكن هذا لم يكن موجوداً عند المشاركة والأمر الآخر أنّ الذين دخلوا إلى الأندلس من المشرق جاؤوها بهدف التجارة والمنفعة، فهم يعودون بعد أن ينتهوا من تجارتهم.

وذكر الدكتور عبد العزيز عتيق: "إن بعضهم كان يهاجر بسبب الفاقة والاضطهاد".⁽²⁾

وكان الأساس الأول للثقافة والأدب في المغرب والأندلس هو القرآن وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلي كما كان في المشرق.

ثم إنّ العنصر البشري الذي كوّن الأدب في المشرق، كان هو نفسه الذي كوّنه في المغرب والأندلس، ونحن نعلم أنّ الجيوش العربية التي فتحت المغرب والأندلس قد استقرت فيها. وما لبثت القبائل العربية أن توافدت على المغرب والأندلس، وكان في طليعة الوافدين من قبائل عدنان وربيعة وغطفان، وكانت الأغلبية من العرب العدنانيين.⁽³⁾

فالهجرة من المشرق إلى الأندلس صاحبها هجرة للشعر، فراحوا يقتفون آثارهم وينسجون على منوالهم، وأطلقوا على بعض مدنها أسماء مدن كانوا يسكنونها في الشام، فسمّوا غرناطة دمشق، وإشبيلية حمص، وشريش فلسطين، وجيان قنسرين.

⁽¹⁾ المقرّي، أحمد بن محمد: المصدر نفسه. ج3. ص 288.

⁽²⁾ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 152.

⁽³⁾ كرو، محمد: شخصيات أدبية من المشرق والمغرب. ط2. بيروت: دار مكتبة الحياة. 1966. ص 146.

ولم يلبث هذا التقليد أن صار منافسة، فكاثروهم في القصور والحدائق، والمدارس والمكتبات، والجوامع والمدائن، وفي تقريب الشعراء والعلماء. فلم يجدوا بدءاً من الحفاظ على القديم، وإجلال مكانته ولا سيّما الطبقة الأرستقراطية من الملوك والأمراء والأشراف والفقهاء، فعزّ على شعرائهم أن يتحرّروا كل التحرّر بعد أن ظهر لهم الجديد في حضارتهم.⁽¹⁾

وكان هناك تبادل للمؤلفات والكتب بين المشاركة والمغاربة وغرناطة، فابن الخطيب في إحدى رسائله إلى صديقه ابن خلدون، يحدثنا كيف أن صوفياً مشرقياً يدعى أبو العباس أحمد بن أبي حجلة التلمساني، أهدى محمداً الخامس كتاباً عن الحب بعنوان "ديوان الصباح في مشاريع العشاق وأخبارهم وأشعارهم" كما بعث ابن الخطيب نسخة من كتابه الخاص بالحب الإلهي "روضة التعريف بالحب الشريف" لتوقف على خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، كما أرسل نسخة من الإحاطة كي تحبس بنفس خانقاه حتى يتسنى للطلبة الاستفادة منها.

كذلك أرسل الشاعر الغرناطي أبو عبد الله بن زمرك بقصائد من وصفه إلى مصر يمتدح فيها السلطان برقوق. وبعث أيضاً إلى صديقه ابن خلدون أثناء تواجده في مصر، يطلب إليه إرسال المؤلفات المشرقية.⁽²⁾

ومن الذين تأثروا بالمشاركة، ابن زمرك الغرناطي وبعض من آخر كبار شعراء الأندلس، فقد درس كتب المشاركة ودواوين شعرائهم، وتأثر بأبي تمام والبحثري وابن الرومي والمنتبي وأبي العلاء المعري.

ومن المعاني التقليدية عند ابن زمرك قوله:

ومَنوع الحركاتِ مَنْ ركبَ الهوا فيمشي على خطِّ به مُنَوِّهم⁽³⁾

(الكامل)

⁽¹⁾ أنظر: البستاني، بطرس: أدباء العرب. ج3، وهو عصر الأندلسي. بيروت: دار مارون عبود. ص 37.

⁽²⁾ أنظر: ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 138. ينظر الطوخي، أحمد: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 1997. ص 329.

⁽³⁾ ابن زمرك: محمد بن يوسف الصريحي. ت: أحمد سليم الحمصي. ط1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر. 1988. ص 111.

ويذكرنا هذا ببيتِ قاله زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ هَابَ أسبابَ المنايا يَنْلَنُهُ
وإن يرقَ أسبابَ السَّماءِ بسُلْمٍ⁽¹⁾

(الطويل)

ويقول ابن زمرك أيضاً:

وكم ليلةٍ قد جئتَ فيها بليلةٍ
من النَّعَمِ فيها للأسنَّةِ وأنجمٍ⁽²⁾

(الطويل)

وقد قصر فيه كثيراً عما قاله بشار بن برد:

كأنَّ مَنَارَ النَّعَمِ فوقَ رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهُ⁽³⁾

(الطويل)

ونلاحظ سمةَ التقليد عند ابن الخطيب في سينيته التي وجهها إلى أبي حمو يمدحه فيها:

أَطلَعَنَ في سُدفِ الفروعِ شمساً
ضحكَ الظَّلامِ لها وكان عبوساً⁽⁴⁾

(الكامل)

وعند رؤيتنا لقصيدة ابن الخطيب نرى أنه حذا حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها:

أَقشيبَ رَبِّعِهِمْ أراكَ دريساً
تَقْرِي ضيُوفَكَ لَوْعَةً ورَسيساً⁽⁵⁾

(الكامل)

(1) ابن أبي سلمى، زهير: الديوان. شرح علي حسن فاعور. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993. ص 146.

(2) ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي: الديوان. ص 107.

(3) ابن برد، بشار: الديوان. شرح مهدي محمد ناصر الدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993. ص 146.

ينظر: الحمصي، أحمد: ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه. ص 216.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين. ج2. ص 722.

(5) أبو تمام، حبيب بن حاسم بن أوس الطائي: الديوان. ن: إيليا حاوي. ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني. ص 319.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج1. ص 257.

ولم يكن للبدَاوة أثر في بيئة الأندلس، لذلك لم نجد نوعاً من الشعر الجاف الخشن عندهم، والذي نلمحه من أثر الجزالة في الألفاظ، والبدَاوة في المعاني والموضوعات أحياناً، إنما هو من أثر محاكاتهم للمشاركة.⁽¹⁾

"ولعلّ نقشَ الشعر على جدران قصر الحمراء وأبوابه يمثّل شكلاً من أشكال التقليد للمعلّقات، لذلك فإننا نجد قصائد مطولات كاملة لإبن زمرك ولسان الدين بن الخطيب وابن الجيّاب وغيرهم، قد نُقِشت وخذت على جدران قصر الحمراء وأبوابه".⁽²⁾

ونحن نرى أنّ بلانثيا قد تحاملت في أحكامه على النتاج الشعري للأندلسيين في قضية تأثرهم بالمشرق، وعدّوها نوعاً من القصور الفكري وفراغ القريحة. وذهب هؤلاء إلى القول: إنّ الشعر عندهم فقير من الناحية التفكيرية ومن دلائل ذلك، أنّ الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا التفكير، وعاشوا أعمارهم كلّها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجادة، ومن ثمّ لم يستطيعوا أن يُدخلوا على الشعر من التعبير إلا أشياء تمسّ المعاني.⁽³⁾

وهذا الحكم فيه تعصب كبير وظلم لثمانية قرون من الأدب، ودليل ذلك أنهم أبدعوا في وصف القضايا المصيرية التي عبّروا عنها من خلال شعر الهزيمة والفتوحات، والتي توجّجت برثاء المدن والممالك، ولهذا فإننا نجد أنه غنيّ من الناحية الفكرية، فقد حمل هموماً ومآسي شغلت عقول وقلوب الأمة في ذلك الوقت.

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أنّ عدد شعراء الأندلس كان كثيراً، وكان شعرهم طيباً ناضجاً يعبر عن الإسلام في ذلك العهد، ولكنهم على كثرة عددهم لم ينبغ منهم شاعر عبقرى يعادل أبا الطيّب المتنبي أو أبا العلاء المعري.⁽⁴⁾

(1) أنظر: حميد، بدير: قضايا أندلسية. ص 88.

(2) أنظر: ياغي، هاشم: تاريخ الأدب العربي. ص: 340.

(3) بالثيا، أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مونس. ط1. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1955. ص 42.

(4) خفاجي، محمد: الأدب الأندلسي التطور والتجديد. ص 315.

وإخالُ أن في هذا القول تحاملاً أقلّ ممّا ظهر عند (بالنثيا) فقد بيّن أنّ الفراغ الذهني لم يكن موجوداً عندهم، فقد استطاعوا أن يعبروا عن الإسلام في تلك الحقبة من الزمن، ولكنّه قصرَ عبقرية الشعر على شعراء المشاركة، ونحن نرى في الأندلس شعراء مثل لسان الدين بن الخطيب وابن زمرك والمعتمد بن عباد وغيرهم كثيرون.

ومن الآراء التي أنصفت الأندلسيين ما ورد عند الدكتور عبد العزيز عتيق، حيث يقول: "حقاً إنّ الشعر الأندلسي يلتقي مع الشعر المشرقي من حيث صفاته وموضوعاته، ولو لم يلتق معه لكان أمراً مستغرباً، وكان الأدب الأندلسي والشعر بخاصّة، أحد جوانب هذه الحضارة العربية الجديدة، فإذا بدا عليه سيماء الاحتذاء والتقليد لشعر المشاركة، فليس لعجز الشعراء عن الابتكار، وإنّما كانوا قد ابتكروا وجدّوا، وهو شعور الانتماء إلى الأصل، والرغبة في استمرار الارتباط به، وما الإبقاء من جانبهم على تقاليد الشعر العربي المتوارثة، إلا صورة من صور هذا الانتماء".⁽¹⁾

والدارس يرى ظاهرة التقليد في الأدب الأندلسي ترجع فيه إلى الشكل والموضوع دون المضمون، فمن حيث الشكل مُتمثلاً في تقاليد القصيدة العربية القديمة، لم يكن شعراء الأندلس بدعاً في التزامه، وإنّما كان اتجاهاً عاماً لدى الشعراء في العربية على مرّ العصور، فهو جزء من تراثهم، وليس في هذا الالتزام ما يعيبهم، لأنّه نابعٌ من رغبةٍ لا شعوريّةٍ بالارتباط بكلّ ما هو عربيّ.

وإذا كانوا قد نظموا الشعر في فنونه المتعارف عليها من مدح وثناء وغزل، فهذا في الحقيقة ليس تقليداً، لأن فنون القول هي هي في كل زمان ومكان. أمّا مضمون الشعر الأندلسي فقد احتوى على تجارب شعرائه الذاتية التي نبعت من البيئة الطبيعية والاجتماعية، وغلبت عليها الحضارة والتجديد والابتكار.⁽²⁾

⁽¹⁾ الأدب العربي في الأندلس. ص: 164.

⁽²⁾ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 164 - 165.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت قضية التأثر بالشرق أمراً طبيعياً، فالشعوب المختلفة تتأثر فيما بينها وإن لم يكن لها تاريخ مشترك، فكيف بأمتين انبثقتا من أرض واحدة وتاريخ واحد، فالعربي الذي عمّر الأندلس هو نفسه الذي عمّر الشام وبغداد.

المبحث السادس: التأثر بالأمم الأخرى داخل المجتمع الأندلسي:

ضمّ المجتمع الأندلسي في غرناطة عناصر بشرية متعددة أهمّها: العرب والبربر — وهم مسلمون — ، والنصارى واليهود. ودخل العرب الأندلس على شكل دفعات، وسبقهم البربر الذين سكنوا هذه البلاد واستقروا فيها وأقاموا عائلات بعد زواجهم من نساء إسبانيات، أمّا العرب فلم يدخلوها إلا بعد أول طليعة قدمت مع موسى بن نصير.

وأثناء حديثنا عن عناصر الشعب الأندلسي سنحاول إبراز معالم التمازج الثقافي الذي حدث بين هذه الفئات داخل المجتمع الأندلسي والأثر الناتج عن هذا التمازج.

كان أغلب السكان في الأندلس من العرب الذين سكنوها منذ بداية الفتح، وكانوا لا يتجاوزون بضعة آلاف قبل زواجهم من نساء البلاد، ولكن بعد هذا التزاوج تولّد عدد لا يستهان به من السكان العرب، ومن المدن التي سكنوها كانت غرناطة، وأمّا لغتهم فكانت العربية الفصحى.⁽¹⁾

وقد عاش المجتمع مظهراً من الانسجام، حيث تسنّى للعرب بدورهم أن يصبغوا الأندلس بصبغتهم الثقافية، وتراجعت الثقافة اللاتينية أمام المدّ الإسلامي الذي تجاوز حدود تلك البلاد، وانتقل إلى ما وراء جبال البرانس تاركاً بصماته على كل شأن.⁽²⁾

وانتشرت الثقافة العربية بين شبيبة النصارى، وصاروا لا يروقههم إلا الشعر والقصص العربي، ولم يعودوا يقرؤون إلا كتب المسلمين، وهناك عددٌ لا يُحصى ممّن يستخدمون الألفاظ العربية في معاملاتهم. وهذا يوافق ما جاء به المطران الفارو حيث يقول: "ونرى أنّ بعض النصارى نسي لغته، فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً

⁽¹⁾ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الملحمة البديرية في الدولة النصرية. ص: 27. ينظر الإحاطة: ج 1. ص: 36. ينظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 66.

⁽²⁾ عيد، يوسف: أصوات الخزيمة في الشعر الأندلسي. ص 7.

سليماً من الخطأ، أما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجدٌ منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينطقون من الشعر ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً⁽¹⁾.

وقد أثرت العربية في اللغة الإسبانية، وتجلّى هذا في كثير من الألفاظ التي تُعدُّ أوعيةً للأفكار وأدوات الحضارة، وهناك وثائق حيّة تشهد بالعشرة التي التقى في ظلها المسلمون والمسيحيون. فالألفاظ العربية لم تقتصر على العلوم الإسلامية التي ورثها إسبانيا عن العرب، كالفلسفة، واللاهوت، والطب، والرياضة، والفلك، والهندسة، والموسيقا، وما إليها. وإنما كانت عناصر وإمارات تشير إلى نظم إدارية وقضائية وتقاليد فنيّة وعسكريّة. ولم تكن إسبانيا لتغفل عن هذه الحقيقة في أبحاثها، بل أولت هذه العروبة اللغوية من العناية ما هو جدير بها منذ القرن العاشر الميلادي، ويُعتبر المعجم الذي ألفه "قراي بدرو ألكالا" نحو سنة 1505م وقد جمع فيه اللهجة العربية التي كان يتكلم بها أهل غرناطة، ثم كثر تأليف المعاجم والبقايع وغير ذلك كثير. فمن الأنهار Guadalquivir الوادي الكبير، و Belcayde أبو القائد. ومن القرى والمدن Almodovar المدور، و Albacete البسيط. ومن الفواكه Albaricoques البرقوق، و Berenjenas الباذنجان...⁽²⁾

ومن العلماء المسلمين الذين أخذ عنهم النصارى، العالم أبو بكر محمد الرقوتي المرسي، وكان طرفاً في المعرفة بالفنون القديمة، فيلسوفاً يُقرّي الأمم بأسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلّمها، وقد على السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، وأسكنه في أعدل بقعةٍ من حضرته وكان يعلم المسلمين والنصارى واليهود.⁽³⁾

ومن الأمور التي ساعدت على التمازج الثقافي بين العرب والإسبان الزواج من الإشبانيات، فالفصور كانت مليئةً بهنّ، وكثيراً ومنهنّ من كنّ يتظاهرن بالإسلام، ولكنهنّ في

⁽¹⁾ انظر: عناني، محمد: تاريخ الأدب الأندلسي. ص 38.

ينظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ط1. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. 1958. ص: 28.

⁽²⁾ انظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 113.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج3. ص 48.

الحقيقة لم ينسب أصلهم الأسباني على نحو ما حدث في نهاية عصر بني الأحمر مع (ثريا) وقضية تنصير ولدها يحيى.⁽¹⁾

أما بالنسبة لليهود، وهم يتمتعون بأعداد داخل غرناطة، وسُميت غرناطة اليهود، وقد تمتعوا بتسامح كبير من جانب العرب، لمؤازرتهم العرب عند الفتح. وقد كانوا يتقنون بهم، ويعهدون إليهم بحراسة المدن المفتوحة مع العرب.⁽²⁾

وقد ظلت النخبة اليهودية الأندلسية، من أواسط القرن السادس الهجري إلى أواسط القرن السابع الهجري، قادرةً إلى حدٍّ ما على الاحتفاظ بأسلوب حياتها في إسبانيا المسيحية، وراح المسيحيون يتوغلون في المناطق المسلمة، وينتزعون السلطة من أيدي المسلمين، إلا أنهم تركوا اليهود الذين كانوا ينتمون إلى البلاطات المسلمة في مراكزهم، فقد كانوا موضع ثقة أكثر من المسلمين، وكانت معرفتهم باللغة العربية أمراً لا يُستغنى عنه عند التعامل مع الجماهير الناطقة بالعربية، وكذلك التفاوض مع الحكام المسلمين.⁽³⁾

ويرى المستشرق الإسباني بروفنسال: أن لليهود تأثيراً كبيراً على الفلسفة الإسلامية من خلال التوفيق بين الإيمان والعقل.⁽⁴⁾ وهذا الأمر مستبعد، فكيف يتأثر المسلمون بشيء يهودي متصل بالدين؟!، فلم يتأثر المسلمون في الموشحات بالأنشيد الدينية التي تسمى "البزمون" - كما زعموا - ويرجع ذلك إلى معرفتنا أن الأندلسيين قد عُرف عنهم التعصب الشديد، والنعرة الواضحة مما يشوب العقيدة حتى لقد كانوا ينفرون من الفلسفة، بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم، وقد تكون الموشحات قد تأثرت ببعض الأغاني المحليّة الإسبانية.⁽⁵⁾

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص 145.

(2) انظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الأحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 19. ينظر: الفيومي، محمد: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس.

ص 141.

(3) أنظر شابيندين، رموند: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ط 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1998. ص 311.

(4) بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس. ص 68.

(5) أنظر: شلي، سعد: الأصول الفنيّة للشعر الأندلسي، عصر الإمارة. مصر: دار هضبة مصر للطباعة والنشر. 1982. ص 328.

ونتيجةً لمعرفتهم باللغة العربية، فقد ترجم اليهودُ كثيراً من الكتب العربية إلى اللغة العبرية التي كان الغربيون أعرفُ بها، فنُقِلت بعد ذلك إلى اللغة اللاتينية. وليس لليهود حضارة خاصة بهم، فهم حين نبغوا إنما جاء ذلك في ظلّ الإسلام، وبدفعٍ من حيويته، ودليل هذا؛ أنّ اليهود في إسبانيا لم يكن لهم مثل شأنِ أقرانهم في إسبانيا الإسلامية، فتراثهم ثمرةً من ثمرات الثقافة العربية التي تغنّوا بها ونهلوا منها. ولما توارى هذا النبع من الأندلس، نضبت معه العقليات العبرية، ولم تظهر إلا في ظلال حركات أخرى جرت في القرن الخامس عشر، وكان ثمرةً لأوروبا العقلية.⁽¹⁾

أمّا البربر وهم مسلمون، فقد دخلوا من المغرب واستقرّوا في المناطق الجبلية لملاءمتها الظروف الطبيعية للمغرب الذي أتوا منه، وسكنوا شعاب رندة، ومالقة، وسفوح جبل شكير بغرناطة، وانصهروا مع الأهالي عن طريق الزواج، وأتقنوا العربية إلى جانب لغتهم البربرية.⁽²⁾

والفئة الرابعة هي المولّدون، وهم أهل البلاد المفتوحة، وأطلق عليهم اسم المسالمة، ثم عُرِف أولادهم بالمولّدين، وبدأ هؤلاء يقبلون على الإسلام بعد الفتح، إما بدافع حب الإسلام، أو الهرب من الجزية المفروضة عليه، وتلاشت هذه التسمية مع مرور الزمن بفضل الزواج الذي حصل عندما أقبل العرب والبربر على مصاهرة الإسبان.⁽³⁾

ونسى هؤلاء أصلهم الايبيري أو القوطي على الرغم من كونهم يحملون في كثير من الأحوال أسماءً أعجمية. وكان هؤلاء من طبقات إجتماعية شتى قبل إسلامهم، فكان منهم العبيد

⁽¹⁾ أنظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 34.

⁽²⁾ أنظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 72.

ينظر: عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا.

⁽³⁾ أنظر: ابن الخطيب: لسان الدين: اللحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 28. ينظر: المقرئ، أحمد: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 1.

ص: 189 – 194. ينظر: الدوسري، أحمد: الحيلة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر. ص 74.

والزرّاع، وأهل المدن والأشرف والتجّار. وفي ظلّ الإسلام الذي نشر مبادئ العدل والتسامح، فقد برزت منهم طبقةً متوسطة؛ بل منهم من أصبح من الأغنياء عن طريق التجارة والزراعة.⁽¹⁾

والفئة الأخيرة هي المستعربون، وأطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم تعلّموا لغة العرب وشعرهم وآدابهم وتزيّوا بزّيهم، ولقد أتقن هؤلاء اللغة العربية إلى جانب لغتهم الرومنثية، - وهي لغة أهل الأندلس قبل الفتح الإسلامي - وأدّوا أدواراً مهمة في نقل ثقافة العرب الإسلامية وعاداتهم الاجتماعية إلى الممالك المسيحية.⁽²⁾

وقد كفلت لهم الدولة الإسلامية حرّية العقيدة، فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم، ولم تتعرض لهم في ذلك بشيء. وكانت الأديرة والكنائس ممّا يروق للشعراء ارتيادها. وبقيت هذه الفئة قليلة العدد إذا ما قورنت بعدد اليهود الذين سكنوا غرناطة. وكان السّواد الأعظم منها مقيماً في (قرطبة) و(إشبيلية)، وأكثرهم في (طليطلة)، إذ كانت عاصمة القوط القديمة والحاضرة الدينيّة لشبه الجزيرة. وقد درج المستعربون على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن، وإن كان ذلك لم يمنعهم من مخالطة السكّان. وكان لهم رئيس يعرف بالقومس، وقاضٍ يعرف بقاضي النصارى أو العجم، ويفصل فيما يكون بينهم من منازعات، أمّا ما يكون بينهم وبين المسلمين فالفصل فيه للشريعة الإسلامية.⁽³⁾

والاستعراب يمثّل الثقافة العربية في غير المسلمين من الأسبان، وقد بلغ الأمر بهم أن صاروا مولعين بالتراث العربيّ من أدب وشعر. والوثيقة الحيّة التي تصوّر مدى تغلغل العربيّة فيهم، هي تلك المخطوطة المشهورة المحفوظة في المكتبة الأهليّة في مدريد وتشتمل على ترجمة القانون المقدّس إلى العربيّة، وحرّرها في سنة 1049 القس "فسنسيو"، وقد سمّي فيها نفسه "بنجسيس" حيث يقول في ختام الجزء الثامن منها: "أتممتُ وأكملتُ أنا (بنجسيس) القس الخاطيء عبد عبّيد المسيح هذا الجزء الثامن من ذلك النهار، وهو أول أحدٍ من الصيّام الأربعيني الذي

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الأحاطة في أخبار غرناطة. ج:1. ص:74. ينظر: الدوسري، أحمد: المرجع نفسه. ص:72.

(2) أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين المصدر نفسه. ج:1. ص:21. ينظر: الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة. ص:76.

(3) عبد البديع، لطفى: الإسلام في إسبانيا. ص:28.

يُتلى فيه خبر المرأة السَّامريَّة التي استقاها سيدنا المسيح الماءَ في بئر يعقوب". وقد أهدى المترجمُ كتابه إلى أسقف يدعى عبد الملك وشفَّعه يمدحه فيها حيث يقول:

وترجموا الأناجيل الأربعة إلى العربية، فقد عثر المستشرق الإسباني "أواردو سافدرا" في سنة 1880 على قطعةٍ منه في محفوظات كاتدرائية ليون، وقد ترجمه أسقف يُدعى ميغيل ابن عبد العزيز. ومما ترجموه أيضاً مزامير داوود عليه السلام وترجمها نظماً حفص القرطبي.⁽¹⁾

نلاحظ أن التأثير الذي حصل بين عناصر المجتمع الأندلسي ظلَّ قاصراً على بعض الجوانب السطحية. فالامتزاج الذي حصل كان من الناحية الحياتية التي تميل إلى العوامل الاجتماعية مثل الزواج والبيع والشراء والمعاملات الأخرى.

ونرى أن التمازج الثقافي بين العرب والأسبان ظلَّ محصوراً، فالعرب استطاعوا أن يؤثروا في غيرهم من النصارى واليهود دون أن يتأثروا بهم بشكل واضح وملموس، والسبب في ذلك هو الفارق الثقافي بين الطرفين.

فالعرب كانوا أصحاب حضارة زاهرة، ومقابل ذلك، كان الأسبان في الأندلس تشوبهم النزاعات الداخلية والاضطهاد من الكنيسة. وهو السبب الذي جعل اليهود يمدون للعرب الفاتحين يد المساعدة؛ فقد وجدوا في العرب أملاً للخلاص من ظلم المسيحيين.

وتأثر العرب بهذه العناصر، جاء من جانب الأمور السطحية التي ترى بالعين المشاهدة، فتأثر العربي بالعيون الزرقاء والشعر الأشقر عند النساء الإسبانيات، فوصفها في أشعاره إلى جانب الطبيعة.

وذهب المستشرق "برييتوبيس إلى القول: "إنه من الثابت أن مملكة غرناطة قد تأثرت في أعوامها الأولى بمؤثرات قشتالية قوية. وجاء وجودها كإقطاعية أو محمية تابعة لفرناند ملك قشتالة ومما يؤكد ذلك، أن أوائل ملوك بني نصر لم يكن لهم مظاهر مسلمين إلا ما هو

(1) عبد البديع، لطفي: الإسلام في إسبانيا. ص: 28 - 30.

ضروري ليتسامح معهم رعاياهم. ويثبت ذلك وجود وثائق تاريخية متصلة بالملك العالم ألفونسو العاشر وجاء فيها تواريخ هذا نصّها: "دون أبو عبد الله بن نصر ملك غرناطة الخاضع للملك" ويليه اسم "دون محمد بن هود ملك مرسية" وهذا اسم ثالث "دون ابن محفوظ ملك نبلة". وكانت أزياء أهل غرناطة أوائل حكم بني الأحمر، يغلب عليها ترك العمائم، فلا نكاد نرى منهم قاضياً أو فقيهاً يُشارُ إليه بالبنان وعلى رأسه عمامة. وكان لباس جنودهم كلباس النصارى، وكذلك كان سلاحهم وأدوات حربهم".⁽¹⁾

وننظر إلى هذا التأثير من جانبين أولهما: أنه جاء في بدايات حكم بني الأحمر، وظهر هذا من الاتفاق الذي حدث بين فرناندو ملك قشتالة ومملكة غرناطة. ومن بنوده أن يمده بالجند في حربه ضد أعدائه، وأن يدفع له جزية سنوية قدرها مئة وخمسون ألفاً قطعة من الذهب. والذي يهمننا من هذا الاتفاق هو الشق العسكري، ونرى فيه اختلاط جند غرناطة مع جنود فرناندو، لذلك فمن الطبيعي أن يحصل هذا التأثير في الزي العسكري للجندي الغرناطي. وثانيهما: نحن نرى أن هذا التأثير قد اقتصر على الجوانب التي تتعلق بالجانب الشكلي، الذي يخص الحياة اليومية، والتي تبتعد كل البعد عن الجوهر الإسلامي العربي، فلم نر ذلك التأثير الواضح للإسبان في أشعار العرب وآدابهم الأخرى.

أما البربر فلم يتأثروا بغيرهم ويرجع ذلك إلى طبيعتهم، فهم يبحثون عن الوطن الآمن الذي يكفل لهم حياة منعمة، ولذلك نراهم يتزوجون من النساء الإسبانيات ثم يركنون إلى الزراعة، فهم شعب يبحث عن الحياة.

لم يستطع اليهود أن يؤثروا في غيرهم، ويرجع هذا الأمر إلى نمط معاشهم، فهم يحبون أن يعيشوا في معزل عن الأمم، ولذلك فقد سكنوا غرناطة في حيّ البيّازين، وهو من المناطق الشعبية فيها، وكانوا يسكنون في أحياء ضيقة بجانب بعضهم بعضاً، وعندما انتهى حكم المسيحيين في الأندلس، آثروا الخروج إلى المغرب على البقاء تحت ظلم الأسبان.

⁽¹⁾ حرّان، حبيب: الأدب الأندلسي من الاحتلال إلى الانحلال. ج1. دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر - شفا عمرو. ص: 244 - 245. ينظر: العبادي، أحمد: مجلة عالم الفكر. الكويت: وزارة الإعلام. العدد/2. 1979. ص: 374.

المبحث السابع: الطبيعة الجغرافية:

كان للطبيعة الأثر البارز في شعراء الأندلس، حيث استطاعوا أن يرسموا لنا لوحات فنيّة تعبر عن تلك الطبيعة بما فيها من رياض ووديان وجبال، إضافة إلى القصور والبرك والمساجد وغيرها من مظاهرها الجميلة. وقد أضفت على نفوسهم الرقة ورهافة الحس، فجاءت أشعارهم عذبة خالية من التعقيد وقد ساعدت الحياة اللاهية التي عاشها الشعراء على ازدهار هذا النوع من الأشعار، فقد عُقدت مجالس اللهو والعبث ضمن أحضانها، وغصت القصور بهذه المجالس.

وتميّز فن العمارة في ذلك العصر بتركيزه على الزخارف النباتية والكتابية، فقد ابتعد المسلمون عن الرسومات التي تتعلق بالإنسان والحيوان لاعتقادهم بتعارضها مع الدين.

وهذا الاعتقاد كان موجوداً منذ بداية الدعوة الإسلامية، أي منذ القرن الأول للهجرة، فلا سبيل إلى النقش أو النحت، وعبر العربي عن ذاته من خلال القول.

ومن المدن الجميلة في الأندلس غرناطة، وهي تعني عند الأسبان (الرمانة) وهذا يدلّ على أنها كانت مليئة بالخيرات التي نتجت عن التربة الخصبة ووفرة المياه ووصفها صاحب الإحاطة بقوله: ويحفّ بسور المدينة البساتين العريضة المُستخَصّة، والأرواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه، ولذلك قلت فيه:

بلدٌ تحفُّ به الرّياض كأنّه وجةٌ جميلٌ والرّياضُ عذارُهُ
وكأنّما واديه معصمٌ غادٍ ومنّ الجسورِ المحكّماتِ سيّـوارة⁽¹⁾

(الكامل)

"فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنّات جهةً، وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث، الكروم البديعة، طوقاً مرموقاً، يتّصل بما وراءها من الجبال، فتعمّ الرّبى

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. 1. ص: 25.

والوهاد، وتشمل الغور والنجد، إلا ما اختصّ منها بالسّهّل الأفيح، متّصلاً بشرقي باب البيرة، إلى الخندق العميق، وهو المسمّى (بالمشايع)، بسيط جليل، وجوّ عريض، تغمى على العدّ أمراجه ومصانيعه، تلوح مبانيتها ناجمةً بين الثمار والزيتون وسائر ذوات الفواكه، من اللوز والأجاص والكمثرى، مُحدّقة من الكروم المُسيحة والرياحين الملتفة، ببحور طامية تأتي البقعة الماء؛ ففيها كثير من البساتين والرياض".⁽¹⁾

ومن وديانها وادي شنيل الذي ولّعت به الشعراء فوصفوه في أشعارهم، قال أبو الحجاج

يوسف ابن سعيد:

أحنّ إلى غرناطة كلّما هفتُ	نسيمُ الصّبّا تهدي الجوى وتشوق
سقى الله من غرناطة كلّ منهلٍ	بمنهلٍ سُحبٍ ماؤهنّ هريقُ
ديارٌ يدورُ الحسنُ بين خيامها	وأرضٌ لها قلبُ الشّجّيّ مشوق
وما شاقني إلا نضارةٌ منظرٍ	وبهجةٌ وادٍ للعيون ترُوق
وقد سلّ شنيلٌ فيرنداً مُهنّداً	نضى فوق ذُرٍّ ذُرٍّ فيه عقيقُ ⁽²⁾

(الطويل)

وشعر الطبيعة عندهم يمثّل تعلقهم ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، بعد أن كان هواهم متعلّقاً بصورة الجزيرة العربية وهو شعر يصف بيئة الأندلس الطبيعية والصناعية، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله في الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم، يصفونها كما صورها الفنّ مجلّوةً في القصور والمساجد والبرك والأحواض، فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وأشكالها فيزدادون حبّاً بها.

وكانوا يرون في طبيعة بلادهم، أنّها الأجلّ في الأرض، فليس في عيونهم أجمل منها،

يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف غرناطة:

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج.1. ص 27.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه. ج.1. ص 25 - 28.

سُكَّانَهَا مَنْ أَسْكُنُوا جَنَّةً فَهَم يُلَقَّوْنَ بِهَا نَضْرَةً⁽¹⁾

(السريع)

وقال ابن الخطيب: مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ببعض مسالك غرناطة، فأنشد من نظمه:

غرناطة ما مثلها حَضْرَةٌ الماءُ والبهجةُ والخُضْرَةٌ⁽²⁾

(السريع)

وأكثرَ بنو نصر من بناء الحدائق والرياض، ومن أشهرها جنتا العريف والسبيكة. وتقع جنة العريف في شمال شرقي الحمراء في أسفل الربوة، واحتفظوا فيها بمساحات واسعة، تغطيها الأشجار الضخمة عاليةً ظليلةً، وتجري تحت أقدامها المياه، وفيها تمتزج زقزقة العصافير بأريج الزهور. ويصفها ابن زمرك بقوله:

لله جَنَاتُ العريفِ فإِنَّهَا فيها المعارفُ والعوارفُ تُصَفِّقُ
حَسَدَتْ بُرُوجَ الأفقِ حُسْنَ بروجِهِ فالشُّهْبُ مِنْ حَسَدٍ عَلَيْهِ تُحَلِّقُ⁽³⁾

(الكامل)

وكان الخروج إلى المنتزهات والحدائق عند أهل غرناطة مظهرًا من مظاهر الاحتفال بالأعياد، ووسيلة من وسائل التسلية، للتمتع بالطبيعة الخلابة التي تشرف على المدينة بمروجها الخضراء، وأغصان أشجارها الملتفة، ومياه أنهارها المتدفقة.

وكان في غرناطة العديد من المنتزهات، ومن بينها موقع جبل يقال له (عين الدمع) المطل على سفح جبل الفخار الذي يتمتع باعتدال هوائه، وخضرة بساتينه وعذوبة مياهه، حتى غدا هدفًا للنزحة الشائعة أيام الربيع وليالي الصيف. وبه تغنى الشعراء، ولابن الخطيب قصر في هذا الموقع نُقِشَ على سقف قبته هذه الأبيات.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان: ج 1: ص: 435.

⁽²⁾ المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج 1: ص 272.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج 1: ص: 435.

⁽³⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ط: 1: ت: محمد توفيق. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1997. ص: 263. ينظر: الشتاوي، علي: دراسات في الشعر

الأندلسي. ط 1. مكتبة الآداب. 2003. ص 224 - 225.

إذا كان عينُ الدمعِ حقيقةً فإنسانها ما نحنُ فيه ولاغُ
فدام لخيَلِ الأنسِ واللّهوِ ملعباً ولا زالَ مثنوَاهُ المنعمِ مرتعُ
تودُّ الثريّاً أن تكونَ له ثرى وتمدحُهُ الشعري وتحرسهُ المع⁽¹⁾

(الطويل)

وساعدت الطبيعة الجميلة على شيوع الرياضات المختلفة، مثل رياضة مصارعة الثيران، وذكر ابن الخطيب أنها شاعت في غرناطة في عصر بني الأحمر، وكانت في عهده تقام بطريقتين: الأولى يتم فيها الصراع بين الثور والأسد، والثانية تتم بين الثور والإنسان، وكان ابن الخطيب يشاهد هذه الرياضة.⁽²⁾

وهناك رياضة أخرى وهي الصيد، كانت مظهراً من مظاهر الاحتفال بالأعياد، فغرناطة محاطةً بالجبال، وتغطيها غابات كثيفة خاصةً التلّ الواقع على حافة واد حدره، الذي كان مرتعاً للحيوانات البرية، ومنبتاً لأنواع عدّة من الأشجار والزهور، ومنبعاً لجداول المياه المنحدرة من أعالي الجبال. وكان الغرناطيون يصطادون الحيوانات والطيور التي تعيش في تلك الغابات.

ولا خلاف في أنّ للبيئة الطبيعية أثراً في نفوس الشعراء، فهم يتغنون بجمال الطبيعة ورياضها وبساتينها، ويستوحون من مجالها - الطبيعي والصناعي - تصوراتهم وأفكارهم.

وهم يصفون ما يرون، ويصورون ما يحسون، فإذا كانت مظاهر الطبيعة ومعالمها مما ترتاح له النفس، فإنّ الشاعر يمدح هذه المصادر ويثني عليها، وإذا كانت لا تعجبه، أو لا تروق له؛ فإنه سرعان ما ينفّر منها ويبتعد عنها. ثم هو يبدي تذرماً وشكواه منها، فتتهيج نفسه شعراً يذمُّ به الجوانب المقيتة في الطبيعة وميادينها.⁽³⁾

(1) الدوسري، أحمد: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر بني الأحمر. ص 146. لم نجد هذه الأبيات في ديوان ابن الخطيب.

(2) الدوسري، أحمد: المرجع السابق. ص 151. ينظر: العبادي، أحمد: مجلة عالم الفكر. العدد/2. ص: 108 . 314.

(3) عبد الله، نافع: الهجاء في الشعر الأندلسي. ط1. بيرزيت: منشورات كلية الآداب. 1984. ص 27.

ومن أعمال غرناطة (باغة) ، وعمامة الناس يقولون (بيغة)، وهي بلدة طيبة غزيرة المياه، كثيرة الثمار، ومنها وادي آش، ويقال له وادي الآشات، وهي مدينة جلييلة قد أهدقت بها البساتين، وجرت فيها الآثار ولأهلها مزية في الأدب وحب الشعر⁽¹⁾.

واشتهرت (المرية) وهي المدينة الثانية لمملكة غرناطة، بالجمال الذي برز من خلال موقعها على ساحل البحر، وفيها من الحمامات والفنادق نحو الألف.

أما مالقة، فقد جمعت بين منظر البحر والبرّ بالكروم المتصلة التي لا تكاد تُرى فيها فرجةً لموضع غامر، والبروج التي شابته نجوم السماء وقد اختصت بخيراتها من الفاكهة سائر البلاد.⁽²⁾

وامتدّ العمران داخل الأندلس نفسها، فكان أمراً يدعو إلى العجب، فقد كانت المدن على ما بينها من مسافات متصلة الحلقات بالمباني البيضاء المتقاربة، بحيث لا يحسّ المسافر بوحشة الطريق، أو يرى أنه ترك مدينة ليلحق بأخرى، ويصف ابن سعيد هذه الظاهرة فيقول: "متى سافرت من مدينة إلى أخرى لا تكاد تتقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحاري فيها معدومة، ومما اختصت به أنّ قراها في نهاية من الجمال لتصنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو عنها العيون، وقد حققت من الجمال وروعة التشييد ما تسعى إليه حضارة العمارة في القرن العشرين ولذلك فنحن لا نلوم الشعراء إذا ما أكثروا من الإشادة بوطنهم إعجاباً بكماله".⁽³⁾

ولابن زمرك أبياتٌ في وصف دار الملك، وفيها يقول:

وَالله مَبْنَاكَ الْجَمِيْلُ فَإِنَّهُ	يَفُوْقُ عَلَى حَكْمِ السُّعُوْدِ الْمِبَانِيَا
بِهِ الْبَهُوُّ قَدْ حَازَ الْبِهَاءَ وَقَدْ غَدَا	بِهِ الْقَصْرُ أَفَاقَ السَّمَاءِ مِبَاهِيَا
بِهِ الْبَحْرُ دَفَّاعَ الْعِبَابِ تَخَالُهُ	إِذَا مَا انْبَرَى وَفَدَّ النَّسِيمُ مُبَارِيَا

⁽¹⁾ أنظر: المقرئ، أحمد: نفع الطيب. ج: 1. ص: 132.

⁽²⁾ المقرئ، أحمد: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 1. ص: 134. ينظر: أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس. ص 21 – 23.

⁽³⁾ أنظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ص 42.

ولم نر قصراً منه أعلى مظاهراً وأرفع آفاقاً وأفسح نادياً⁽¹⁾

(الطويل)

وقد استطاع الأندلسيون أن يستخدموا الطبيعة من خلال جرّ المياه إلى الحدائق ، وبناء البرك، وكان لهذا أثرٌ واضحٌ في الشعر. وظهر في أكثر أبوابه، وعُرفَ عند أغلب الشعراء، فقد استعانوا بهذا العامل الطبيعي في جميع أبواب الشعر من مدح ورتاء وغزل وفخر ولا سيما الغزل.⁽²⁾

وأثرت الطبيعة في أشعار العرب تأثيراً واضحاً، فالشعر بقي تابعاً لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه، إلى أن حدث في العقول ما دعاها إلى الابتكار في الفنون والعلوم، فتطلّعت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال من صبغة البداوة إلى شكل حضري أشبه بالبداوة في الجمال، فزادوا في وجدانياته، ممّا استدعتُه الحضارة من التوسّع في الخمريات والعواطف من عشق وغيره، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة، وكلّ ما استلزمته حالهم من آثار المدنية والعمران.⁽³⁾

وشعرُ الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقلّ إلا نادراً في بعض الموضوعات والقصائد، وقد امتزج في أكثر الأغراض التي طرفها الشعراء، وكان الغزل أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة، فهم لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة، وبهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة في خلواتهم وتقسح لهم مجال اللهو والشراب.⁽⁴⁾

ومن هذا قول ابن خاتمة الأنصاري:

وروضةٍ قد وطئنا من رياحينها
أرخت علينا ستوراً من خمائلها
فرُشاً وظلّنا من الإظلالِ في لُحفِ
قد طُرُفت بأفانينٍ من الطُرفِ

⁽¹⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 140 - 141.

⁽²⁾ جبور، حبرائيل: من رياض الأدب والتاريخ. ط1. بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1981. ص 256.

⁽³⁾ أبو الخشب، إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ط1. مصر: دار الفكر العربي. 1966. ص 268. 314.

⁽⁴⁾ الركابي، جودت: الطبيعة في الشعر العربي. ط2. دمشق: مطبعة الترقّي. 1970. ص 67.

وللغصونِ اعتناقٌ تحتَ ذيلِ صبا
قد ساجعَ الطيرُ ترجيعَ القيانِ بها
نسيمها كاعتناقِ اللامِ والألفِ
وساجلِ القُضبِ رقصُ الأعطفِ اللطفِ⁽¹⁾

(البيسط)

ثم يبدأ في الغزل فيقول:

أجرُ ذيلِ التصابي فيه مُحْتَسِباً
عُهودَ أنسٍ عساها أن تعودَ فما
أجرِي بردَ عذول فيه مُعْتَسِفِ
عُهودَ أنسٍ عساها أن تعودَ فما
فیشتفي كلفُ بالشوق في كُلفِ
ما أقدرَ الله أن تُتتى أعتتها
فإنَّ مشهدها في القلبِ غيرُ خفي⁽²⁾
لئنَ مَحَّتْها أكْفُ الدهرِ عن بصري

(البيسط)

ومن استخدام ألفاظ الطبيعة في المديح، قول ابن زمرك في مقدمة قصيدة قالها في مدح

السلطان الغني بالله:

هبَّ النسيمُ على الرياضِ مع السحرِ
ورمى القضيبي دراهماً من نوره
فاستيقظتُ في الدوحِ أجفانُ الزهرِ
فاعتاضَ مننَ ظلِّ الغمامِ بها دُررَ
يا حُسنَ ما نظمَ النسيمِ وما نثرِ
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةِ أهلها
مِنَ كلِّ مَنْ أوى النبيَّ وَمَنْ نصرَ⁽³⁾
وُرثتَ هذا الفخرَ يا ملكَ الهدى

(الكامل)

وحقيقةً أن الأندلسي أصبح مولعاً بالطبيعة ومحباً لها، وكانت تسترعيه دائماً فيصفها مبيناً جمالها، ومن ذلك ما حصل مع لسان الدين بن الخطيب عندما وقف في مدينة مكناسة بالمغرب فيقول في وصف جمالها:

بالحسنِ من مكناسةِ الزيتونِ
قد صحَّ عذْرُ الناطقِ المفتونِ

(1) ابن خاتمة: الديوان. ت: محمد رضوان الداية. ط1. دمشق: دار الفكر. 1994. ص 63.

(2) ابن خاتمة: الديوان. ص 63.

(3) ابن زمرك الغرناطي: الديوان. ص 40 - 41.

فضل الهواء وصحة المال الذي
يجري بها وسلامة المخزون
واحمرّ خدّ الورد بين أباطح
وافترّ ثغر الزهر بين غصون⁽¹⁾

(الكامل)

وكانت الطبيعة سلاحاً ذا حدّين، أعطت المسلمين خيراً فنعّموا وعمرّوا وأنتجوا علماً وأدباً وفناً، وخلق تنوع بيئاتها وصعوبة المواصلات فيها كثيراً من المشكلات السياسية، وشجّعت على الانفصالية والثورات الداخلية، كما أتاح هذا التباين الطبيعي لكلّ من الأوروبي والعربي والإفريقي أن يجد مستقراً ويهيئ لنفسه مقاماً، ويقيم دولاً تشكّل طوائف عاشت قلقة لم تنعم بالأمن والاستقرار.⁽²⁾

بعد هذا العرض الذي قمنا به لعدد من العوامل التي كان لها أثرٌ واضحٌ في تطوّر الحركة الشعرية، فإننا نستطيع أن نقسمها إلى قسمين:

أولهما: عوامل اتّصلت بالظروف الخارجية، مثل الهجرات المتلاحقة من المدن المنكوبة إلى غرناطة، والتأثر الذي حصل نتيجةً لإتصاليهم بالمشاركة.

ثانيهما: عوامل اتّصلت بالظروف الداخلية وهي عديدة نذكر منها: الطبيعة - وتأتي في مقدمتها، وتشجيع الملوك ووجود الشعراء منهم، وضياح المدن الأندلسية، والتي شجّعت المسلمين لكي يدافعوا عن كياناتهم وشخصيتهم العربية، والتأثر بالأمم الأخرى داخل المجتمع الغرناطي الذي ضمّ البربر والمولّدين وغيرهم.

وكان هذا العصر على امتداده الذي دام نحو قرنين ونصف من الزمان، زاخراً بالأحداث السياسية التي عصفت بالدولة الإسلامية، ولكنّه اتّسم بالاستقرار السياسي الداخلي على الرغم من النزاعات الداخلية التي كانت تجري بين ملوكهم.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. ت: أحمد مختار العبادي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. ص 373.

(2) أنظر: شليبي، سعد: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف. ص 26.

وقد ساعدت هذه العوامل على نموّ وتطور العديد من الفنون الشعرية، كالرثاء الذي ازدهر بشكل ملحوظ في هذا العصر، وساعدهُ في ذلك، الظروف السياسية التي واكبت عصر بني الأحمر منذ البداية وحتى السقوط. فالوضع السياسي بالنسبة للعرب كان في تراجع مستمر، وبدا هذا واضحاً في توالي سقوط المدن الأندلسية ووقوعها في يد الإسبان.

ومن هذه الفنون أيضاً فنّ المديح، الذي ظهر بتشجيع من ملوكهم، فعدّوا المجالس الأدبية التي وجد فيها الشعراء مُتَنَفِّساً يستطيعون من خلالها تحقيق ما يطمعون فيه من كرم هؤلاء الملوك وأعطياتهم التي يجزلونها لهم.

ولعلّ السّمة الغالبة في أشعارهم المدحية، هي إظهار النسب الذي ينتمي إليه ملوك بني الأحمر والذي يتصل بالصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، وكلّ هذا من أجل إضفاء الصبغة الدينية على حكمهم.

وتعد الطبيعة الجميلة التي سادت بلاد الأندلس من العوامل الفاعلة التي ساعدت على تطور الحركة الشعرية عندهم، فقد اشتهرت غرناطة بخضرتها الجميلة التي ظهرت في وديانها وأنهارها وجبالها، فوجد الشعراء فيها ملاذاً يلجؤون إليه ليعبروا عن حبّهم لها، فذكروها في معظم مواقفهم، فلا نكاد نجد غرضاً شعرياً إلا ويُصدّر بوصفٍ لجمالها. فهي عندهم أشبه بالوقوف على الطلل عند الجاهليين. ونتيجة للاستقرار الذي ساد مملكة غرناطة، وما تبعه من ترف الحياة ومتاعها، فقد ساعد هذا على ازدياد وتنامي مظاهر اللهو والمجون.

وفي غمرة هذه الحياة اللاهية، برزت فئة من الشعراء لم تعجبهم هذه المظاهر، فابتعدوا عن الحياة اللاهية وزخرفها، وآثروا الزهد والتقشّف، وهي طبقة الزهّاد والمتصوّفين، فانتشر شعرهم الذي يدور حول ذمّ الدنيا ومتاعها الزائل، والتي لا تحمل في طياتها - حسب اعتقادهم - إلا المتعة الآنيّة. وجاءت الظروف السياسية التي عبّرت عن الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون، لتكون تربةً خصبةً صالحةً لنموّ هذا اللون من الفنون الشعرية.

والتأثير بالمشرق يبدو واضحاً في أشعارهم، ويرجع سببه إلى عوامل عدّة من أهمها:
أنّ العربيّ الذي سكن الأندلس، هو نفسه الذي سكن دمشق وبغداد، فالتأثير أمر طبيعي، بل
نستطيع أن نقول: إنّ من غير الطبيعي أن لا يظهر التأثير بينهم. فالهجرات والرحلات لم تتوقف
بين الأندلس والمشرق طوال حكم المسلمين لهذه البلاد، والذي دام قرابة الثمانية قرون.

الفصل الثاني

الأغراض الشعرية في عصر بني الأحمر

المبحث الأول: الوصف.

المبحث الثاني: الحماسة.

المبحث الثالث: الفخر.

المبحث الرابع: الرثاء.

المبحث الخامس: الهجاء

المبحث السادس: المدح.

المبحث السابع: الغزل.

المبحث الثامن: الخمریات.

المبحث التاسع: الإخوانیات.

المبحث العاشر: الاستعطاف والشفاعات.

المبحث الحادي عشر: شعر الحنين.

المبحث الثاني عشر: الشعر الديني.

المبحث الثالث عشر: الشعر التعليمي.

المبحث الرابع عشر: الحكمة

المبحث الأول: الوصف

تفنّن الأندلسيون في شتى الأوصاف حتى فاقوا المشاركة في بعضها، كوصف الطبيعة الناعمة، والمدن العامرة، فكلّ شاعر منهم متصل بالطبيعة، وهو مشغوف بعمارة بلاده، وكان لهم يد في وصف الفلوات الخالية، والوحوش الضارية، والخيل والإبل، وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته، ووصفوا الصيد وأدواته والسلاح والسفن،⁽¹⁾ وأظهر الأندلسيون عبقرية نادرة في الشعر الوصفي، ونستطيع أن نقول: إنّ اهتمامهم به كان كبيراً، وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر الأغراض الشعرية، فقد استطاعوا أن يمنحوه بعض الإستقلال.⁽²⁾

أولاً: وصف الطبيعة:

انتقل العربي من بيئة صحراوية جافة في الجزيرة العربية، وكانت طبيعته هناك تملّي عليه وصف الصحراء والأجرام السماوية، والناقة والمرأة، وقد انتقل بعد ذلك إلى بيئة أجمل، وطبيعة أكثر امتلاءً بالخيرات والمناظر، وبدخول الأندلس، اتّسعت آفاق الطبيعة أمامه، ففيها روح وريحان، وجنة ونعيم، وبيئة جديدة توحى بشعر جديد، خضرة وماء ووجه حسن، وتجسّم الجمال في كلّ شيء أمام العربي، فإذا جلس شاهد الجمال، وإذا سار، وإذا دخل الحدائق، وإذا ركب النهر، وإذا أمسى، كل ذلك أثار غريزته إلى قول الشعر.⁽³⁾

واتّصل شعر الطبيعة بأكثر الأغراض الشعرية في الأندلس، فأصبحت قصائد الشعراء تبدأ بوصفها، وكأننا أمام مقدمات طلبية كما كان شائعاً عند الجاهليين، وجاء هذا نتيجة لاهتمامهم بطبيعة بلادهم، فدخلت غزلهم ومدائحهم وغير ذلك من الأغراض الأخرى.

(1) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعث. ص: 65.

(2) الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 120.

(3) حميد، بدير: قضايا أندلسية. ص: 131.

ظَلَّتْ طَبِيعَةُ الْأَنْدَلُسِ الْفَائِتَّةُ تَتَصَدَّى بِاسْتِمْرَارٍ لِعَيُونِ الشُّعْرَاءِ، وَتَبْعَثُ فِيهِمْ وَصَالَ الْحَبِيبِ وَبَهْجَةَ النَّفْسِ، حَتَّى وَصَلَتْ قَصِيدَتَهَا إِلَى مَسْتَوَى عَالٍ مِنَ النَّضُوجِ، وَسَبَبَ ذَلِكَ مِيلَ الشُّعْرَاءِ إِلَى إِعْطَاءِ الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ حَقَّهُ الْكَامِلَ، وَعَنَائِتَهُمُ بِالْتَفَاصِيلِ وَالْجَزْئِيَّاتِ.⁽¹⁾

وَتَتَاوَلُ شُعْرَاءُ الطَّبِيعَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، الطَّبِيعَةَ الصَّامِتَةَ وَالطَّبِيعَةَ الْحَيَّةَ، وَيَقْصِدُ بِالطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ، مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَصْنَافُ الْحَيْوَانِ مَا عَدَا الْإِنْسَانَ، وَالطَّبِيعَةَ الصَّامِتَةَ تَتَجَسَّدُ مَظَاهِرَهَا فِي السُّهُولِ وَالْبَحَارِ وَالسَّمَاءِ وَالْبُؤَادِي وَالْحَقُولِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَقَسَمُوا الطَّبِيعَةَ الصَّامِتَةَ إِلَى طَّبِيعَةٍ طَّبِيعِيَّةٍ وَأُخْرَى صِنَاعِيَّةٍ، أَمَّا الطَّبِيعَةُ الصَّنَاعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي عَمِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى تَأْلِيفِهَا وَتَنْسِيقِهَا كَالْقُصُورِ وَالْبِرْكَ وَالزُّخَارِفِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ. وَالْأُولَى هِيَ أَكْثَرُ مَلَاءِمَةً لِمَفْهُومِ كَلِمَةِ الطَّبِيعَةِ، وَأَكْثَرُ إِجْهَاءً لِلْحَسِّ الطَّبِيعِيِّ، فَهِيَ الَّتِي تَحْدُثُ فِي النَّفْسِ ذَلِكَ الْحَسِّ الشُّعُورِيِّ الَّذِي يَنْبِضُ بِجَمَالِهَا.⁽²⁾

1- وصف الطبيعة الصامتة:

أ- المدن والعمران:

وَجَدَ الشُّعْرَاءُ فِي جَمَالِ مَدِينَةِ غِرْنَاطَةَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْمَدَنِ، الْكَثِيرَ مِنْ مَظَاهِرِ الْجَمَالِ الَّتِي تَدْفَعُهُمْ لِكِي يَفْتَتُوا بِهَا. وَتَمْتَدُّ غِرْنَاطَةُ وَمَا حَوْلَهَا إِلَى مَسَافَةِ تَقْرِبِ الْأَرْبَعِينَ مِيلًا، وَتُغَطِّيهَا الْخَضْرَاءُ وَالْأَشْجَارُ، وَتَتَخَلَّلُهَا السُّوَاكِي وَالْجِدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ، وَمَا يَسْتَتَبِعُ ذَلِكَ مِنْ طَيُورٍ مَغْرَدَةٍ وَظِلَالٍ وَأَقْيَاءٍ وَنَسَمَاتٍ وَأَنْدَاءٍ، مِمَّا يَبْعَثُ الشُّعْرَ رَقِيقًا أَخَذًا يَدْفَعُ بِهِ إِلَى رَحَابِ الْأَسْمَاعِ دَفْعًا.⁽³⁾

وَتَسَابِقُ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِ غِرْنَاطَةَ، فَهَمُّ لَمْ يَرَوْا بِلَادًا أَجْمَلَ مِنْهَا، وَوَصَلَتْ عِنْدَهُمْ دَرَجَةُ الْكَمَالِ فِي الْجَمَالِ، وَنَرَاهُمْ يَقْضُونَ جِلَّ أَوْقَاتِهِمْ فِي وَصْفِ هَذَا الْجَمَالِ، يَقُولُ ابْنُ الْخَطِيبِ:

أُحْيِيكَ يَا مَعْنَى الْكَمَالِ بِوَأَجِبِ وَأَقْطَعُ فِي أَوْصَافِكَ الْغُرَّ أَوْقَاتِي

(1) المقرئ، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 81.

(2) الركابي، جودت: الطبيعة في الشعر الأندلسي. ص: 12.

(3) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 150.

تقسّم منك الترابَ قومي وجيرتي ففي الظَّهرِ أحيائي وفي البطنِ أمواتي⁽¹⁾

(لطويل)

وقد أسرت هذه المدينة قلوب الشعراء وعقولهم، فهم لا يستطيعون أن يفارقوا ديارها ومناظرها الجميلة، فهي تبهج العيون، وتبعث على الطمأنينة في كل نفس تراها، يقول أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان:

سقى الله من غرناطة كلَّ منهلٍ بمنهلٍ سُحْبِ ماؤُهُنَّ هريق
ديارٍ يدورُ الحسنُ بين خيامها وأرضُ لها قلب الشجيِّ مشوق
وما شاقني إلا نضارةُ منظرٍ وبهجةُ وادٍ للعيون تروق⁽²⁾

(الطويل)

وعمرت هذه المدن بالقصور الجميلة، التي أقدم أمراء بني الأحمر وملوكهم على بنائها في حدائقهم ومنتزهاتهم، وكان بناؤها ملاذا لهم للهروب من واقعهم المليء بالصراعات السياسية الداخلية والخارجية، فأوجدوا فيها كل وسائل الراحة، وتفنن المهندسون في زخارفها وساحاتها، فبنوا البرك والنوافير وسطها، فكانت السبيكة الذائبة. ووصف ابن زمرك دار الملك للأمير أبي عبد الله، بأنها أجمل ما ابتدعتها يد إنسان، حتى أن النجوم قد تمنّت أن تنزل إليها لشدة جمالها، فهي تفضله على السماء، ووصف فيها البهو والمنتزهات الجميلة. يقول:

ولله مبناك الجميل فإنّه يفوقُ على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصارِ من متنزّه تجد به نفسُ الحليم الأمانيا
وتهوى النجومُ الزُّهرُ لو ثبتتْ به ولم تك في أفق السماء جواريا⁽³⁾

(الطويل)

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. 8. ص 194.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. 1. ص: 27.

⁽³⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 140.

ينظر: المقرئ، أحمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. 9. ص: 47.

وقصر سننيل الذي كان أهلاً بالسكان، وعامراً بالحدائق الغناء، والأشجار الخضراء

الجميلة لم يرغب عن قلب ابن زمرك. يقول:

يا قصر سننيل وربّعك أهلٌ والروضُ منك على الجمال قد اقتصر
لله بحركٍ والصبا قد سردت منه ذُرُوعاً تحت أعلام الشجر⁽¹⁾

(الكامل)

ب- الروضيات:

كان لانتشار الرياض أثره الواضح في شعرهم، وحظيت الروضيات بنصيب وافر من عنايتهم، فرسموا لها لوحات كثيرة، وصوروا فيها ما تشتمل عليه الروضة من أشجار وأزهار وجداول وطيور. والشعر الأندلسي يمتاز في جملة من الشعر العربي بما فيه من المعاني المبتكرة الجميلة، وكذلك فإنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربي: فبينما ترى الشاعر يصبو إلى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية، تجده يذكر الرياض والبساتين والأنهار والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل.⁽²⁾

"وإذا تتبنا شعر الروض عند ابن زمرك، وجدنا أنه لم يترك شيئاً إلا تحدث عنه حديث المولع بالجمال، ومن ثم فليس من باب المبالغة أن نقول: إن ابن زمرك قد أشبه الصنوبري رائد فن الروضيات في تراثنا الشعري، في كلفه بالرياض، فإذا به يهيم بها حبا فيعطيها أرق مشاعره، ويمنحها خالص وده، ويصفها ممتزجة بنفسه، وتجيء روضياته صورة لأحاساساته، ففيها وصف لسحر الرياض وجمالها، وفيها تصوير مشاعره حيالها، وهو يغدق عليها أنبل عواطفه".⁽³⁾

فها هو ذا يقف بالسبيكة - وهي حديقة لأمرأ بني نصر - فتثير تلك الوقفة هواجسه

وذكرياته. يقول:

⁽¹⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ص:44.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج 2. ص: 123.

⁽²⁾ ضيف، أحمد: بلاغة العرب في الأندلس. ط2. تونس. دار المعارف للطباعة والنشر. 1998. ص: 49.

⁽³⁾ الشناوي، علي: دراسات في الشعر الأندلسي. ص: 201.

قف بالسَّبِيكة وانظر ما بسَاحَتِهَا عَقيلة والكثيبُ الفَرْدُ جَالِيهَا
تَقَلَّدتْ بوشَاحِ النَّهْرِ وابتَسَمَتْ أَزهارُهَا وهي حَلْيٌ في تَرَاقِيهَا⁽¹⁾

(البيسط)

ومن حدائق بني نصر بغرناطة جنة العريف، وفيها القصور الجميلة لملوكهم، وينكر ابن
زمرك أن يكون هناك ما هو أجمل منها حتى أصبحت غاية في الحسن والجمال، ممّا دفع
الشهب لكي تحسدها عليه، وهي ذات حسن لا يضاهي، وجمال لا يقارن، مما جعل عيون هذه
الشهب تديم النظر إليها. يقول:

لله جنات العريف فإنّها فيها المعارفُ والعارفُ تُصَفِّقُ
حَسَدتْ بروجُ الأفقِ حُسْنَ بروجِهِ فالشُّهْبُ من حَسَدٍ عليه تُحَلِّقُ
أغرى بها الأحداقَ حَسَنُ حدائقِ تركتْ عيونَ الشُّهْبِ فيها تحدِّقُ⁽²⁾

(الكامل)

ويمضي ابن خاتمة الأنصاري واصفا الرياض أثناء الربيع، وهي مكسوة بأجمل حلة،
يهيم المتنبّل في ملكوت الله وبديع صنعه، وأصوات الطيور تنتشر بين الأشجار، وينكرر عنده
ذكر أصوات الطيور، وهي تطلق أجمل ألحانها وفي هذا يقول:

أهلاً بأيّامِ الربيعِ وطيبها أنس الخليع ونزهة المتنبّل
تذكي بلابلهُ البلبالِ لوعاةٍ ولرُبّ بلبالٍ يهيج لبلبالٍ
فالطيرُ تشدو والغديرُ مصفّقٌ والقضبُ ترقصُ والأزهارُ تتجلي⁽³⁾

(الكامل)

ولم ينس شعراء الأندلس خلال وصفهم لتلك الرياض أن يتوقّفوا عند الأنهار التي تمدّ الرياض
بالحياة والنماء، فتزيدها جمالاً فوق جمالها، فهذا الحجاج يوسف بن سعيد يصف نهر شنيل

⁽¹⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 122.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج 2. ص: 21.

⁽²⁾ الشناوي، علي: دراسات في الشعر الأندلسي. ص: 225.

⁽³⁾ ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 42.

القريب من غرناطة، وهو ينسلّ بين الوديان كالسيف القاطع، ولكنه لا ينشر دماً، وإنما وروداً
غاية في البهجة والجمال حيث يقول:

وقد سلّ شَنْيَلٌ فِرْنَدًا مَهْنَدًا نَضَى فَوْقَ دُرٍّ ذُرٌّ فِيهِ عَقِيقٌ
إِذَا نَمَّ مِنْهُ طَيْبٌ نَشْرٌ أَرَاكُهُ أَرَاكَ فَتَيْتَ الْمَسْكَ وَهُوَ فَتَيْقٌ
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح للرياض أنيق⁽¹⁾

(الطويل)

ت - الزهريات:

وصف الأندلسيون الأزهار، وأكثروا من وصفهم لها،⁽²⁾ فوصفوا الورد والنرجس
وشقائق النعمان والنيلوفر والياسمين والقرنفل واللوز وغيرها مما وقعت عليه عيونهم، ونلاحظ
أنّ الشعراء أكثروا من وصف الأزهار التي كانت من النوع الذي يعيش في البيوت، وهذا يدل
على الحياة المنعمة التي عاشها هؤلاء، وقد ترعرعوا بين أروقة القصور التي غصت بهذه
الأزهار.

وأكثر هذه الأشعار نراها عند ابن زمرك، فكان من الذين برعوا في وصفها، وأبرز ما
نجدته في هذا الوصف رقة التعبير ورهافة الحس.⁽³⁾

وقرن ابن زمرك بين جمال محبوبته وجمال القرنفل، حتى أنه يفوق المحبوب جمالا،
فهو لم ير في حياته أجمل منه، وقد أصبح يزرع تفاؤلاً بالحياة، لأنه يقرب بين الأحبة، يقول:

يَقْرُبُ بَعِينِي أَنْ أَرَى الزَّهْرَ يَانِعًا وَقَدْ نَازَعَ الْمَحْبُوبَ فِي الْحُسْنِ وَصَفَهُ
وما أبصرتُ عيني كزهرِ قَرْنَفُلٍ حَكَى خَدًّا مَنْ يَسْبِي الْفُؤَادَ وَعَرَفَهُ

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج1. ص: 27.

⁽²⁾ الدقاق، عمر: ملامح الشعر الأندلسي. بيروت: منشورات دار الشرق. ص: 256 - 257.

⁽³⁾ الحمصي، أحمد: ابن زمرك، الغرناطي، سيرته وأدبه. ص: 155.

وفي جبلِ الفتحِ اجتنبوه تفاعلاً

بفتحِ لبابِ الوصلِ يَمْنَحَ عَطْفَهُ⁽¹⁾

(الطويل)

والنَّرجس من الأزهار البرية التي نمت في الحدائق والبيوت والقصور، وقد كثرت في

منتزه السبيكة وفيها يقول ابن زمرك:

وأعين النَّرجسِ المطلولِ يانعةً ترققُ الطلَّ دمعاً في مآقيها

وأفترَّ ثغرُ أفاحٍ من أزهراها مقبلاً خد وردٍ من نواحيها⁽²⁾

(البسيط)

ونرى التشخيص واضحاً في الأبيات، وكأننا نقف أمام فتاة جميلة لا نستطيع أن نبعد

نظراتنا عنها، وظهرت براعة الشاعر كونه استطاع أن يرتقي بخيالنا وكأننا نعيش الموقف أمام أعيننا.

وأكثر الشعراء من وصف الورد في قصائدهم، وجعلوه سلطان الزهور، وشبهوا الخدود

الجميلة به، يقول ابن زمرك:

الوردُ سلطانُ كلِّ زهرٍ لو أنه دائمُ الورود

بعد خدودِ الملاحِ شيء ما أشبه الوردَ بالخدود⁽³⁾

(السريع)

استخدم الشاعر كلمة (سلطان) ليصف الورد، فهو يختلف عن باقي الأزهار كونه أكبر

حجماً، فكانت التاج الذي يوضع على رأس الملوك، والأمر الآخر، أن لونه يتصف بالحمرة، ولهذا يشبه الخدود. وهذا يدل على براعة الشاعر في ربط الصور داخل اللوحة الفنية.

ووصفوا الريحان ولونه الفستقي الذي يريح القلب والعيون، يقول صالح بن يزيد النفزي:

وأخضر فستقي اللونِ غضُّ يروقُ بحسنِ منظرِهِ العيونا

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 443.

(2) المقرئ، أحمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 27.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 282.

أغار على الترتنج وقد حكاؤه وزاد على اسمه ألفاً ونونا⁽¹⁾

(البسيط)

ث - الثلجيات:

إن من أجمل ما تقع عليه العين رواء وبهجة ومنتعة، منظر الثلج وقد كسا الكون غلالة بيضاء نظيفة ناصعة طاهرة، وإذا كان للربيع أثره في النفس، فإن من رأى الثلج ينزل من السماء كالقطن المنذوف، ثم رآه على سفوح الجبال، فإنه يحسُّ بالمتعة التي قد لا توفرها ظلال دوحة أو نسومات روضة، وشعر الثلجيات جاء متأخراً في الأندلس، فلم يعرف قبل القرن الرابع.⁽²⁾

وغرناطة من المدن التي كانت تكسوها الثلوج في الشتاء، ولم يستطع ابن زمرك أن يفوت على نفسه هذه المناظر. يقول:

بسطة البياض كرامةً لقدمه واقترت ثغراً عن كرامةٍ مُعتتي
فالأرضُ جوهرةٌ تلوخُ لمحتلِّ والدَّوحُ مزهرةٌ تفوخُ لمُجتتي⁽³⁾

(الكامل)

ولعبد الله بن ابراهيم الأزدي ويكنى بابن المربع، وصف جميل في جبل شُلَيْير، وقد نزلت عليه الثلوج، فهو كالشيخ الجليل الذي تقدم به العمر، فهو يلبس ملابس بيضاء ناصعة، وهو يصبغ غرناطة بمسحة ظاهرة في جمال الطبيعة. يقول:

وشَيْخٌ جليلٌ القدرِ قد طالَ عمرُهُ وما عنده علمٌ لَطولٍ ولا قِصرَ
عليه لباسٌ أبيضٌ باهر السَّنا وليس بثوبٍ أحكمته يد البشر⁽⁴⁾

(الطويل)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه ج: 3. ص: 283.

(2) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 329.

(3) ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 120.

ينظر: المقرئ، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 160.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 324.

وظهر هذا المعنى عند لسان الدين الخطيب، فيصوره وقد كسي بالثلوج، وكأنه شيخ

كبير لبس البرنس الأبيض. يقول:

شليح لعمرى أساءَ الجوارا وسدَّ عليَّ رحيبَ الفضا
هو الشيخُ أبردُ شيءٍ يُرى إذا لبسَ البرنسَ الأبيضاً⁽¹⁾

(المتقارب)

وهذه الأبيات تقترب في جوهرها من أبيات لابن خفاجة، وهو يصف جبلاً حيث يقول:

ألا ربَّ رأسٍ لا تراورَ بينه وبينَ أخيه والمزارُ قريبُ
أنفٌ به صلْدُ الصفا فهو منبرٌ وقام على أعلاه فهو خطيبٌ⁽²⁾

(الطويل)

فهو يشبه الصخور العالية بالمنبر، والرأسُ فوقها كالخطيب.

ج- المائيات:

ومن مظاهر بذخ الطبيعة في الأندلس، تلك الأنهار الكثيرة الوفيرة الماء، السلسلة التدفق، تحيي موات الأرض مشرقاً ومغرباً وشمالاً وجنوباً، ترفد الأرض بالخصب والعطاء، وتمدّ الرياض بالسحر والنماء، وكانت أكبر المدن وأهمها مثل (قرطبة)، و(شبيلية)، و(غرناطة)، تقع على تلك الأنهار، الأمر الذي جعل الأندلسيين يتخذون من ضفافها مراتع لهو واستمتاع، ومن صفحاتها ساحات أمينة، تسير عليها زوارقهم وهم يعزفون ويغنون ويقولون شعراً.⁽³⁾

وقد وصفوا صفاء مياه الأنهار وزرقتها، والأزهار التي ترافق ضفافها وكأنها النجوم التي تزين المجرات. والماء عندهم في عذوبته وصفائه وانسيابه جمان ينساب كأنه سيف سلّ من غمده، يقول صالح بن يزيد النفزي:

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 643.

(2) ابن خفاجة: الديوان. شرح يوسف فرحات. بيروت: دار الجليل. ص: 35.

(3) الشكعة، مصطفي: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ص: 309.

وأزرقَ محفوفٍ بزهرٍ كأنَّه
يسيلُ على مِثْلِ الجمانِ مُسَلَّسًا
ونجومٌ بأكنافِ المجرَّةِ تزهرُ
كما سئلَ عن غمِّدِ حُسامِ مُجوهرِ
وقد صافحَ الأدواحَ من صفحاتِه
وحتى حبابِ بالنسيمِ مُكسَّر⁽¹⁾

(الطويل)

ولم يخف الشعراء إعجابهم بالبحر، وعظمة الخالق في صنعه، وعدوه أعظم العجائب

على الأرض، يقول النفزي:

البحرُ أعظم مما أنت تحسبه
من لم ير البحرَ يوماً ما رأى عجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زورقِ
مثل السماء إذا ما ملئت شُهبا⁽²⁾

(البيط)

2- وصف الطبيعة الحية:

كان نتيجة لطبيعة مملكة غرناطة الجميلة، التي اتسمت بكثرة الرياض والغابات والوديان والجبال، وما صاحبها من انتشار للأنهار، أن انتشرت الحيوانات والطيور فيها، وأسهب الشعراء في وصف هذه الحيوانات، وأكثروا في ذلك، فلا نكاد نجدُ حيوانا مهما صغر أو كبر، إلا وذكره في أشعارهم، وقد أخذت الخيل نصيبا وافرا في وصفهم، فوصفوا ألوانه المختلفة وإحجامه وقوته في خوض المعارك، فهو أسود كالليل الحالك، وأحمر كالجمر الملتهب، الذي ينطلق مسرعا يوم المعارك، يقول ابن زمرك:

من أشهبٍ كالصَّبْحِ يعلو سرجَه
أو أدهمٍ كالليلِ قُلْدٌ شَهَبه
صبحُ به نجم الضلالة يأفلُ
خاضَ الصباحَ فأثبته الأرجل
أو أشقر سال النضارُ بعطفه
وكساه صبغة بهجة لا تتصل

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 280.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 280.

أو أحمر كالجمر أضمر بأسه بالركض في يوم الحفيظة يشعل⁽¹⁾

(الكامل)

ولابن الخطيب وصف جميل في الخيل، فهو كغيره من الشعراء يركز على ألوانها ويبين قوتها، غير أنه ذكر صفاتها الجميلة، ونسبها الأصيل، وهي أمور لم ينتبه إليها ابن زمرك، يقول:

فمن أدهم أضفى عليهم مسيحه رداءً كلون البُرس ألحفَ زنجياً⁽²⁾

عرابٌ كما تتصاعقُ وفتُحَّ كواسيرٌ إذا استعجلوها من مرابطها جرياً⁽³⁾

(الطويل)

ونرى الخيول قد نالت من اهتمام الشاعر الأندلسي، وحظيت بحرصه عليها وتفخره بها وبقوتها وسرعتها ونجابتها، لما تفجّر لديه من رموز ومعان كثيرة يتشبت بها ويعتزّ بتحقيقها

كالبطولة والرجولة والمجد.⁽⁴⁾

ويرى البعض أنّ عناية الأندلسيين بوصف الإبل بعامة ووصف الناقة بخاصة، وعلى النحو المعروف، ربّما يكون عن طريق مشاهدتها في مكان آخر في البلاد التي ارتحلوا إليها في بلاد المغرب وصحاريها.⁽⁵⁾

ولم تغب الطيور بأنواعها المختلفة عن أوصافهم، فهي التي تزين حدائقهم وقصورهم، وهي التي تبعث السرور في نفوسهم، فلم يصفوا الرياض إلا والطيور فيها، ولا يغب عنا كثرة الرياض في غرناطة وما حولها، مما ساعد على إيجاد الجو المناسب لعيش هذه الحيوانات.

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 71.

ينظر: ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 99.

ينظر: المقرئ، شهاب الدين: أزهار الرياض في أحبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 20.

⁽²⁾ مسيحه: المسيح هو الدوّابه.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 776.

⁽⁴⁾ حضر، حازم: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. 1987. ص: 29.

⁽⁵⁾ شلي، سعد: أثر البيئة الأندلسية في الشعر. ص: 151.

ومن جملة ما وصفوه من صفاتها، صوتها الجميل العذب الذي يشدو بأطيب الألحان،

وترقص أجمل الرقصات، يقول ابن خاتمة في وصف بلبل:

ووردية الجلباب أعجبتها الورْدُ فغَنَّتْ وما بالغانيات لها عهدُ
تريكَ اضطراب الراقصات إذا انتت وتُسَمِعُ لحنَ المُسمِّعات إذا تشدو

وساعدها طيبُ الهواءِ وفضله وفصلُ الربيعِ الغضُّ والمنزلُ السعد⁽¹⁾

(الطويل)

ومن الحيوانات الغريبة التي وصفوها الزرافة، وقد كانت غريبة عن بلادهم فنظروا

إليها بإعجاب، وقد أطلوا في وصفها إلى حد جعلهم يرسمون لها صورة تبدو كأنها لوحة لم

ينس رسامها جانبا من جوانبها، يقول ابن زمرك:

وَأنتك يا مَلِكَ الزمانِ غَرِيبَةٌ قَبْدُ النواظِرِ نُرْهَةٌ الأَبْصارِ
مَوْشِيَةُ الأعْطافِ، راتِقَةُ الحَلِيِّ رَقَمَتْ بَدَائِعِهَا يَدُ الأَقْدارِ
راقَ العُيونَ أديمُها، فكأنه روضٌ تفتَحُ عن شَقِيقِ بَهَّارِ⁽²⁾

(الكامل)

ووصف الشعراء الحيوانات البحرية، فوصفوا الحوت وألوانه وحجمه، يقول ابن الجياب:

ما حيوان في اسمه إذا اعتبرته فنون
حروفه ثلاثة والكل منها نون⁽³⁾

(مجزوء الرجز)

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 123.

(2) ابن زمرك: محمد: الديوان. ص: 52.

ينظر: غومث، إمبليو: مع شعراء الأندلس والمنتني. ترجمة الطاهر أحمد مكي. ط3. القاهرة. دار المعارف. 1983. ص: 177.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 4. ص: 122.

النون: الحوت. ينظر: الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1987. ص: 1596.

وتبدو الأحجية واضحةً في هذين البيتين، فكلمة الحوت تتألف من حروف ثلاثة، وهي في مجموعها تشكل كلمة النون وهو الحوت.

3- وصف التنزه والرحلات:

وهذا الموضوع ظهر عند الشعراء، وسببه تعلقهم بطبيعة بلادهم الغناء، ويبدو أن إعجابهم بالأنهار كان عالياً، ونعني به النزهات البحرية، وكان الشعراء يقومون بها مع رفاقهم، حيث تحملهم القوارب في النهر رائحة غادية، ومعهم أهل الطرب والظرفاء، ومن حولهم الطيور تصدح، والأشجار والأزهار تعبق برائحتها، كل ذلك في جو يبعث في النفس الطرب والطمأنينة، ولأبي المطرف بن عميرة وصف لرحلة نهريّة قام بها مع رفاقه في نهر جزيرة شقر، حيث ركبوا زورقا ومعهم شباك الصيد، ففضوا يوماً جميلاً بين الصيد واللهو. يقول:

وقد امتطينا زورقاً فيه فقل صبح تمشي في سناء غيهب
فتراه طوراً طائراً أو لربما ضّمت جناحاه إليه فيجنب⁽¹⁾

(الطويل)

وكان هذا اللون الطريف- وصف الرحلات والنزهات البحرية - مما أوحى به بيئة الأندلس، وما كان فيها من وفرة المياه والجدال والأنهار، وقد أكثر الشعراء منه، مما يدلُّ أنه تأصل كموضوع بارز في شعر الطبيعة في عصر الموحدين.⁽²⁾

ومع انتشار الغابات والرياض، ووجود الكثير من الحيوانات والطيور، برزت رياضة صيد الحيوانات، وكان يقوم بها الملوك بمرافقة الوزراء والشعراء وأصحاب الحظوة عندهم، وكان للشعراء دور في وصف هذه الرحلات التي يخرجون فيها من أجل هذا الهدف، فيصفون ما يرافقها من أحداث ومغامرات، وكانوا يظهرون براعة الملوك في الصيد بقصد التقرب إليهم.

(1) عيسى، فوزي: دراسات في أدب المغرب والأندلس. ص: 14.

(2) عيسى، فوزي: المرجع نفسه. ص: 15.

ومن الحيوانات التي كانوا يصطادونها الأرانب التي كانت تحاول النجاة بنفسها، ولكنهم كانوا يجرون وراءها الخيل مسرعة، فلا تستطيع الإفلات منهم، ولابن زمرك أبيات في وصف رحلة صيد ، يقول:

أَتَبَعْتُهَا غَرَرَ الْجِيَادِ كَوَاكِبًا تَنْقُضُ رَجْمًا فِي سَمَاءِ غُبَارِ
وَالهَادِيَاتُ بِوَمَّهَا عِبِلُ الشَّوَى مَتَدَفَّقُ كَتَدَفَّقِ النَّيَّارِ
أَزْجَيْتُهَا شِقْرَاءَ رَائِقَةَ الْحَلَى فَرَمَيْتُهُ مِنْهَا بِشِئْلَةَ نَارِ
طَفَقَتْ أَرَانِبُهُ غَدَاةَ أَثْرَتِهَا تَبْغِي الْفِرَارِ وَوَلَاتِ حِينَ فِرَارِ⁽¹⁾

(الكامل)

واللافت للنظر، أنّ ابن زمرك يعطينا إشارات إلى أنّ العرب قد عرفوا البارود في الصيد، وظهر هذا في قوله: "فرميتُهُ منها بشِئْلَةَ نَارِ"، "طَفَقَتْ أَرَانِبُهُ غَدَاةَ أَثْرَتِهَا"، وربما جاءت هذه الإثارة من صوت انفجار البارود. والذي يقودني إلى هذا الاعتقاد ما جاء عند الدكتور سعيد عاشور حيث يقول: انتشرت الأسلحة النارية، واستخدم البارود في تلك الحقبة من الزمن. وقد استخدمه الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، وكان هذا من أسباب سقوط حصن لوشة سنة 1486م، وسقوط مالقة نتيجة لوضع الألغام تحت أسوارها سنة 1488م.⁽²⁾

ثانياً: وصف المعارك:

لا عجب في أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسي، فإنّ الحروب بين المسلمين وأعدائهم لم تنقطع، ولم تهدأ الحرب إلا لتشن أخرى، ولهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش.⁽³⁾

ومن طبيعة المعارك البحرية أن يخوضها الأسطول مجتمعاً بكل سفنه ، أو متفرقاً تبعاً لطبيعة المعركة، ولم يتخلف ابن الخطيب عن وصف معارك الأسطول الأندلسي ، والحق أنه

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 55.

(2) عاشور، سعيد: محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي. بيروت: منشورات جامعة بيروت العربية. 1975. ص: 541.

(3) الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 120.

عاش مرحلة الإحتضار السياسي والإنحسار الحضاري الإسلامي في الأندلس.⁽¹⁾ ولإبن الخطيب قصيدة يصف فيها الأسطول الأندلسي وخوضه هذه المعارك. يقول :

هَنَّ الجوّاري المنشآت وقد غدتُ تختالُ في برد الشبابِ وترفُلُ
من كلِّ طائرةٍ كأنَّ جناحها وهو الشراعُ به الفراعُ تظللُ
جوّفاءُ يحملها ومن حملتُ به مَنْ يَعْلَمُ الأنتى وما تَحْمِلُ⁽²⁾

(الكامل)

والبيت الأخير فيه إشارةٌ إلى قوله تعالى "الله يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تغيض الأرحام".⁽³⁾

ولعبد الله بن رضوان البخاري أبيات يبين فيها حالة العدو وخوفه عند رؤية أسطول

المسلمين، وقد جهّزه السلطان يوسف بن اسماعيل بن فرج النصري. يقول:

ولما استقامت بالزقاق اساطيرُ لُ ثم استقلّت للسعود محافلا
رأها عدو الله فانفضَّ جمعه وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن دَهَشَ ظنَّ السواحلَ أبجراً ومن رُعِبَ خالَ البحار سواحلا⁽⁴⁾

(الطويل)

ويصف ابن زمرك حركة السفن، وهي تجوب البحار كأنها تحمل أجنحة تطير بها، فهي

تسبق البصر، ويشبهها أثناء تدافعها فوق الأمواج، وكأنها الخيول التي تسابق داخل مضمار السباق، يقول:

أركبته في المنشآت كأنما جهّزته في وجّهةٍ لِمَزارِ
من كلِّ خافقةٍ الشراعُ مُصَفَّقُ منها الجناحُ تطيرُ كلَّ مطارِ

(1) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 487.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 500.

(3) سورة الرعد. آية 8.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 339.

مثل الجياد تدافعتُ وتسابقتُ من طافح الأمواج في مِضْمَارٍ⁽¹⁾

(الكامل)

ونلاحظ أن وصف المعارك البحرية، قد ازدهر منذ أيام محمد الفقيه، إذ بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم، لأن كلا من مملكة غرناطة، ومملكة قشتاله، وسلطنة بني مرين، ومملكة أرغون، ثم الجمهوريات الإيطالية، تنبعت لأهميّة ذلك المضيق.⁽²⁾

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 29.

⁽²⁾ مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس. ص: 385.

ينظر: العبادي، أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. ص: 393.

المبحث الثاني: الحماسة

لم يكد يبدأ حكم بني الأحمر، حتى دهمت البلاد الأزمت السياسية، واشتدّ النزاع بين أمرائهم، وكان كلّ حزب يسيء إلى الآخر، ويسعى لهدمه من أجل تحقيق مآربه وأطماعه، وسادت البلاد حالة من الفوضى، وفي ظلّ هذه الظروف، تنبه الإسبان إلى حالة الضعف التي سادت عموم البلاد، فأخذوا يعدون العدة لإستعادة بلاد أجدادهم من أيدي المسلمين، فأعدّوا لهم ما استطاعوا من القوة التي تدعمها أوروبا المسيحية، وجاءت حروب الإسبان منظمة تنظيماً دقيقاً، تقابلها حالة الفوضى وعدم التنظيم عند المسلمين، كل هذا أدّى إلى تتابع سقوط المدن. وفي هذا يقول الملك يوسف الثالث:

إنّ النصارى قد تجمّع شملها فعسى ببأس سيوفكم تتبدّد
وتروهم منكم سيوفُ حمايةٍ يجلو دُجاها يوسف ومحمد⁽¹⁾

(الكامل)

ونلاحظ أنّه استخدم حرف التوكيد (إنّ)، ليؤكد الخبر للسامع، ممّا يزيد الأمر يقيناً في نفسه، وينتقل الانفعال على نحو أسرع وبعمق أكبر لديه.⁽²⁾

ولم يمض غير وقت قليل حتى أجلوا العرب عن كثير من تلك البلاد، ورفعوا نواقيسهم فوق مآذنها، وألحقوا بهم من الوهن ما لا قبل لهم به، ولا قدرة لهم عليه، كل ذلك أثر في نفوس شعرائهم، فحملهم على إرسال بالغ القول ومؤثر الشعر، يستنصرون به من يتوسّمون فيه النجدة وتلبية النداء والغضب لما حل بالإسلام وأصاب حماه، وما نزل بأهله من الجهد والأذى، وبحرّضونهم على ذلك مستثيرين شعورهم بتعداد المصائب التي طوقتهم، وذكر ما طمس من معالم الشريعة وما تعطلّ من السنن، وما فعل برجالهم ونسائهم وبنبيهم وبناتهم، مما يدمي القلوب، ويفنت الأكباد وتذهب النّفس حسرات عليه.⁽³⁾

⁽¹⁾ يوسف الثالث: الديوان. ص: 53.

ينظر: أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس. ص: 72.

⁽²⁾ الداية، فايز: جماليات الأسلوب (علم المعاني). حلب: منشورات جامعة حلب. 1989. ص: 38.

⁽³⁾ عيسى، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 151.

ولعل تتابع سقوط المدن بيد الإسبان، قد أعاد إلى شعر الحماسة عافيته، وبسقوطها بيد ملوك الشمال، ظلّ قليل من الشعراء متشبثين بفكرة المقاومة والجهاد المقدس، وذلك للحفاظ على مملكة غرناطة، تلك البقعة الصغيرة المتبقية من صروح الأندلس وأحجارها الغابرة.⁽¹⁾

ولا نعرف في الأندلس شعراء من الفرسان يخوضون معام القتال، ويذكرون بلاءهم في مواقف الأهوال، وإنما نعرف شعراء مدّاحين وصفوا شجاعة ممدوحهم ومعاركهم، وخصّوهم على الجهاد، فكانوا أشبه بالمصورين يرسمون مشاهد الحرب، ولا يُصَلون نارها، لذلك لم يرتفع شأن الشعر الحماسي عندهم، لأنّ هذا الفنّ لا تقوم له قائمة إلا في مواطن الشعراء المغاوير.⁽²⁾

ولكنّهم برعوا فيه براعة ملحوظة، ونبغوا فيه نبوغا واضحا، وأضافوا به إلى التراث الأدبي رصيذا ضخما من حقه أن يجعل لهم الفضل على لغة الضاد، بما أحدثوه في أساليب البيان من طرق التصوير والتعبير. وكانوا يبعثون به إلى ملوك المشرق وسلاطينه يطلبون منهم أن يمدّوا إليهم يد العون على دفع الخطر الداهم الذي يواجههم، أو الشر المقبل الذي يتهددهم، جراء تلك الغارات المتتالية التي يشنها عليهم أعداؤهم من الإسبان.⁽³⁾

وحتى يتأكد تأثير الاستصراخ في النفوس، كان لا بدّ للشاعر من أن ينقل بعضا من مشاهد الظلم والقسوة التي وقعت على مواطنيه، ويربط تلك المشاهد بالغيرة الدينية؛ لأنها كانت الأقرب إلى النفوس آنذاك.⁽⁴⁾

فهم يربطون بين الهزيمة التي حلّت بالإسلام والمسلمين، والنتائج التي انطوت عليها، ويتجلى ذلك في تحويل المساجد إلى كنائس، وضياع الصلوات، ووقوع الأسرى في يد الأعداء، يقول عمر بن المرابط في قصيدة نظمها على لسان سلطانه ابن الأحمر، ويتوجه بها إلى السلطان يعقوب المريني، الذي كان قد هرع لنجدة الأندلس عام 674 هـ:

(1) الطويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي ص: 25.

(2) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبيات. ج: 3. ص: 59.

(3) أبو الخشب، إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 215-216.

(4) عيد، يوسف: الشعر الأندلسي وصدى النكبات: ص: 39.

من ذا يُطهِّرُ نفسه بعزيمة
كم جامعٍ فيها أُعيدَ كنيسةً
مشحوذة في نصرِ دينِ محمّد
فاهلكَ عليه أسىٌ فلا تتجدد
من قانتين وراكعين وسجّد⁽¹⁾
أسفاً عليها أقفرت صلواتها

(السريع)

ومع تراجع نفوذ المسلمين، أخذ الشعور بالخوف يتنامى عند الشعراء، ممّا دفعهم لأن يحركوا الضمائر من أجل الحفاظ على ذلك الوطن الصغير المتبقي، وبات على الشاعر الملتزم ألا تخمد جذوة كلمته، وهكذا اتجهوا إليهم لكي يقدموا المساعدة لإخوانهم. وخير من مثل هذا الدور لسان الدين بن الخطيب، فشعره غزير في هذا الميدان، ومن ذلك قوله أثناء محاصرة الإسبان لبعض ثغور غرناطة، وهو يستجد ببني مرين، مبينا لهم أنّ هؤلاء أخذوا يستولون على المدن تباعا، مما أدى إلى تراجع الإيمان أمام الكفر، فهو بهذا يحثهم على النهوض من أجل إحقاق الحق ونصرة الدين. يقول:

أخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا
تحكّم في سكان أندلس العدى
فقد كاد نورُ الله بالكفر أن يُطفأ
فلهفًا على الإسلام ما بينهم لهفا
وجاست جيوش الكفر بين حلالها
فقوموا برسم الحق فيها فقد عفا
فلا حافرا أبقّت عليها ولا ظلّفا
وهيوا لنصر الدين فيها فقد أشفى⁽²⁾

(الطويل)

واستخدم الشاعر حرف النداء (الهمزة) وهو لنداء القريب؛ لينزل بني مرين منزلة القريب، إشارة إلى قربهم من قلوب إخوانهم في الأندلس وحضورهم في أذهانهم، فهو بهذا ينادي بوحدة المسلمين.⁽³⁾

⁽¹⁾ ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج:7. ص: 194.

ينظر: عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 420.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 677.

⁽³⁾ عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. بيروت: دار النهضة العربية. 1972. ص: 126.

ونجد في أبيات الملك يوسف الثالث ما يدلُّ على أنَّ الشعراء قد حرصوا على إثارة المشاعر الدينية، مضمنين هذه الأبيات إشارات تدلُّ دلالة واضحة على الصراع الذي يدور بين الكفر والإيمان، يقول:

معاذ من كتبَ الحسنَى لأندلس من أن يجوسَ عدوَّ الدِّينِ أندلسا
مُستعصمُ الدينِ ما كانت فوارِسُه يوما ليترك حزبَ الكفرِ مُفترسا
كم أنبتوا قدما كم جدلوا صنما كم شيّدوا للمعالي أربعا دُرُسا⁽¹⁾

(البسيط)

وحاول الشعراء إعادة الأذهان إلى أمجاد العرب المسلمين وبطولاتهم في بدايات الدعوة المحمدية، والتذكير بالغزوات التي خاضها الرسول، وأظهر فيها المسلمون شجاعة منقطعة النظير، كغزوة بدر وأحد، كلُّ هذا جاء من أجل رفع الروح المعنوية عند المسلمين، يقول ابن زمرك واصفا الجيش النصري:

يا آلَ نصر أنتم سُرجُ الهدى في كلِّ خطبٍ قد تجَّهْمُ مُظَلِّم
القاتحون لكلِّ صعبٍ مقفل والفارجون لكلِّ خطبٍ مُبَهِّم
سل عنهم أهدأً وبدراً تلقهم بلواء خير الخلق من متقدِّم⁽²⁾

(الكامل)

ولعبت المرأة دورا مهماً في استثارة الحماسة لدى العامة من الناس، ويأتي هذا الدور كونها تشكل عنوانا يتسم بالحساسية عند الإنسان العربي المسلم، لأنها تعني بالنسبة له الشرف والكرامة، وانتهاك الأعراض عند المسلمين أمر تعتصر له القلوب، وتهتز له الأبدان، ووقوعها في الأسر يجعلها عرضة للاغتصاب والاعتداء، وهو أمر ألهب مشاعر الشعراء قديما وحديثا،⁽³⁾ ممّا جعلهم يكررون صور المأساه في أشعارهم، ويبين لنا أبو البقاء الرندي حجم المأساه التي

⁽¹⁾ يوسف الثالث: الديوان. ص: 154.

⁽²⁾ ابن زمرك الغرناطي، محمد: الديوان. ص: 112.

ينظر: المقرئ، أحمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 42.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 63.

⁽³⁾ على نحو ما جرى للمسلمين في بلاد البوسنة والهرسك والعراق من حوادث قتل واغتصاب جرت لنساء المسلمين.

حلّت بالمسلمين، محاولاً أن يستميل القلوب من أجل إغاثة هؤلاء ورفع الظلم عنهم، ويبين ما أصاب نساءهم من سبي وامتهان أثناء الأسر، فهم لم يفرقوا بين الأطفال والشيوخ، ولعلّ ما يدمي العيون، تلك الطفلة، وهي فتاة جميلة كالبدر، وما زالت في مقتبل العمر، وصورتها وهي تساق بوحشية لممارسة البغاء وهي مرغمة، يقول:

وطفلةً مثل حسن الشمس إذ طلعت
 كأنما هي ياقوت ومرجان
 يقودها العليج للمكروه مكرهه
 والعين باكية والقلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كمد
 إن كان في القلب إسلام وإيمان⁽¹⁾

(البيسط)

ولم يقف شعراء الأندلس عند استنصار الملوك، واستتجادهم وطلب معونتهم، بل تجاوزوا ذلك إلى الاستجد بالرسول الكريم والأولياء والفرع إلى الصالحين، وهم بذلك يتوسلون بهم إلى الله تعالى، رجاء أن يصرف العدو عن بلادهم، ويعيد إليها عزها ورفعتها، يقول لسان الدين ابن الخطيب موجها الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مستجداً به، ومتوسلاً إليه:

ألا يا رسول الله ناداك ضارع
 على البعد محفوظ الوداد سليمة
 أيجهر بالشكوى وأنت سميعه
 أعلين بالنجوى وأنت عليمه⁽²⁾

(الطويل)

ومن موضوعات شعر الحماسة، إظهار شجاعة المقاتل الأندلسي وبراعته أثناء المعارك، والبطولات التي يقوم بها أثناء القتال، يقول الفقيه الحاج محمد بن محمد بن الشديّد أثناء مدحه للأمير أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل:

لنا الأيدي الطوال بكل ضرب
 يهزُّ به لدى الرّوع الحسام
 ونحن اللابسون لكلّ درع
 يصيبُ السُّمرَ منهنّ انثلام

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد: فح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 375.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 549-550.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب علاة الإغتراب. ص: 123-124.

ينظر: أبو الخشب، إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 220-221.

ينظر: عيسى، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 154.

بأندلس لنا أيامُ حربٍ مواقعهن في الدنيا عظامُ
ثوى منها القلوب الروم خوفٌ يُخَوِّفُ منه في المهدي الغلامُ
حمينا جانب الدين احتسابا فما هو لا يُهان ولا يُضام⁽¹⁾

(الوافر)

وإذا ما نظرنا إلى ألفاظ وتراكيب هذه الأبيات فإننا نجد أن الشاعر قد استخدم ألفاظاً تدل على القوة التي ترهب الأعداء كقوله: "الأيدي الطوال، نحن اللابسون لكلّ درع، لنا أيام حرب... ولعلّ هذه الألفاظ أصبحت سمةً عامةً نلاحظها في أشعار الحماسة.

ولجأ الشعراء إلى استثارة العزائم في الصراعات السياسية، التي تدور بين الأمراء من أجل تحقيق مكاسب خاصة لهم، كاسترجاع ملك ضائع، على نحو ما فعل ابن الخطيب عندما لجأ إلى أبي سالم المريني، يستحثه على تقديم العون إلى السلطان الغني بالله. يقول:

قصدناك يا خيرَ الملوكِ على النوى لتتصفنا ممّا جنى عبدك الدهرُ
كففنا بكَ الأيامَ عن غلوائها وقد رأينا منها التعسّفَ والكبرُ
وعُدنا بذاك المجدِ فانصرمَ الردى ولُدنا بذاك العزمِ فانهزمَ الذعرُ⁽²⁾

(الطويل)

واستمرّ هذا النوع من الشعر حتى بعد سقوط غرناطة، على نحو ما رأينا في رسالة للشريف العقيلي، وهو آخر وزراء بني الأحمر، يطلب فيها من سلطان المغرب أن يقبل الملك أبا عبد الله الصغير، وهو آخر ملوك غرناطة. ويقول فيها:

مولى ملوكِ العربِ والعجمِ رعيًا لما مثلهُ يرعى من الذممِ

(1) ابن الأحمر، اسماعيل بن يوسف: نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان. ص: 197.

(2) ابن الخطيب: لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 415.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعلام الإعلام في من بويغ قبل الإحتلام من ملوك الإسلام. ص: 313.

بك استجرنا وأنتَ نعمَ الجارِ لمنْ

جار الزمانُ عليه جَورٌ منتقمٌ⁽¹⁾

(البسيط)

وإذا ما نظرنا إلى الظروف التي جاء فيها شعر الحماسة، فسوف نجد أن أكثرها سياسية، حيث توجت بدعوات متلاحقة للوقوف في وجه الزحف الذي قام به الإسبان ضد الممالك الإسلامية، ولم يترك الشعراء وسيلة إلا استخدموها، ظنا منهم أنها قد تغير من واقعهم المتردي، والذي وصلوا إليه بسبب تناسيهم أن هناك عدواً يتربص بهم.

⁽¹⁾ المقري، أحمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 5. ص: 410.

ينظر: الملاح: ياسر: من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس. ص: 263.

ينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد. ص: 377.

المبحث الثالث: الفخر

غرض الفخر غرض غنائي قديم قدم الشعر ذاته، وقد نظم فيه كثير من الشعراء، فأسبغوا على أنفسهم الكثير من الصفات الحسنة، والمزايا الفاضلة نفسها، التي كانوا يسبغونها على ممدوحهم، وقد تراوح الفخر بين القصيدة والقطعة والبيت الواحد، يأتي به الشاعر مستقلاً، أو ضمن أبيات نظمها في غرض آخر.⁽¹⁾

ونستطيع أن نقول: إنَّ هذا الفن قد لازم المديح في أكثر مواطنه التي قيل فيها، فلا نكاد نسمع قصيدة بدأها شاعر بالفخر دون المديح، فالهدف واحد، وهو نيل رضى الممدوح، والغاية منها الحصول على أمر يريده هو، فلا يكاد يبدأ بالمديح حتى يخرج إلى الفخر. وتتنوع غاياته وأهدافه، فجاء الفخر بالنسب، والفخر بالخصال الحميدة التي يتمتع بها الممدوحون.

والإنسان العربي كعادته يسير على نهج من سبقوه من أجداده، فقد كان دائم الفخر بالمكانم والأخلاق، فهما يولدان معه. يقول ابن زمرك:

الأئمة في الجود والجودُ شيمتي جلبتُ على آثارها يومَ مَوْلدي
ذريني فلو أخذتُ بالغنى لكنتُ ضنيناً بالذي ملكتُ يدي⁽²⁾

(الطويل)

وقد ورد الفخر بالمحافظة على العرض وعدم النظر إلى عورات الناس، وهذا ظهر عند الكثير من الشعراء، فهم يغضون الطرف إذا ما بدت المحرمات من النساء، وهم حريصون على هذا، يقول محمد بن أحمد جزى الكلبى:

وكم من صفحة كالشمس تبدو فيسلي حُسنها قلبَ الحزين

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض . ج: ح. ص 10.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: ح. ص: 203.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 5. ص: 17.

⁽²⁾ المقرئ: أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: ح. ص 10.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة ج: 2. ص: 203.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5 ص: 17.

غضبتُ الطرفَ من نظري إليها محافظةً على عرُضي وديني⁽¹⁾

(الوافر)

وأكثر الشعراء من الفخر بالنفس والاعتداد بها، وهي سمةٌ من سمات الفخر في الشعر العربي ولاسيما الفخر الذي ظهر عند الملوك، وبدا هذا الغرض من الفخر واضحاً في أشعار ملك غرناطة يوسف الثالث، فقد جمع بين خصال ثلاث، هي الشجاعة والكرم والوفاء. يقول:

أنا الهمامُ الذي تُخشى عزائمه في الحربِ أن كُتِبَ الأجنادُ أو كتبنا
أنا الإمامُ الذي تُرجى مكارمه لله منها خلالٌ فاقت السُّحبا
لنا الوفاءُ الذي تأبى مكارمنا أن تسترد من الإفضال ما وهبنا⁽²⁾

(البسيط)

ويأتي استخدام الشاعر للضمير المكرر (أنا) ليدلّ على مسمى قريب ويبين حقيقته، فيجعلُه كأنه مشاهد حاضر للعيان.⁽³⁾

وجاء الفخر بالنسب ليدل على أصالة العرق الذي ينتمي إليه الممدوح، والفخر بالأجداد ظاهرة تتاولها الشعراء لبيان المكانة الرفيعة التي ينتمون إليها، والنسب هو ارتباط أبناء القبيلة كلّها بنسب واحد، وبصلب جدّ واحد، ومنه انحدر أفراد القبيلة.⁽⁴⁾ ونرى ابن زمرك يفاخر بنسب ابن الأحمر، الذي يعود إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة من الأنصار،⁽⁵⁾ وهؤلاء الذين نصرروا الرسول وأزروه في دعوته وحروبه ضد المشركين. يقول:

فإذا الملوك تفاخرت بأجدادها فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل
يا ابن الإمام ابن امام ابن الاما م ابن الإمام، وقدرها لا يجهل

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص 13.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 47.

(2) كنون، عبد الله: ديوان ملك غرناطة. ج: 4. ص: 13.

(3) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 45.

(4) الناطور، شحادة: مدخل على تاريخ الحضارة العربية والإسلامية. ط1. اربد: دار الأمل. 1989. ص: 56.

(5) الوائلي، عبد الحكيم: موسوعة قبائل العرب. ج: 1. ط: 1. الأردن: دار أسامة. 2002. ص: 27.

أباؤك الأنصار تلك شعارهم فليحيم آوى النبي المرسل⁽¹⁾

(الكامل)

ولجأ ابن زمرك إلى التكرار في أبياته ليؤكد على أصالة النسب الذي ينتمي إليه ابن الأحمر.

وتفاخروا بأنهم يحافظون على الدين ويذودون عن حياضه، وجاء هذا في ظروف سياسية صعبة عصفت بالدولة الإسلامية، والتي واكبها ضياع الكثير من المدن، يقول لسان الدين ابن الخطيب مخاطباً آل نصر:

أثاركم في الدين غير خفيّة تروى على مر الزمان وتنقل

أو لستم الشهب الأولى ما غيروا من بعد بُعد نبهم أو بدلوا⁽²⁾

(الكامل)

والأندلسيون جزء لا ينفصل عن إخوانهم من المشاركة، وهم لا يقلون عنهم فصاحة وبيانا، ونرى شعراءهم يتفاخرون بفصاحتهم، يقول ابن الجياب:

مما عدمت أهل البلاغة والحجا يقيمون فيها الرسم للدين والدنيا

إذا خطبوا قاموا بكل بليغة تجلّي القلوب الغلف والأعين العميا⁽³⁾

(الطويل)

ويضيف المقرئ قائلا: لقد صدق قائل هذه الأبيات، فإنّ البلاغة لم تنزل شمسها بالأندلس باهرة الإياة⁽⁴⁾ ظاهرة الآيات، إلى أن استولى عليها العدو، وعطلّ من أهل الإسلام الرواح إليها والغدو، وفي أهلها بقية لسان ویراعة⁽⁵⁾.

(1) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. 67. ج: 2.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 115

ينظر: ابن زمرك الغرناطي: محمد. الديوان. ص: 96.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 502.

(3) المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي. ج: 1. ص: 115.

(4) الإياة: الضوء.

أنظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ص: 115.

(5) المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ص: 115-116.

وإذا ما نظرنا إلى شعر الفخر عندهم، فإننا نرى أنه انصبَّ على أمور استخدمها الشعراء من قبل، كالفخر والشجاعة والكرم وغير ذلك. ولكنهم أكثروا من الفخر بالنسب، وخصوصاً ما يتعلق بآل نصر الذين يمتدّون في جذورهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنه، ونظن أن الغاية في ذلك، هي أن يتمسك عامة الناس بملوكهم من بني الأحمر، بحكم أنهم يدافعون عن الدين في واقع تميز بتنامي الدعوات لإخراج العرب المسلمين من الأندلس.

المبحث الرابع: الرثاء

ويقال له التأيين أيضا، وإذا كان المدح هو الثناء على الشخص في حياته، فإن الرثاء أو التأيين هو الثناء على الشخص بعد موته، وتعداد مآثره، والتعبير عن الفجيعة شعرا، وشعر الرثاء إنما يقال وفاءً، والشاعر يقضي بقوله حقوقا سلفت، ويبيد من التفجع والحسرة والألم والإستعظام ما يدل على حجم المأساة التي حلت عليه، فيذكر صفات المرثي مبلة بالدموع.⁽¹⁾

وإذا ما نظرنا إلى هذا الموضوع، باعتبار أنّ المرثي هو الأساس فيه، فإننا نجد نوعا جديدا من الرثاء قد ظهر في العصر الأندلسي، وازدهر في عصر بني الأحمر، وهو رثاء المدن، فالحبيب الذي فقَدَ هنا هو الوطن، وهذا جاء بسبب تفرق المسلمين وضياح كلمتهم، وتراجع بداياته منذ سقوط مدينة طليطلة، وهي أول مدينة يستعيدها النصارى سنة 478هـجري.⁽²⁾

والرثاء في ذاته لم يكن جديدا على الشعر العربي، وهو نوعٌ من الألم لحبيب ارتحل، أما البكاء على الطلل، والدموع على غير الصديق، أو أهل أو قريب، أمر يلفت النظر، ويثير العجب، ويدعو إلى الغرابة، وقد كان لذلك السلطان الذي كان للمسلمين في تلك البلاد ولتلك الدولة التي قامت هناك قداسة واحترام، وغبطة وابتهاج، ولأنه كان مجدا للعروبة وحصنا للإسلام وقوة للدفاع عن الدين إذا داهمه العدو، ولذا، فقد أرغمهم خصوم دينهم أن يتراجعوا عن ذلك المجد، ويرفعوا أيديهم عن تلك البقعة من الأرض، وكان لهذا الهدف في نفوسهم وقع الصواعق، وفعل السلاح، فلم تسعفهم إلا تلك الدموع الحارة يذرفونها، وتلك الصيحات الحزينة يرسلونها، وتلك القصائد الطنانة يقولونها، لعلها تخفف من آلامهم.⁽³⁾

والأندلسيون لا يختلفون في مراتبهم عن المشاركة في رثاء الميت والتفجع عليه، بيد أنهم تفوقوا في رثاء الممالك البائدة، لما في نفوسهم من محبة صادقة لهذا الوطن، فكان يشجّوهم أن يروا بلادهم تسقط بلدا إثر بلد في أيدي الغرياء، ويعتبر رثاء المدن من المراثي السياسية، ولهذا

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 194.

(2) بسبح، أحمد: لسان الدين بن الخطيب، عصره، بيئته، حياته وآثاره. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1994. ص: 17.

(3) أبو الخشب، ابراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 207.

اللون الشعري اتجاهان، اتجاه يقف وسطا بين البكاء والاستجداء، فهو سلبى ذو نفس انهزامى، وهؤلاء صوروا شعور مواطنيهم وعبروا عنه بالدمع أحيانا، وبالدمع والاستجداء أحيانا أخرى، إلا أن معظمهم مالوا إلى البكاء وزرف الدموع على الأطلال. وهناك اتجاه وقف موقفا ايجابيا تمثل بحث الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال بالذود عن الوطن، لأنهم رأوا في المأساة قضاء على الكثير منهم، من خلال المذابح والمجازر التي حلت بهم، ومسأ لأرضهم التي أحيوها.⁽¹⁾

وجاءت ثورة هذا الشعر يوم سقوط إشبيلية بيد الإسبان في العام 646هـ، حيث دبت موجة من الغضب في صدور معظم الشعراء، ورافقهم في هذا شعورهم بفقدان الأمل بقدرة الحكام على الصمود واسترجاع المدن الضائعة، وبدا هذا واضحا عند أبي البقاء الرندي. فهو يصف ما حل بديار الإسلام، فقد تبدل الكفر بالإيمان، وحلت الكنائس مكان المساجد، حيث يقول:

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
على ديار الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
كما بكى لفراق الإلف هيمان
قد أفقرت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصُلبان⁽²⁾

(البسيط)

وأكثر الشعراء في رثائهم للمدن من استخدام التركيب الفعلي الذي ارتكز على الفعلين الماضي والمضارع (تبكي، بكى) (أفقرت) ليدل على التجديد والتبديل في الحال،⁽³⁾ فليس هناك ما هو ثابت في هذه الحياة، فليس هناك سرور دائم، أو حزن أبدي.

⁽¹⁾ طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 206.

⁽²⁾ المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 374.

⁽³⁾ الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 81.

ونرى أن بكاء الشاعر جاء مصحوباً بدعوات الاستجداء الممزوجة بالعتاب والتقريع والتوبيخ لمن يرى حال الأندلس، ولكنه يبقى ساكناً دون حراك، ولعله قصد في هذا ملوك المغرب من بني مرين، فهو يدعوهم لنصرة إخوانهم في الدين. يقول:

ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوسٌ أبيات لها هممٌ أما على الخير أنصارٌ وأعوان⁽¹⁾

(البسيط)

واستطاع الشاعر من خلال هذه الأبيات، أن يبيّن سبب هزيمة المسلمين، و يتلخص في فرقتهم. وهو في نفس الوقت يوجد الحلول المناسبة، والتي تكمن في الوحدة الإسلامية.

ولهذا حاول الشعراء في مراتبهم أن يثيروا العاطفة الدينية عند عامة الشعب، لكي يستنهضوا الهمم في نفوسهم، فهي تجمع المسلمين باختلاف عروقهم من عرب وبربر وغيرهم، ولهذا جاءت الصورة مكررة وتكاد تكون واحدة، وهي صورة تحويل المسجد إلى كنيسة، وإبدال الأجراس بالمآذن، ومنهم من أراد أن يعطي الصورة نوعاً من المشاهد المؤثرة، والتي تدل على حجم المصائب الذي حلّ بالمسلمين، ويعبر عن بالغ الحزن لما جرى لهذه المساجد، ويريد من هذا أن يظهر للمسلمين مدى الحقد الذي أبداه الإسبان نحو المسلمين في البلاد التي سيطروا عليها من خلال إدخال الخمر والخنزير إليها. يقول عمر بن المرابط:

كم جامع فيها أُعيدَ كنيسةً فاهلكَ عليه أسى فلا تتجدد
القِسُّ والناقوسُ فوق منارةٍ والخمرُ والخنزيرُ وسطَ المسجد⁽²⁾

(الكامل)

لذلك نستطيع أن نقول إنّ الحرب التي دارت في تلك البلاد كانت حرباً أساسها الدين، وخير دليل على هذا القول، ما فعله الإسبان بالمسلمين بعد السقوط.

(1) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 374.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج: 7. ص: 194-195.

ينظر: طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 111.

وإذا انتقلنا من رثاء المدن إلى رثاء الأشخاص، فإننا نجده يسير ضمن الإطار التقليدي الذي سار عند المشاركة، فهو لم يأت بشيء جديد على نحو ما حصل في رثاء المدن، فنرى رثاء الأبناء والأصحاب والملوك وغير ذلك، ومن رثاء الأبناء ما جاء عند محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري في رثاء ابنه الذي توفي بغرناطة، ونلاحظ في رثائه الحزن الذي ألم به، فالوفاة جاءت في ريعان الشباب، ومات كما تموت الأزهار وهي في قمة عنفوانها يقول:

شبابٌ ثوى شابتُ عليه المفاقرُ وغصنٌ ذوى تافتت إليه الحدائقُ
على حين راق الناظرين بسوقه رمته سهاًمٌ للعيون رواشق⁽¹⁾

(الطويل)

وظهر رثاء الزوجات، وكانوا من خلاله يصورون لنا حجم المعاناة التي حلت عليهم بعد فقد الزوجة، فهي تركت خلفها الأبناء الذين ما زالوا في حاجة إليها، فهم كالفراخ ما زالوا عاجزين عن إعالة أنفسهم. وهذا ابن الخطيب يرثي زوجته بأبيات عبّر من خلالها عن حزنه بعد فقده لرفيقة عمره التي لازمته في أوقات الشدة والرخاء. يقول:

روع بالي وهـاج بلبالي وسامني التكلُّ بعد إقبال⁽²⁾
ذخيرتي حين خانني زمني وعُدَّتِي في اشتداد أهوال
حفرتُ في داري الضريح لها تعلُّلاً بالمُحال في الحال⁽³⁾

(المنسرح)

ويُظهر الشاعر صدقَ عاطفته من خلال دفنه لزوجته داخل بيته، فهو يحافظ على محبته لها حتى بعد وفاتها.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 105.

(2) البلبال واللبالة: شدة الهم والوسواس،

ينظر: ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ط3. بيروت. دار صادر. 1994. ص: 69 مادة بلل.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 205.

ينظر: ابن الخطيب: لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 505.

وقد ظهر رثاء الأصحاب كثيرا في هذا العصر، وأظهروا فيه مناقب الميت، وعبروا عن حزنهم من خلال إطلاق العنان للدموع لكي تبكي الفقيد لعلها تخفف من آلامهم. يقول أبو الحسن بن الجياب في رثاء الوزير علي بن مسعود المحاربي ويكنى بأبي الحسن:

أيا زفرتي، زيدي ويا عبّرتي جودي على فاضل الدنيا على ابن مسعود
على الشامخ الأبيات في المجد والعلّا على السابق الغايات في البأس والجود⁽¹⁾

(الطويل)

وتميز هذا الشعر بصدق العاطفة، فلا نكاد نجد شاعرا منهم إلا واعتزته حالة من الألم والحسرة على فقد صاحبه، وفي مقابل هذا نجد أنفسنا أمام رثاء نستطيع أن نشك بصدق عاطفته وهو رثاء الملوك، وهذا النوع قيل في ملوك ما زال أبناؤهم يتربّعون على سدة عروشهم بعد وفاة آبائهم، وهذا لا يعني أننا ندّعي أن جميعه قد قيل في غرض التملق والمنفعة، فمنه من يُعبّر عن عاطفة جياشة تدلُّ على تأثر هؤلاء بفقد ملوكهم، يقول لسان الدين بن الخطيب في رثاء الملك يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر:

مَنْ لَمْ يُصَبِّ فِي نَفْسِهِ فَمَصَابُهُ بحبيبه نَفَذَتْ بَذَا الْأَحْكَامُ
يا واحدَ الآحادِ والعَلَمُ الَّذِي خَفَقَتْ بَعَزَّةَ نَصْرِهِ الْإِسْلَامُ
وإفأك أمرُ الله حين تكاملت فيك النُّهى والجودُ والإقدامُ
ورحلتَ عَنَّا الرَّكْبَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ أثنى عليك اللهُ وَالْإِسْلَامُ⁽²⁾

(الكامل)

وانبثق عن هذا اللون من الفنون الشعرية ظاهرة ملحوظة، وهي الوقوف على القبور، وكانت منتشرة في هذا العصر، ونلاحظها عند كثير منهم، فنجدها في أشعار ابن زمرك وابن الخطيب ويوسف الثالث وغيرهم، ومن ذلك رثاء ابن زمرك للأمير الغني بالله حيث يقول:

ضريحُ أميرِ المسلمين محمد يخصُّك ربِّي بالسَّلامِ المرَدِّ

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 54.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان: ج 2. ص: 556-557.

الكلمات: البراعم. ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ج: 12. ص: 526 مادة كم.

وصابت من الرُحْمى عليك غمائمٌ تُروِّي ثرى هذا الضريح المنجد⁽¹⁾

(الطويل)

وعلى الرغم من وجود مرثٍ أندلسية ضاهت مرثي الشرق، فقد ظلَّ شعراء الأندلس مقصّرِينَ عن اللحاق بالمشاركة في المرثي العادية، وخصوصاً ما يتعلق بأفراد الأسرة الحاكمة، وأصدق الرثاء عندهم هو رثاء الأهل والأولاد على نحو ما رأينا عند ابن الخطيب في رثاء زوجته؛ لأنه كان ينبثق عن عواطفٍ ملتهبةٍ ومشاعرٍ كئيبةٍ صادقة، ولكننا نرى أنهم تفوقوا على المشاركة في الرثاء السياسي فتوسعوا فيه، وأضفوا عليه مسحة من الجمال والفنّيّة على الرغم من سيطرة الكآبة وروح الإنهزام عليه، واستطاع التاريخ أن يخلدَ عدةً قصائدٍ نتيجةً لصدقها وقوة عاطفة قائلها.⁽²⁾

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 398.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية. ص: 99.

⁽²⁾ طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 112.

ينظر: بسبيح، أحمد: لسان الدين، عصره، بيئته، حياته وآثاره. ص: 17.

المبحث الخامس: الهجاء

لم ينتشر هذا اللون من الشعر كثيرا في عصر بني الأحمر، وذلك لعدم وجود دوافع قوية تساعده على ذلك، فظلَّ محدودا بين بعض الشعراء. وكان للظروف السياسية آنذاك الأثر البالغ في هذا الفن، ذلك أنَّ معظم الشعراء توجهوا نحو مجازاة تلك الظروف التي رافقها تتابع سقوط المدن وتنامي قوة الإسبان، وما رافقه من تراجع للقوة العربية المسلمة. وعموماً فالهجاء أصبح ضعيفاً منذ بداية العصر العباسي، وسبب هذا أنَّ التنازع أصبح فكراً مصيرياً، بعد أن كان شعوبياً بين العرب والموالي.⁽¹⁾

ولعلَّ الشعور بقرب الأجل هو الذي دفع الشعراء للابتعاد عن هذا الفن، وهذا ما يُفسَّر تطور بعض الفنون الأخرى مثل الرثاء، ولكننا لا نعدم أن نجد أشعاراً تدل على وجود الهجاء بين شعرائهم، فالطبائع الإنسانية لا يمكن أن تتوافق بشكل كامل، والخلافات بين البشر لا تنتهي، وكلُّ فرد يحاول جاهداً أن يثبت ما يؤمن به أمام الآخر.

وإذا ما نظرنا إلى الهجاء بأقسامه المختلفة، نجد أنَّه لم يظهر عندهم ما يعرف بالهجاء القبلي، الذي يتوجَّه به الشاعر إلى قبيلة معادية لقبيلته، فلم يكن للقبيلة دوراً في مملكة غرناطة ونظامها السياسي، على نحو ما كان سائداً في عصر بني أمية.⁽²⁾ ويرجع ذلك لأسباب عدة نذكر منها: أن ملوك بني الأحمر حكموا البلاد من دافع ديني، فهم يرجعون بالنسب إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، وعندما بدأ حكمهم، جعلوه يظهر في صبغة دينية من خلال شعارهم الذي رفعوه وهو (لا غالب إلا الله)، ومن سمات هذا العصر كونه احتوى على كثير من النكبات التي أدت إلى ضياع كثير من المدن .

أما بالنسبة للهجاء العنصري، ونعني به ذلك الذي يأتي به الشاعر تحقيراً للعرب وإنكاراً لفضلهم، ويكون صادراً عن غيرهم.⁽³⁾ فهذا النوع لم ينتشر أيضاً في هذا العصر، ويرجع هذا

(1) حاوي، إيليا: فن الهجاء وتطوره عند العرب. بيروت: دار الثقافة. 1998. ص: 439.

(2) التميمي، فحطان: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري. بيروت: دار المسيرة. ص: 103.

(3) نافع، عبد الله: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص: 56.

إلى الظروف السياسية التي وصلت إلى حدّ استخدام السيف، والمتتبع لتاريخ هذه المملكة يرى كثرة الحروب التي خاضتها على مدى قرنين ونصف.

وظهر الهجاء السياسي بأثر قليل في هذا العصر، ويتناول الخصوم السياسيين، ومنه ما جاء عند ابن الخطيب أثناء محنة الغني بالله التي حدثت بسبب استيلاء أخيه إسماعيل على الحكم، وهروبه إلى المغرب طالبا العون استرداداً للملك السليبي. ولابن الخطيب أبيات يصف فيها إسماعيل بالغرور، وعدم حفظ المعروف الذي أسداه إياه الغني بالله، ويرى أن الغدر عادة سيئة تجرّ الولايات إلى صاحبها، فديار الغادرين لا يمكن أن تدوم لهم يقول:

لم يدْرِ إسماعيلُ ما طوَّقته من مِنةٍ لو كان ممَّن يعقلُ
نعمَّ مَهْناً وظلَّ سَجَسَجٌ تَندى غُضارَتُهُ وماءٌ سَلْسَلُ
أغراه شيطانُ الغرورِ لغايةٍ من دونها تنضى المطيُّ الذُّلُّ
والغدرُ شرُّ سَجِيَّةٍ مذمومةٍ شَهَدَ الحَكِيمُ بِذاكِ والمُتَمَلُّ (1)

(الكامل)

وكان لطبيعة الحكم الوراثي الذي ساد مملكة بني الأحمر، أثر في تراجع قوة الخصوم السياسيين، ولم نجد في عصرهم من عارضهم تلك المعارضة التي يمكن أن يُشْهَدَ لها، حيث استطاع ملوكهم أن يقنعوا العامة بأنهم يخوضون حرب الإسلام ضد النصرانية الممثلة بالإسبان، وقد ساعدتهم في هذا، التسارع الذي حدث في سقوط المدن، مما جعلهم يبتعدون عن طرق هذا اللون من الفنون الشعرية، وإن حصل فإنّه لم يترك أثراً ملموساً، على نحو ما رأينا عند ابن الخطيب في هجائه لإسماعيل عندما اغتصب الحكم من أخيه الغني بالله.

ومن أنواع الهجاء القليلة، الهجاء الديني، وهو النيل من المعتقدات والمذاهب الدينية، وهذا يصيب القضاة والشيخ، وينتقص ممن يتهاونون في تطبيق أحكام الشريعة، ونجد هذا عند

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 289

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 497.

سجسج: اللين والإعتدال بين الحر والبرد. ابن منظور. جمال الدين: لسان العرب. ج: 2. ص: 295. مادة "سجسج".

ابن الخطيب في هجائه لليهود، فيصفهم بعصبة الشر، وينعتهم بالجبن والبعد عن الهداية، وينال من صلاتهم، وذلك عن طريق السخرية من طريقة أدائها يقول :

وعصبةُ شرٍّ من يهودٍ لقيتها يجانبها داعي الهدى ويحاشيها
إذا أمنوا واستوثقوا الباب أعلنوا خبائث ما كان اللسان ليفشيها
كأن رؤوسَ القومِ عند صلاتهم وقد أومأت للأرض صفر شواشيها
أقاح أمالتها الرياح على الثرى وقد أسقطت عنها بياض حواشيها⁽¹⁾

(الطويل)

ومن أنواع الهجاء التي انتشرت في هذه الفترة الهجاء الإجتماعي، وبه يتعرض الشعراء للمفاسد والعيوب التي تسيطر على المجتمع من أمثال العادات القبيحة، والتقاليد السخيفة، والجرائم الأخلاقية، والتخاصم على حب الرئاسة، ومن هنا قام هذا النوع من الهجاء يرصد عيوب المجتمع الأندلسي.⁽²⁾ ومن عادات المجتمع وتقاليده أن الناس يُؤلونَ الغنيّ تقديراً وإكراماً، ويبتعدون عن الفقير، إزدراءً وامتهاناً، يقول أحمد بن جزي الكلبي في الغنى:

أرى الناس يؤلونَ الغنيّ كرامةً وإن لم يكن أهلاً لرفعةٍ مقدار
ويؤلون عن وجه الفقير وجوهم وإن كان أهلاً أن يلقى بإكبار⁽³⁾

(الطويل)

ومن هؤلاء الشعراء نرى أبا حيان الغرناطي يهجو أهل عصره، ويصفهم بالذئاب في الخبث والمراوغة، وبالزنادقة في الفسق والضلالة، يقول:

ذئابٌ في ثيابٍ قد تبدت لرائيها بأشكال الرجال
ومن يك يدعي منهم صلاحاً فزندق تغلغل في الضلال

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 739.

(2) عبد الله، نافع: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص 81-82.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 53.

ترى الجهال تتبعه وترضى مشاركة بأهل وبمـال
فينهب مالهم ويصيب منهم نساءهم بمقبوح الفعال⁽¹⁾

(الوافر)

وأبو حيان قد هجا الناس ونقدم بناء على تجاربه معهم، ومشاهدته لهم، فوجدهم يتسمون بأسوأ الخصال وهي عدم الوفاء وسوء الخلق وعدم الصلاح والجهل والإباحية والنهب وضعف الاعتقاد. والرياسة في رأي أبي عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي، وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، داء فتاك فيه خطر على الطامحين في الوصول إلى مناصب الزعامة والسيادة، لأنه يفت سواعدهم ويهد عزائمهم من جراء ركضهم وراء نيل مطالبهم، وربما ينجحون في هذا أو يفشلون، كما فيه أيضا خطر على الكبراء أصحاب الهمم العالية، ويسقيهم كأس الذل والهوان، فربما يفقدون مناصبهم، يقول:

حب الرياسة يا له من داء كم فيه من محن وطولِ عناء
طلاب الرياسة فتّ أعضاء الورى وأذاق طعم الذلّ للكبراء
إنّ الرياسة دون مرتبة التقى فإذا اتّقيت علوت كلّ علاء⁽²⁾

(الكامل)

وفي ذمّ النساء وهجوهن أيضا أفكار صادرة عن أهل الفقه والعلم، ونرى أنّ القاضي أبا البركات البلقيي السلمي يبالغ في ذمهن، فصفاتهم الذميمة لا يمكن أن تعدّ أو تحصي، يقول:

قد هجوتُ النساءَ دهرًا فلم أبلغ أداني صفاتهن الذميمة
ما عسى أن يُقال في هجو من قد خصّه المصطفى بأقبح شيمه
أبقي لناقص العقل والذين إذا عدّت المثالبُ قيمة⁽³⁾

(الكامل)

(1) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 3. ص: 171.

(2) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 7. ص: 116.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الكنية الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 133.

وإلى جانب الهجاء الاجتماعي، فقد انتشر نوع آخر، وهو الهجاء الشخصي، ويمثل وسيلة للدفاع عن النفس إذا اعتدى عليه إنسان بعينه، أو يتخذ أداة منافسة، أو هجوم يبارز به شخصا بذاته، أو يريده تعبيراً عن انعكاسات الاستفزاز الذي تستثيره به نقائص الإنسان أو مساويء الحياة، وفي كل الأحوال يلبي رغبات النفس، ويستجيب لها في التعبير أو التصوير، وهو في التلبية يتناول العلاقات الشخصية المضطربة، ويمكن أن ندعوه باسم هجاء الاحتراف الشخصي، لأنه تجسيد لطبيعة مخالفة الآخرين ومعاداتهم، وهو الأصل في الهجاء الشخصي.

أما الاستجابة، فهو يريد تشخيص أنموذج إنساني متكامل الأوصاف الجسمية الذميمة أو الصفات الخلقية الذميمة، كما تتراءى له من خلال بؤرة التركيز الفني في أغوار نفسه العميقة، وتبرز في ملامح هذا الأنموذج الإنساني سلبيات طبع النشأة والتكوين، ومن مظاهرها: الشر يتناول على الخير، والنقص يتفاخر على الكمال، والقبح يتباهى على الجمال، ويمكن أن نسميه هجاء التصوير الفني الساخر، لأنه لعنة على الإنسان وسخرية في وجه الحياة.⁽¹⁾

وهذا الهجاء ظهر واضحا عند ابن الخطيب في هجائه لإبراهيم بن أبي الفتح الأصلع وزير السلطان إسماعيل بن الأحمر، فنراه يتهم عليه مستعينا باسمه - أبو الفتح - فهو لا يحمل منه سوى التسمية، فوصفه بالجهالة، ويرى أن وصوله للوزارة كان طالع شؤم، يقول:

قل للوزيرِ البليدِ قد ركضتُ في ربك اليوم غارةُ البعيرِ
وزارةً لم يجد مُقلِّداً عن شؤمها فـي الوجود من وزر
في طالعِ النَّحسِ حزت رتبتهَا وكلُّ شيءٍ في قبضةِ القَدَرِ⁽²⁾

(المنسرح)

ويتابع هجاءه له فيصفه بصفات تنصف بالجهل والغباء والحقد والفظاظة والظلم والقدارة، ثم يضعه في جملة البقر ويصفه بأنه عدل سرج، على ظهر فرس يقول:

(1) عبد الله، نافع: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص: 107.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. 1. ص: 428.

ينظر المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 1 ص: 116.

يا ناقصَ الدينِ والمروءةَ والعقلِ ومجري اللسانِ بالهذرِ
يا ولدَ السَّحْقِ غيرِ مكْتَمٍ حديثه يا ابنِ فاسدِ الدبرِ
يا بغلَ طاحونةٍ يـُـدورُ بها مجتهدِ السيرِ مغمضِ البصرِ
في أشهرِ عشـرةٍ طحنتهم فيا رحىِ الشؤمِ والبوارِ دُرٍ⁽¹⁾

(المنسرح)

إن مثل هذه النماذج الواردة في الهجاء الفاحش، تدل على مجتمع أخذ يطغى فيه كثير من الصفات المبتذلة، والأخلاق المنحلة، نتيجة لهذا التفكك والانحلال أو التفسخ، كان شعراء الهجاء صريحين جدا في أبياتهم، وكانوا لا يتورعون عن البذاءة والفحش قولاً وتصويراً.

وبعد هذا التجول في ربوع الهجاء الشخصي، نرى أنه لم يكن من الشمول ليلف بردائه كل العيوب الذاتية عند الأفراد. ومن هنا نجد أن بعض الشعراء قد هجوا بالسكوت عن مهجويهم، لأنه لا عيوب لهم، وهذا بحد ذاته هجاء لهم. فالسكوت عن ذكرهم هو قمة الهجاء الشخصي لهم. وهكذا فالهجاء الشخصي بألوانه كافة، مهما تفاوتت في الكثافة والصفاء والتركيز، يصور لنا العلة والمعاناة في نفس الشاعر. ويعبر عن سلبيات روح الفرد ونفسيته، والتي نشأت معه منذ أن جبلت طبيئته، وتكونت هيئته، فصار منها إنساناً يدرج في الحياة بين خطين متوازيين من الخير والشر، فيتأرجح تارة نحو الأول، وتارة نحو الآخر.⁽²⁾

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج6. ص116.

⁽²⁾ نافع، عبد الله: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي. ص: 120.

المبحث السادس: المدح

اتَّبَعَ شعراء الأندلس في مدائحهم المشاركة، فحافظوا على الأسلوب القديم وعملوا بالاستسهال وحسن التخلص وأحكام البناء، والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم، وربما جعلوا صورها وصفا للخمرة، أو للطبيعة. وإذا شدَّ بعضهم عن هذا السبيل، فاستهَلَّ بالمدح من غير توطئه عابوا عليه ذلك.⁽¹⁾

والدارس للمدائح الأندلسية يرى أنَّ معظمها موجّه إلى الأمراء والملوك، وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان: جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحهم، وهذه لا تخرج عادةً عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والشجاعة وما أشبه. أمَّا الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تُعدّ نصراً للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية.⁽²⁾

(وأكثر ما تقال المدائح في مناسبات هامة، كالبيعة، أو إنجاب أطفال للأسرة المالكة، أو شفاء الخليفة من علة أصابته)⁽³⁾. وحرص الملوك على إرضاء الشعراء واستمالتهم إلى جانبهم، وهناك الكثير منهم في كل زمن، ولكنّ النوابع قليلون، وهؤلاء هم هدف الملوك وبغيتهم. ولعلَّ أسباب هذا الحرص من الملوك غير خاف علينا، فالشاعر يُعتبر بمثابة السفير لبلاده، ويمثّل السلطة السياسية فيها، ولهذا نرى أن بعضهم شغل مناصب مهمة في الدولة، كالوزير الشاعر ابن زمرك وشيخه لسان الدين بن الخطيب، فهذان لهما أثر واضح في دولة بني الأحمر وسياستها الداخلية والخارجية. ونتج عن ذلك أن لازم هؤلاء ملوكهم طول سنوات حكمهم، وهذا ما نجده عند ابن زمرك الذي لزم السلطان الغني بالله ما يقرب من ثلاثين عاما، استطاع من خلالها أن يتدخل في رسم سياسة الدولة آنذاك. ومقابل هذا، حرص هؤلاء الشعراء على إرضاء ملوكهم من أجل تحقيق مآربهم الذاتية، ولا يتأتى هذا الأمر إلا من خلال مدحهم وإظهارهم بأنهم ملوك وُجدوا من أجل أن يشغلوا هذا المنصب، والمتتبع لأشعارهم يجدها في معظمها جاءت في

⁽¹⁾ البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإبيعات. ص: 40-41. يُنظر: الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 114.

⁽²⁾ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 185.

⁽³⁾ طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 17.

هذا الباب، وظهر هذا المعنى واضحاً في أشعارهم، وهو ما نجده عند ابن زمرك في مدحه للسلطان الغني بالله، من خلال إشارته بأنه قد ورث الملك عن آبائه وأجداده، ويقصد من ذلك قضية الأحقية بالملك . يقول :

يابنّ الملوك وأبناء الملوك إذا تدعو الملوك إلى طوع تلبّيها
أبناء نصرٍ ملوكٍ عزّ نصرهم وأوسعوا الخلق تتويها وترفيها⁽¹⁾

(البيسط)

وحاول الشعراء في مدحهم بيان أثر هؤلاء في نصره الإسلام، فهم حماة الدين وحملته لوائه، وهذا ليس غريباً عليهم، فهم من سلالة الأنصار الذين آزرُوا ونصروا الرسول (صلى الله عليه وسلم). وأجدادهم من الأنصار هم الذين ثبتوا يوم بدر، يقول عبد الله بن محمد بن جرّي في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف الأول :

ومن كبني نصر جلاله منصبٍ بهم نصر الرحمن دين الهدى نصرا
سلالة أنصار النبي محمدٍ فسلّ أحداً ينيك عنهم وسلّ بدر⁽²⁾

(الطويل)

ومن هذا ما جاء في شعر علي بن أحمد الخشني في مدحه لملوك بني الأحمر، في زمن أبي الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل، فالصور تتكرر وتدور حول نصره الإسلام منذ بداية الدعوة، فهم أصحاب السقيفة وبدر. يقول:

أنتم بني نصر نصرتم ملّة الإسلام أضفت على إسرائه زلزالها
أحرزتم وقت السقيفة عودها دون الأنام وقودها وسكالها
بدرٌ وما بدرٌ وردم قلبها وبجنادل الطاغوت تملأ حالها⁽³⁾

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص 123. ينظر: المقرّي، شهاب الدين حمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ح: 2 ص 24-25.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 302.

(3) المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 9. ص: 42. ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة.

ج: 4. ص: 152-153.

(الكامل)

ودخل مدح الملوك في باب الاستجداء من أجل الحصول على كرمهم وهباتهم، ولهذا نرى كثيرا من الأشعار المدحية بدأت بوصف كرمهم الذي لا يعرف حدودا، فهو لا يتوقف، ويعطي قبل أن يسأل. يقول أبو الحسن علي بن الجياب :

إِنْ تَلَقَّاهُ فِي يَوْمِ بَدَلِ هِبَاتِهِ تَلَقَّى الْغَمَائِمَ أُرْسَلَتْ هَطَّالِهَا
الواهبُ الْآلَافِ قَبْلَ سَوْأِهَا فَكَفَى الْعُقَاةَ سَوْأِهَا وَمَطَالِهَا
إِنْ قَلْتَ بَحْرًا كَفَّهُ قَصْرَتَ إِذِ شَبَّهَتْ بِالْمَلْحِ الْأَجَاجِ نَوَالِهَا
وسقى البرية فيض كفيه فقد عمَّ البلاد سهولها وجبالها⁽¹⁾

(الكامل)

وجاءت الإشادة ببطولات ملوكهم وسيلة خرجوا من خلالها إلى هذا باب. يقول يحيى بن هذيل في مدح السلطان أبي الوليد بن نصر عند قدومه من فتح (أشكر) وهي من أعمال بسطة:

بحيثُ البنودُ الحمرُ والأسدُ الورْدُ كتائبُ، سكانُ السماء لها جنْدُ
وتحتَ لواءِ النصرِ ملكٌ هو الوري تضيقُ به الدنيا إذا راح أو يغدو
تأمَّنتِ الأرواحُ في ظلِّ بندِهِ كأنَّ جناحَ الروحِ من فوقه تَبْدُ⁽²⁾
فلو رام إدراكَ النجومِ لنالها ولو همَّ لانتقادت له السُّدُ والهنْدُ⁽³⁾

(الطويل)

وإذا كان الغرض من المدح هو بيان فضل الممدوح، وإعطائه صفة التميز عن الآخرين، فإن هذا لا يتحقق كلياً إلا من خلال المناسبات التي يجتمع فيها عامة الناس، ونخص بها الأعياد، فالهدف إعلامي صرف، ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في مدحه للأمير ابن الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل، وذلك في عيد عام سبعة وأربعين وسبعمئة. يقول:

(1) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج: 6: ص: 362. ج: 6. ص: 116.

(2) الرَّوح: جبريل عليه السلام.

(3) المقرئ، أحمد بن محمد: المصدر السابق، ج: 7: ص: 35.

سُعُودُكَ لَا مَا تَدَّعَىٰ بِهِ الْكَوَاكِبُ وَجُودُكَ فِينَا لَا السَّحَابُ السَّوَاكِبُ
يَغصُّ الغَمَامُ الجَوْنَ يَوْمَ انْكَابِهِ إِذَا صَدَّرْتَ عَن رَاحَتِكَ المَوَاهِبِ
فَتَهْدِي بِكَ الأَمْدَاحَ قَصْدَ صَوَابِهَا إِذَا أَعَوَزْتَهَا فِي سِوَاكَ المَذَاهِبِ
سَمَا بِكَ فِي الأَنْصَارِ بَيْتٌ سَمَا بِهِ إِلَى ذُرُوءِ البَيْتِ الرِّفِيعِ المُنَاسِبِ⁽¹⁾

(الطويل)

وإلى جانب مدح الملوك نرى مدح وزرائهم، فالشعراء يحرصون على الوصول إلى أصحاب النفوذ والمال، ولهذا نرى العديد من القصائد المدحية في وزراء شغلوا مناصب مهمة في الدولة، ومنهم ذوو الوزارتين محمد بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي، المعروف بابن الحكيم، والوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير ابن زمرك. ولو أمعنا النظر في أشعارهم لوجدناها تذكر الكرم في جملتها، فيبدأ الشاعر بذكر محاسن ممدوحة وتمجيد مقامه العالي .

يقول يوسف بن علي الطرطوشي، ويكنى بأبي الحجاج، في مدح ابن الحكيم :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الأَعْلَى الَّذِي يَدُهُ حَازَتْ نَدَى السُّحُبِ مَسْكُوباً بِمَسْكُوبِ
فَلَوْ سَأَلْنَا بِلَادَ اللَّهِ عَن كَرَمِ فِيهَا لَكَفَّيْهِ والأَنْوَاءِ مَنَسْـُـوبِ
لَقُلْنَا: إِنْ كَانَ جُودٌ لَا يُضَافُ لَذِي الوزارتين فجوّدٌ غير محسـُـوب⁽²⁾

(البيسط)

وتعددت الأشعار في مدح الوزراء ولكنها لا تخرج في جوهرها عن هدف واحد، وهو إرضاء الممدوح من خلال إظهار مكانته أو صفاته التي جعلته يتقلد هذا المنصب، فهو أهل له لما تميز به من الكرم والشجاعة والخبرة السياسية، يقول لسان الدين بن الخطيب في مدح الوزير عمر بن عبد الله بن سعيد الياباني الذي كان وزيراً للسلطان أبي سالم:

إِلَى الغَيْثِ الَّذِي إِنْ شَحَّ غَيْثٌ فَمَنْ يَمْنَاهُ يَنْدَفِقُ اندِفَاقاً
إِلَى اللَيْثِ الَّذِي رَاعِ الأَعَادِي وَامَّنْ رَفْقُ سَيْرَتِهِ الرَّفَاقاً

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 120.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 365-366.

إلى حَبْر السياسة لا يُجَارَى ولا يبغى معارضُهُ اللِّحَاقاً⁽¹⁾

(الوافر)

ومن هذا ما جاء عند القاضي عبد الله بن خديم اللخمي الغرناطي في مدحه للوزير لسان الدين بن الخطيب، وحملت أشعاره المعاني ذاتها فلم يختلف في مدحه عن سابقه يقول:

أيا سيدي الأعلى وشمس هدايتي ووجهة تعظيمي وروضة إيناسي
لساني نبا عن شكر آلائك التي توالى فآلت أن تُقيد أنفاسي
ومن لي بمدح في معاليك منصفٍ وقد جلَّ مدُّ البحر عن قسط قسطاس⁽²⁾

(الطويل)

وإلى جانب هذا النوع من المدائح انتشرت المدائح النبوية، وساعد على ذلك طبيعة نظام الحكم الذي ساد مملكة بني الأحمر، فالحرص الذي أبداه هؤلاء في المحافظة على المظاهر الدينية بوصفهم حماة لهذا الدين، جعلهم يحرصون على إحيائها في أكثر من مناسبة دينية. وكان يحتفل بهذه الذكرى ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام. فيجلس الملوك كالغني بالله في صدر الإيوان، ويتجمع حولهم عليّة القوم و الشعراء الذين نظموا قصائدهم المولدية لإلقائها في البلاط.⁽³⁾

وأظهر الشعراء في قصائدهم كثيراً من المعاني التي تدل على صدق العاطفة نحو الرسول. ولسان حالهم يقول: إنهم عاجزون عن الإتيان بكلام يليق بمقام رسول الله العظيم، فمن من البشر يستطيع أن يلمَّ بصفاته . يقول الخطيب محمد بن أحمد بن جزي الكلبى :

أروم امتداح المصطفى فيصْدُنِي قصوري عن إدراك تلك المناقب
ومن لي بحصير البحر والبحر زاخراً ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 707.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه الأندلس من شعراء المئة الثامنة . ص: 144.

⁽³⁾ الحمصي، أحمد: ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه. ص: 132.

ولو أن أعضائي غدت ألسناً إذاً لما بلغت في المدح بعض مآربي⁽¹⁾

(الطويل)

فهذا الشاعر يعجز عن الإلمام بمناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهي كثيرة عدد الحصى والكواكب، ولهذا وقف عاجزاً عن مدحه، وهذا في حد ذاته يُعبرُ عن غاية عظمى في توقيير الرسول الكريم، وذهب بعضهم إلى مدحه من خلال بيان المصاعب التي واجهته في بداية دعوته، فقد لاقى الكثير من الأذى، ولكنه ظل صابراً ومعتصماً بدين الله. وغالبا ما كانت هذه القصائد تنتهي بالحمد والصلاة على الرسول. يقول ابن الخطيب :

يا خيرَ من خلصتُ لله نبيتهُ في الملكِ أو خطبَ العلياءَ خاطبهُ
صبرتَ نفساً لعقبي الصبرَ حامدةً والصبرُ منذ كان محموداً عواقبهُ
ثم الصلاة على خير البرية ما سادات إليه بمشتاق ركائبه⁽²⁾

(البيسط)

ومنهم من أظهر أثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هداية الناس وإخراجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، فهو نور تستضاء به الأكوان. يقول ابن خاتمة الأنصاري :

حمى حمى الحق إرغاماً لمبطله فالشرك في مآتم والدين في عرس
نوراً لمقتبسٍ ، جرزاً لمحترسٍ يُمنُّ لمنتكسٍ ، نُعمى لمبتس⁽³⁾

(البيسط)

واختلط المديح بغيره من الأغراض ، فلم تر شاعرا بدأ به دون أن يصدره بغرض آخر كالنسيب أو وصف الطبيعة، وكأنها سنة استنتها الشعراء في مدائحهم، وممن صدروا قصائدهم بالنسيب محمد بن سعيد بن جزى الكلبى في مدحه للأمير يوسف بن إسماعيل حيث يقول:

خرجنَ ولم يتقينَ القصاصا وأوتقنَ ثم منعنَ الخلاصا

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكنية الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المه الثامنة: ص: 48.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 386.

(3) ابن خاتمة، أحمد بن علي: الديوان: ص: 34.

أخذنَ على أنفُسِ العاشقين مضايق لم تُلْفُ عنها مناصا
لقد جمعَ اللهُ في يوسفَ مكارم لم يخسَ منها انتقاصا
كريمٌ يعدُّ شِراءَ الثَّناء بما ملكته يده ارتخا⁽¹⁾

(المتقارب)

وأكثر الشعراء المشاركة من استخدام المقدمات الغزلية في أشعارهم، فهو تقليد ساروا عليه في معظم أغراضهم.⁽²⁾ وقد تأثر الأندلسيون بإخوانهم من المشاركة، ولكن المقدمة الغزلية لم ترق في درجة استخدامها إلى المستوى الذي حدث في مقدماتهم التي تناولت وصف الطبيعة.

ومنهم من استهلَّ مديحه بوصف الرياض، يقول ابن زمرك في مدحه للغني بالله:

هَبَّ النسيمُ على الرياضِ مع السحرِ فاستيقظت في الدوحِ أجفانُ الزهرِ
نثرَ الأزهارِ بعد ما نظم الندى ياحسن ما نظم النسيم وما نذر
يا فخرَ أندلس وعصمة أهلها للناس سرٌّ في اختصاصك قد ظهر⁽³⁾

(الكامل)

فالشاعر بدأ أبياته بوصف للطبيعة، فذكر الرياض الجميلة، والنسمات الخفيفة التي تبعث في النفس السكينة. وأثناء مطالعتنا لهذه القصائد، نشعر أننا أمام قصيدة تصف الطبيعة، ولكنه لا يلبث قليلاً حتى ينطلق لغرضه الأساسي وهو مدح السلطان. وهذا الترابط نجده ظاهراً في معظم الأغراض الشعرية.

والمدح في الشعر العربي كان مرتبطاً بعوامل اجتماعية وسياسية وهذا ما وجدناه في عصر بني الأحمر، فالمدائح كانت في أكثرها سياسية تدور بين الشعراء والملوك تارة، والشعراء كونهم وزراء ورجال سياسة وغيرهم تارة أخرى، ولو أمعنا النظر في المدح النبوي، فإننا نجد بين ثناياه ما يدل على أن الغرض منه إضافةً إلى مدح الرسول، هو مدح ملوك بني

⁽¹⁾ ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف: نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. ص: 298.

⁽²⁾ فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من أمرىء القيس إلى ابن أبي ربيعة. ط: 4. بيروت: دار القلم للملايين. 1959. ص: 23.

⁽³⁾ ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 40-41.

الأحمر من خلال بيان، وهذا يذكرنا بأشعار الكميت بن زيد في سعيه لإثبات أن الخلافة يجب أن تكون بالهاشميين، أما الناحية الاجتماعية فكان الغرض منها هو الاستجداء من أجل الحصول على هبة من ملك أو والٍ أو وزير، من خلال التقرب إليه وظلّ جوهر المدح في هذا الجانب واحدا بين مختلف الشعراء.

المبحث السابع: الغزل

كان كل شيء في بيئة الأندلس الجميلة يغري بالحب ويدعو إلى الغزل. ومن ثم لم يكن أمام القلوب الشاعرة إلا أن تتقاد لعواطفها، فأحبت وتغزلت، ثم خلّفت وراءها فيضاً من شعر الغزل الرائع الجميل. وأوضح سمات هذا الشعر تتجلى في رِقته وعذوبته الناشئة من التفنن في وصف محاسن من يقع في عيون الشعراء من النساء الجميلات، وفي تصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههنّ. وكان المتوقّع أن ينفعل الشاعر الأندلسي بمؤثرات البيئة الجديدة، فيبدّل من نظرته إلى المرأه، ومن مفهومه لقيم الجمال فيها، ولكن هذا لم يحدث، وظل الغزل الأندلسي مقلداً للمشرق.⁽¹⁾

وحافظ الشعراء على الصور التقليدية التي تدور بين المحبين، والتي تتراوح بين القسوة واللين، والوصل والهجران، والشكوى والعتاب، والدموع والبكاء. وجاء هذا اللون من الشعر حسياً بعيداً عن تصوير خلجات النفس حتى وصل درجة المجون الفاحش.⁽²⁾

كما أن انتشار أسواق النخاسة التي يباع فيها الجوّاري والغلمان، قد شجعت على انتشار الحياة اللاهية التي وجد فيها هذا الشعر مرتعاً سهلاً،⁽³⁾ وتراوحت مواقفهم بالنسبة للتجربة الشعورية بين إتجاهين: إتجاه أخذ الغزل لهواً وممتعاً، واتجاه تغزل تعبداً بالجمال.

واتخذوا من العفاف حائلاً يحول بينهم وبين الغواية، واعتمدوا على الأوصاف المادية في ذكر أحبّتهم، كما اعتمد عليها المشرقيون، فوصفوا الشعر والعينين، والخد والثغر، والقامة وسواها، وحلّوها بالتشابه الطبيعي المألوفة.⁽⁴⁾ وانتشر الحب اللاهية بين أبناء الطبقة الحاكمة، فانصرفوا إلى الإتجاه الحسيّ الذي يتعدى معشوقة واحدة، واتخذوا المرأة وسيلة للتسلية وملء

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 169.

(2) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعث. ص: 70. ينظر: جوميث، اميليو: الشعر الأندلسي. ت: حسين مؤنس. ط2. دار الرشيد. القاهرة. 2005.

(3) الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ص: 121. ينظر أبو الخشب، ابراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص 206.

(4) البستاني، بطرس: أدباء العصر في الأندلس وعصر الإنبعث. ص: 70. ينظر: طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 39.

الفراغ. وإذا ما نظرنا إلى أصحاب هذا الإتجاه، وجدنا أنّ الملوك هم أكثر من سار فيه.⁽¹⁾ فهم من عاش بين أحضان الجوّاري داخل أروقة القصور، فعاشوا حياة لاهية نلمسها من خلال أشعارهم فهم يشكون بعد الحبيب وهجره لهم. يقول محمد بن محمد بن نصر:

واعدني وعداً وقد أخلفا أقل شيء في المليح الوفا
وحال عن عهدي ولم يرعه ما ضرّة لو أنه أنصفا⁽²⁾

(السريع)

فالحاكم الأندلسي قد جرب مرارة الحب في الشعر وليس في الواقع، لأنّه متى خرج إلى دار الحرب، كان في وداعه غير امرأة حرة وغير جارية. وهذا لا يعني أنّ الملك الشاعر لم يكن ينظم شعراً حسناً فيه حلاوة الكلمة وجمال الإيقاع.⁽³⁾ يقول الملك يوسف الثالث:

أشكو إليك ولا أشكو إلى أحد يا من عليها من الأقوام معتمدي
إلى التي تركت نفسي مؤلّهة حيرى عليها بلا صبرٍ ولا جلد
يا بغية الصبِّ والهجران أتلفه رحماك في قلبي وفي كبدي⁽⁴⁾

(البسيط)

ويعن الشاعر في غزله الفاحش، فهو لا يتورع أن يذكر لنا على وجه من التفصيل ما كان يجري بينهما أثناء وصالهما من عناق وتبادل للقبل. وأثناء ذلك لا ينسى أن ينظر إلى جسدها فيتحسس مواطن الجمال فيه، يقول:

قلله ذاك القدُّ وهو مهفهفٌ والله ذاك الثغر وهو مؤشـرٌ
فقبّلتُ ما بين السوالفِ والطلّى وعانقتُ منها الغصنَ فينانَ أخضر

(1) طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1 ص: 317.

(3) طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 40.

(4) يوسف الثالث: الديوان. ص: 177.

ونزّهتُ طرفي في محاسن وجنةٍ أرنتي ما قـد قيل عدنّ وكوثر⁽¹⁾

(الطويل)

وإذا ما نظرنا إلى غيره من الملوك، نجد أنهم لم يتركوا ذلك الأثر الواضح في ميدان هذا الشعر، فلم يبرز منهم سوى محمد بن محمد بن يوسف بن نصر وهو ثالث ملوكهم، وكان شعره مستطرفاً. أمّا ثاني ملوكهم وهو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، فشعره منحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء.⁽²⁾

أما شعراء الطبقات الأخرى، فقد عكسوا حقيقة ما كانوا يعانون من مشاعر وأحاسيس تعكس حالة الشكوى من فراق وهجران المحبوب. وتعد ظاهرة البكاء والدموع من الظواهر التي سادت أشعارهم، فهي تعبر عن شدة الشوق للحبيب. وقد نظروا إلى الدموع بأنها تخفف من آلامهم، فهي غسيل للقلوب مما أصابها من لوعة البعد عنه. يقول ابن جزي الكلبي:

متى يتلاقى شائقٌ ومشقوقٌ ويصبح عاني الحبّ وهو طليق
بكيتُ أسي حتى بكى حاسدي معي كأنّ عذولي عادٍ وهو صديق
أيا عينُ كفيّ الدمع ما بقي الكرى إذا منعوكِ النوم سوف تذوق⁽³⁾

(الطويل)

وحاولوا أن يكتموا حبهـم على الناس، وأن يبقوه سرا، وقد حرصوا كثيرا على هذا، ولكن الدموع خرجت من عيونهم رغما عنهم. فلم يستطيعوا كتمانها. يقول ابن الخطيب:

يا غزالا وردهُ في أدمعي كلما شاء، ومرعاهُ الحشا
قد فشا فيك هيامي في الوري وهو لولا دمعُ عيني ما فشا
ولكم آثرتُ كتمانَ الهوى غير أنّ الدّمع بالسرّ وشي⁽⁴⁾

(الرملي)

(1) يوسف الثالث: الديوان. ص: 58.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: اللوحة البدرية في الدولة النصرية.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 164-165.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 739-740.

وقد وصلت حالة الشعراء بسبب بعدهم عن هذا الحبيب، أن تذللوا إليه راجين منه العودة إليهم، ولكنه يتعد عنهم مستهزئاً غير آبه بمشاعرهم. يقول أحمد بن قطبة الدوسي:

كم قلت للبدر المنير إذا بدا هيهات وجه فلانة تحكي لنا
فأجابني بلسان حال واعتنى لا بالشمس تحكيها فأحكيها أنا
وصرفت وجهي نحو غصن أمد قد رام يشبه قدّها لما انتنى
فضحكت هزءاً عند هزّ قوامها إذا رام أن يحكي قواماً كالقنا⁽¹⁾

(الكامل)

وكثيراً ما كانوا يظهرون قوتهم أمام المحبوب، فيبينون له بأنّ ضعفهم لا يكون إلا أمامه، ولكنهم أمام أعدائهم لا يعرفون إلا السيف والدماء. وكلّ الناس يخافون صولتهم. يقول محمد بن محمد بن يوسف بن نصر وهو ثالث ملوكهم:

مَلِكُكَ الْقَلْبَ وَإِنِّي امْرُؤٌ عَلِيٌّ مَلِكُ الْأَرْضِ قَدْ وَقَفَا
أوامري في الناس مسموعةٌ وليس مني في الورى أشرفاً⁽²⁾

(السريع)

وتكررت عندهم صور ومعانٍ تدور حول محاسن المرأة، ومن ذلك وصفهم للعيون التي تدل على جمال صارخ، وشبهوها بعيون الأطباء وهي تلقي بسهام نظراتها فتصيب كل من ينظر إليها. يقول محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل:

أيا لبني الرِّفَاء تنضي ظباؤهم جفون ظباهم والفؤاد كليم
لقد قطع الأحشاء منهم مهفهفٌ له التبرّ خدٌّ واللجين أديم
يسدّد إذ يرمي قسيّ حواجبٍ وأسهمها من مقلتيه تسوم⁽³⁾

(الطويل)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 160-161.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 317. ينظر ابن الخطيب، لسان الدين: اللحة البدرية في الدولة النصرية. ص: 177.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق. ج: 2. ص: 262.

وهذه الصور قديمة استخدمها الشعراء في الأعصر السابقة وهذا يدلُّ على تأثر شعراء الأندلس بالمشرق العربي. فوصف الخدود كان معروفاً عندهم.⁽¹⁾

وأكثرُوا من تصوير النساء بالبدر والشمس، يقول محمد بن إبراهيم المعافري:

بَهَرَت كشمس في غلالة عسجد وكبدر تمَّ في قضيب زبرجد
ثم انتنت كالغصن هزته الصبا طرباً فتزري بالغصون الميِّد
حوراء بارعة الجمالِ غريرةٌ تزهى فتزري بالقضيب الأملد⁽²⁾

(الكامل)

وظلَّ شعراء الأندلس يستعملون معاني المشاركة في تصوير جمال المرأة. فشبهوا الأنامل بالسوسن لشدة بياضها، والعينان بالنرجس، والوجه بالبدر والريق بالخمير، ووصفوا مبسمها باللؤلؤ لشدة بياضه. وإذا وُصف جيدها فإنه أكثر جمالا من جياذ الأطباء، وإذا نظر إلى محياها رآه يخجلُ شمس الصباح. يقول الملك يوسف الثالث:

وإذا هي ابتسمت يروقك مبسم يزري بعقد اللؤلؤ المنضود
إن قلتُ جيداً غزاةً مرتاعةً مَنْ للطباء بحسن ذلك الجيد
أو قلتُ شمساً قد تورَّدَ صبغها مَنْ للشموسِ بذلك التوريد⁽³⁾

(الكامل)

وقد ساعد على تطور الغزل الإباحي عوامل عدة: أهمها تحسُّن الظروف الاقتصادية، وثرأ الطبقة الأرستقراطية، وظهور طبقة الجوّاري، وجمال الطبيعة. ولعبت مجالس اللهو والشراب دوراً في تطوره. وكلّ ما سبق من شأنه أن يرفع من مستوى الحياة الاجتماعية، ويبعث الشعراء على الحب والغزل. ولا يغبين عن بال أحد أن تغزّل الشعراء الأرستقراطيين

⁽¹⁾ الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي. بيروت: دار القلم. 1961. ص: 50.

⁽²⁾ المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 7. ص: 363.

ينظر بن الخطيب، لسان الدين: الإطاحة في أخبار غرناطة. ج: ح. ص: 227.

⁽³⁾ كنون، عبد الله: ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث. ص: 36.

ينظر: طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 49.

بنات الأسرة الحاكمة كان محظورا، ولا سيما في فترتي الإمارة والخلافة، حيث لم يجرؤ عليه إلا القليلون، لأنَّ العاقبة كانت القتل في معظم الأحيان. لذا اتَّجه الشعراء للتغزل بالجارية كحقيقة أو رمز وإيحاء، وكانت المرأة الشقراء في مثل هذه الحال، تحتل مكانا في شعر الغزل. وإذا لم يكن شعراء عصر الدولة الأموية يصرِّحون باسم النساء المعشوقات، فإنَّهم صرَّحوا بأسمائهن في بقية العصور، وأصبح التصريح بأسمائهن ظاهرة منتشرة في شعر الغزل.⁽¹⁾

يقول ابن خاتمة الأنصاري في حبيبته أم العزيز واصفاً معانقته وتقبيله إياها:

أقبل العيدُ فابتدرتُ مهلا نحو أم العزيز أبغي احتسابا
عانقتني وقبَّلتني وقالتُ: قدَّس الله من خطاك ترايا⁽²⁾

(الخفيف)

وعرفوا الغزل العفيف، وهو غزل سام بعيد عن شهوات النفس . وقد يختلف عن الغزل العذري اختلافا بسيطا، إذ يتقلب الشاعر في عواطفه. فمرة نراه نزيها لا يتعشق غير واحدة، ومرة نراه يوزع أحاسيسه على غير امرأة. وتأبى العذرية أن يكون العاشق أزواجياً في حبِّه، بل تفرض عليه أن يظلَّ مخلصا لحبيب واحد . والأندلس لم تعرف العذرية طيلة عصورها، وإنما عرفت العفاف. وقد ساعد على نشوء هذا اللون من الشعر احتفاظ قائله بالبدائة، أو بسبب ابتعادهم عن الجوارى، أو لإنغلاق سبل اللهو أمامهم، وتصبح الفتاه ممثلاً حبيبها الأعلى، فيشتد ولعه بها، ويصل إلى درجة المرض المضني، أو الهلاك دون أن يقوى على الفراق.⁽³⁾

وعرِّف عن ابن زمرك اتخاذه محبوبات كثيرات، وهن وهميات بالطبع، نذكر منهن:

ليلي ولمياء وأسماء وأم مالك يقول:

فهل عند ليلي نعمَ الله ليلها بأن جفوني ما تلمُّ من السهد⁽⁴⁾

(الطويل)

(1) طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 46.

(2) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد بن علي: الديوان. ص: 105.

(3) طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 54-55.

(4) ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 31.

وله في الغزل العفيف ما يدلّ على ورعه عن فحش القول، ويرى أنّ الحب يجب أن
يمثل علاقة سامية، فيرخصُ من أجلها كلُّ غال، وأنه قادر على وصال المحبوبة، ولكنّ عفاقه
يجعله مترفعاً عن ذلك بقول:

ألا في سبيلِ اللهِ نفسِ نفيسةً يرخصُ منها الحبُّ ما كان غالياً
خلوتُ بمن أهواهُ من غيرِ رقيةٍ ولكنّ عفاقي لم أكن عنه خالياً⁽¹⁾

(الطويل)

ونلاحظ نغمة الحزن واضحة في هذا الإتجاه من الغزل، ويعود هذا إلى صدق العاطفة
عندهم، فهم يجهدون أنفسهم في وصل الحبيب وإظهار حرصهم عليه. وكان لنظام الحكم الملكي
بالغ الأثر في نشوء الطبقيّة في المجتمع. وقد عاشت الطبقة الحاكمة حياة لاهية يسودها الترف
والبذخ، ويدعمها في هذا نفوذها السياسي، وحرص أصحابها على المحافظه على هذه الحياة،
فبنوا القصور والمنتزهات التي غصت بالجواري والغلمان، وكان نتيجة لهذا أن أصبح التعلق
بهؤلاء أمراً معروفاً عندهم، ونشأ ما يعرف بغزل الذكر أو غزل الغلمان، وهو يعبر عن حب
للجنس الذكري، ولابن زمرك مداعبات في غلام له، وجعله مرمى غزله ونسيبه حيث يقول:

يا فرجاً عللتُ نفسي به والفال محبوب لتعليه
حرمت إجليك هذا على نفسي وأفتيت بتجليه⁽²⁾

(السريع)

وكذلك كان الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن جزي الكلبي مشغولاً بغلام وسيم، ابيضاً
شعرُ رأسه، وظل يعاكسه دون أن يستجيب لرغباته، حتى قال فيه:

لما التحى من كنت أشقى بنوره وأصبح مثلي سيء الظن والبال
وقفتُ عليه كالمضلل منشداً ألا عمّ صباحاً أيها الطّالُّ البالي

⁽¹⁾ ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 138.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2، ص: 66.

⁽²⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 101.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 283.

وقلتُ أجز يا خدّه فأجازني وهل يعمن من كان في العصر الخالي⁽¹⁾

(الطويل)

ويظهر تأثر ابن جزى بامرئ القيس واضحاً، فقد عارض في أبياته هذه لاميته التي مطلعها:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي⁽²⁾

(السريع)

وسماه بسلمى في أشعاره، ليلم بإخفائه في أشعاره.

ونجد أن عادة التغزل بالغلّمان كانت ظاهرة اجتماعية متفشية في المجتمع الأندلسي، وأسرفوا في تصويرها، حتى هؤلاء الذين ترتبط أسماؤهم بسمات من الوفار قد تورطوا في إنشاء الغزل بالغلّمان، وأصبحت هذه العادة الغريبة جزءاً من كيان المجتمع آنذاك.⁽³⁾

ودخل هذا الغزل الشاذ الأندلس مثل بقية الأشعار الأخرى، ضمن الدواوين الكثيرة التي دخلت الأندلس، وبخاصة ديوان أبي نواس وأشعار المجان الآخرين الذين كانت بغداد تعجّ بهم.⁽⁴⁾

وامتاز الغزل، بقسميه الأنثوي والغلّامي، باستقلاليته في قصائد كاملة ومقطوعات خالصة لم تخرج عنه إلى موضوعات أخرى، إضافة إلى وروده في مقدمات القصائد، ولا سيما المديح منها. ومنهم من بدأ قصيدته الغزلية بوصف للطبيعة، يقول ابن خاتمة الأنصاري:

حيّا الربيع بنرجس وبهار

فاردد تحيته بكأس عقار

والأرض قد لبست مطارف نبتها

وتوشحت بصوارم الأنهار⁽⁵⁾

(الكامل)

(1) ابن الأحمر، اسماعيل: نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان. ص: 294.

ينظر: طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص: 60.

(2) امرؤ القيس: الديوان. شرح حسن السنديوي. ط: 5. القاهرة: مطبعة الاستقامة. ص: 158.

(3) الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 54.

(4) محمد، سعيد: الشعر في قرطبة، أبو ظبي: الجمع الثقافي. 2003. ص: 325.

(5) ابن خاتمة الأنصاري. الديوان. ص: 76.

المبحث الثامن: الخمریات

كانت الخمریات من أكثر الفنون الشعرية ذیوعا بین شعراء الأندلس، مخالفین ذلك التحريم الديني للخمر، بيد أن ما كان يشربونه لم يكن كله من العنب، بل عرفوا صنوفا أخرى من العصير كان شربها حلالا بشروط، أو لم ينته الناس في أمرها إلى رأي، وكانت عادة الشاربين أن يجتمعوا على الكؤوس في الصباح (الصباح)، أو في المساء (الغبوق)، وكانوا يُبرّدون الخمر ويمزجونها بالماء. وأغلب ما يكون اجتماعهم للشرب في قاعة واسعة، أو في رحبة الدار أو في موضع من مواضع اللهو في الرياض.⁽¹⁾

وتراجعت الخمریات في نهاية عصر الموحدين بعد سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي الإسبان، وبدأت شمسها بالأقول ليحل محلها رثاء المدن، الذي فاضت عبقرية ناظميه، فأبدعوا أروع المراثي وأصدقها وقعا في النفوس. وفي عصر غرناطة، الذي اتسم بالرخاء والإزدهار الثقافي، بدأ هذا الفن يستعيد عافيته، وساعد على ذلك النهوض بالغناء الذي ذاع وفسا حتى في دكاكين الحاضرة غرناطة. وعرفت الأندلس في أيام السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله طائفة من أئمة الشعر الخمری أمثال: ابن الجياب، ويحيى بن هذيل، وابن خميس، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الخطيب وابن زمرك، وغيرهم. وفي أواخر هذا العهد، وبالتحديد في أواخر القرن الثامن، لم يسطع في سماء الشعر الخمری سوى ابن الأزرق الغرناطي.⁽²⁾

وتحدّثت موضوعات شعر الخمره حول عصرها، ووصف لونها وطعمها، وصفائها وبريقها، وطيب فعلها في النفوس ورفقتها، وقدمها وسكبها، ووصفوا آنيتها من كؤوس وأباريق وجرار، والمجالس وما يدور فيها من نديم وساق ومغن. والتغني بشربها في أحضان الطبيعة الفاتنة، والدعوات إلى استدامة السكر والحث على المجاهرة ومبادرة الذات، والشرب مع المسيحيين، وقصص المغامرات التي تجري في الحانات والأديرة. وبذلك يكون أهل الأندلس غير مقصرين

(1) جوميث، إميليو: الشعر الأندلسي. ص: 66.

(2) طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 67.

في خمرياتهم ، فيصرون مجتمعهم على مر عصوره، طارقين بذلك أغراض الشعر الخمري.(1)

وفيما يتعلق بمجالس الخمر، نشير أنها كانت تمثل مجتمع الأندلس خير تمثيل، فهي مرآة صادقة تعكس حياة الناس وطريقة عيَّشهم، وكان الشعراء يصفونها بدقة وإفتنان، فتبدو القيان وهي تغني، والغلمان وهي تدير الكؤوس على الشاربين. وكل هذا يجري في طبيعة حباها الله كل أسباب الجمال. وقد وصفوا الآلات التي كانت تعزف الألحان أثناء شربهم، وكأنهم يعيشون احتفالاً لا ينقطع. وأكثر خمرياتهم كانت تجري في جوف الليل حيث يسود الهدوء، وتصفو النفس، وهو ما صرح به ابن الخطيب في وصفه لمجالس الأندلس يقول:

أدرها بين مزمارٍ وعودٍ ودونكَ فاغتنم زمنَ السَّعودِ
وجنحُ الليلِ مطويُّ النَّواحي وضوءُ الفجرِ منشورُ البنودِ
وإن قام الغمامُ بها خطيباً ترى الإبريق يسرع في السجود⁽²⁾

(الوافر)

وكثيراً ما كانت هذه المجالس تجري في أحضان الطبيعة، ويبدو أن فريقاً من الشعراء كانوا يقيمونها وقت الصباح، حيث الشمس تسطع بأشعتها التي تصافح مياه الجداول والأنهار، والطيور تصدح بأجمل الألحان فوق أغصانها. وفي هذه الأثناء كانت المغنيات يطلقن أجمل الأغاني. يقول صالح بن يزيد بن شريف النفزي:

وغانية يُغني عن العودِ صوتُها وجارية تسقي وساقية تجري
بحيث يجرُّ النهرُ ذيلَ مجرَّة يرفُّ على حافاتها الزُّهر كالزُّهر⁽³⁾

(الطويل)

(1) طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 67.

ينظر: البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنعاش. ص: 74.

ينظر: غريب، جورج: شعراء اللهو والخمر، تاريخه وأعلامه. ط 1. بيروت، دار الثقافة 1966.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، 8: 1. ص، 282-283.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 283.

وانتشرت عادة زيارة حانات المسيحيين واليهود في الشعر الأندلسي، وهي عادة معروفة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ كان يقصدها شاربو الخمر، فينبهون الخمار ويبتاعون منه أفضل الخمر وأجودها.⁽¹⁾ يقول الفقيه محمد بن أحمد اللخمي الطرسوني واصفا ما جرى معهم عند دخولهم حانة أحد المسيحيين:

طرقنا ديورَ القوم وَهناً وتغليساً	وقد شرّفوا الناسوتَ إذ عبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيلَ فوق رؤوسهم	وقد قدّسوا الروحَ المقدّسَ تقديساً
فما استيقظوا إلا لصكّةٍ بأبهم	فأدهشت رهباناً وروّع قسيّسا
وقام بها البطريقُ يسعى ملبيّاً	وقد أصمّت الناقوسَ رفقاً وتأنيساً
فقلنا له: أمناً فإننا عصاياً	أتينا لتتليث وإن شئتَ تسديسا
وما قصدنا إلا الكؤوسَ وإنّما	لحنّا له في القول خُبناً وتديسا
ففتّحت الأبوابُ بالرحب منهم	وعرّس طلابُ المدامة تعريسا ⁽²⁾
فلما رأى زقي أمامي ومزهري	دعاني تأنياً لحنثٍ وتليسا
وقام إلى دنٍ ففضّ ختامه	فكبّس أجرام الغياهب تكبيساً ⁽³⁾

(الطويل)

وأشارت الأبيات إلى عادات أجزاها المسيحيون في شربهم، وهي التتابع في شرب الكؤوس، فإمّا أن تكون ثلاثة أو سبعة متتابعات، وهو ما عناه في قوله: (أتينا لتتليث وإن شئتَ تسديسا).⁽⁴⁾

وارتبطت زيارة الحوانيت عند العرب قديماً، بالترف والمال الوفير، فإن وجد المال شربوها في بيئات يغمرها الترف، وإن أعوزهم، عكفوا عليها في الريف، أو في خباء من شعر.⁽⁵⁾

(1) طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ص: 76.

(2) التعريس: النزول آخر الليل.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الكنيية الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 179.

(4) أورد صاحب النسخ هذه الأبيات على لسان يحيى بن هذيل. النسخ 7 / 37 - 38.

(5) حسنين، محمد: أساليب الصناعة من شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين. بيروت: دار النهضة العربية. 1972. ص: 37.

وتميزت خمريات الأندلس بالتهتك الصريح، وبالفسوق والاستهتار، وكانوا يسرفون في وصف مجالسها، وما يدور فيها من مجاذبات تحدث بينهم وبين النساء اللواتي يعملن في هذه الحانات، فهم يبيحون الحرام من أجل إرضاء ملذاتهم، يقول ابن الخطيب:

لا توقدِ المصــــباحَ وأعلم أن لي	من وجهٍ مَنْ أُحِبُّهُ مصــــباحا
حُتَّ الكؤوسَ وهاتنيها قهــــوةً	تنفي الهمومَ وتجلبُ الأفراحا
مِنْ كَفِّ فانتةِ اللّاحظِ غريــــرةٍ	سكرى الجفونِ، وما سُقِنَ الرّاحا
هي روضةٌ تجنيك، بيــــن لثاتها	خمرأً، ومــــن وجناتها تفّاحا
فإذا اعتقت أو ارتشفت فإنما	عانتقت غصنا وارتشفت أقاحا
وامزج بصرفِ الرّاحِ عذبَ رضابها	ما ضرَّ أن خَفَّ الحرامُ مباحا ⁽¹⁾

(الكامل)

وحاول الأندلسيون تقليد إخوانهم المشاركة في خمرياتهم، وجاء هذا في معظم صورهم التي نجدها واضحة في خمريات أبي نواس، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلحقوا بهم، فهذه الأبيات استطاع أبو نواس أن يجمل معانيها في بيت واحد حيث يقول:

تسقيكَ من يديها خمرأً ومن فمها خمرأً، فمالك من سكرين من بُدِّ⁽²⁾

(البسيط)

ويأتينا من خلال هذه المجالس وصف الساقى، فهو غلام جميل المنظر. ويبالغ ابن زمرك في وصف جماله، فهو أجمل من البدر. يقول:

في كفِّ شفاف تجسد نوره	من جوهر لألاء بهجته بهر
تهوى البدر كماله وتود أن	لو أوتيت منه المحاسن والغرر ⁽³⁾

(الكامل)

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين : الديوان . ج : 1 . ص : 222 .

⁽²⁾ أبو نواس: الديوان - الحمريات . ت: فوزي عطوي . بيروت: دار صعب . 1971 . ص: 16 .

⁽³⁾ ابن زمرك، محمد بن يوسف : الديوان . ص : 41 .

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامن. ص: 80 .

وساعدت طبيعة الأندلس وكثرة الكروم فيها على تنوع أنواعها وطريقة صنعها، فهي

تداس بالأرجل ليتم عصرها، ثم توضع لفترة حتى تفعل فعلها في العقول، يقول ابن الخطيب:

لا تعجبَنَّ لطالبِ نالِ العِلا كهلاً وأخْفِضَ في الزَّمانِ الأوَّل
فألخمر تحكَم في العقولِ مُسِنَّةً وتداس أول عصرها بالأرجل⁽¹⁾

(الكامل)

وتعددت ألوان الخمرة عندهم، وهذا جاء نتيجة لتنوع الكروم التي كانت تؤخذ منها،

وأشهرها الخمرة الحمراء ، فوصفوا رائحتها، فهي كالمسك ريحا، فقد أطل صانعوها وضعها في الجرار، فأصبح لونها قريبا من لون التبر. يقول أبو عبد الله محمد بن خميس:

كالمسكِ ريحاً واللّمي مطعماً والتَّبْر لونا والهوى في اعتدال
عَتَقَهَا في الدَّنِّ خَمَارُهَا والبِكرُ لا تعرف غيرَ الحِجال⁽²⁾

(السريع)

فمن أشهر المزايا التي وصفت بها الخمر قدمها وعتقها، وهي من الصفات التي أشار

إليها الشعر العربي قبل أبي نواس، فالخمر الأصيلة والكريمة عندهم، هي الخمر التي قدم العهد بها.⁽³⁾ وبالغ البعض في مدحها، فهي عندهم دواء يذهب الهم عن القلوب. يقول

ابن قطبة الدوسي:

يومنا يومُ سرورٍ فلنقم تصدّع الهمُّ بكاساتِ المُدام
إنما الدنيا منامٌ فلتنكن مغرماً فيها بأحلى المنام⁽⁴⁾

(الرمل)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان . ج : 2. ص : 525.

(2) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ج : 6. ص : 299.

ينظر : ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص 229-266.

(3) العشماوي، زكي: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي. بيروت: دار النهضة العربية. ص: 228.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2 . ص: 160.

غير أن محمد بن عياش المكنى بابن عيشون قد ذمها وبين فسادها، وأظهر ما تجلبه على صاحبها من هدر للمال والعقل، وإلى جانب هذا فإنها تحط من مكانة من يعاقرها، فهي تجعل السيد الكريم سفيها. يقول:

لقد ذمَّ بعضَ الخمرِ قومٌ لأنَّها تُكرِّهُ على دينِ الفتى بفسادِ
وقد سلّموا قولَ الذي قالِ إنها تحلُّ من الدنيا بأعظمِ نادِ
وتذهب بالمالِ العظيمِ فلن ترى لمُدْمِنِها من طارفٍ وتلادِ
فيمسي كريماً سيِّداً ثم يغتدي سفيهاً حليفاً الغيِّ بعد رشادِ⁽¹⁾

(الطويل)

وهذا يدلّ على بروز تيارٍ معادٍ لهذا السفور الذي أظهره الشعراء الخمريّون، وهذا الشعر اتسم بطابع الحكمة والإقناع وهو يقترب من شعر الزهد والتصوّف.

وعلى الرغم من غزارة الشعر الخمري وظهور شعراء موهوبين، فقد جاءت عندهم الكثير من المعاني مكررة، على نحو ما رأينا في وصف مجالسها عند ابن الخطيب ومحمد اللخمي الطرسوني. وكان الشعراء يحاكي بعضهم الآخر.

ونرى أن بعضهم وصفها لإظهار براعته في الوصف ليس إلا، فهو لم يتعاطاها كما فعل غيره، ولهذا نجد شعرا قيل فيها، وقد صدر عن العديد من الفقهاء أمثال الفقيه اللخمي وغيره.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 97.

المبحث التاسع: الإخوانيات

تنوّعت الأشعار التي جاءت في هذا الباب، ونقصد بالإخوانيات تلك التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة، ومن عتاب واعتذار، ومن تهنئة وشكر... ودارت هذه الأشعار بين مختلف طبقات المجتمع، فعبروا عما يجول في نفوسهم، وما يشوبهم من مشاعر جياشة بأبيات أوجزت الكثير من الكلام.

ولعلّ أكثرها ما جاء في التهنئة، فهم لم يتركوا مناسبة إلا وأنشدوا فيها مهنيين من يعينهم من الأحياء والأصحاب. ونتيجة لما عصف بالأندلس من أحداث جسام تسببت في سقوط الكثير من المدن، فقد برز العديد من الملوك الذين حاربوا الإسبان بكلّ قوة، فحققوا الكثير من الانتصارات، فانبرى الشعراء ينشدونهم القصائد التي تمدحهم وتهنئهم بالنصر. وحاولوا أن يظهرُوا هذه الفتوح بأنها عزيمة لا يقوم بها إلا العظماء. وهم في هذا لا يغيب عنهم أن يذكرُوا العامة بأن ملوكهم هم من الأنصار الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فأزروه ونصروه. ولابن زمرك أبيات يهنئ فيها سلطانه الغني بالله بفتح بلاد المغرب حيث يقول:

هي نفحة هبت من الأنصار وأهدتك فتح ممالك الأمصار
فتح الفتوح أذاك في حلل الرضا بعجائب الأزمان والأعصار
فتح الفتوح جنيت من أفنائه ما شئت من نصرٍ ومن أنصار⁽¹⁾

(الكامل)

وجاءت المعاني متشابهة عندهم، فهي لا تخرج عن كونها تمجيد للبطولة، وأن سبب النصر هي شجاعتهم أثناء قيادتهم للمعركة، فهذا النصر جلب للإسلام العزة والمنعة، وساهم في تمكينه كما حدث في بيعة الرضوان في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، يقول ابن الخطيب مهنئاً السلطان أبي سالم المريني بفتح تلمسان:

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

⁽¹⁾ المقرئ: أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 6. ص: 143-144.

ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 58.

وقدتَ إلى الأعداء فيها مبادرا
 وتمدُّ بنود النَّصرِ منهم ظلَّالها
 ليوث رجالٍ في مناكبِ عَقَبان
 على كل مطعامِ العَشِيَّاتِ مطعان
 وقد كستُ الإسلامَ ببيعتك الرِّضا
 وكان على أهليه بيعةَ رضوان⁽¹⁾

(الطويل)

و من باب التهنة بالأعياد ما جاء في قصيدة لابن الجياب يهنئ فيها أبا عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي بعيد الفطر يقول :

يا قادما عمّت الدنيا بشــــــــــــــــائره
 و مرحبا بك من عيدٍ تحفُّ به
 أهلا بمقدمك الميمون طائره
 من الســــــــــــــــعاد أجنادُ تظافره
 أقدمت فالخلقُ في نعمى وفي جذل
 أبدى بك البشر باديه وحاضره⁽²⁾

(البيسط)

وانتشرت ظاهرة الاحتفال بالأعياد المسيحية وقد تجلت من خلال تهنة السلاطين وإنشادهم المدائح بمناسبة عيد النيروز في عصر بني الأحمر، ومن أبرز الشواهد على ذلك، قصائد لسان الدين بن الخطيب.⁽³⁾ ومنها قصيدة أنشدها بين يدي الحجاج يوسف الأول بن نصر في النيروز لعام ستة وثلاثين وسبعمئة يقول فيها:

يهنيك نيروز ســــــــــــــــعيد قد انقضى
 أتاك على علمٍ بجودك في الورى
 فأمل من جدواك ما هو يعتادُ
 وما هو إلا رائدٌ لبشــــــــــــــــائره
 أنتك على آثاره منه أعداد
 فلا زال يحدوها إليك ويقتاد⁽⁴⁾

(الطويل)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج : ح ، ص 588.

ينظر ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص : 94-95.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة . ج: ح. ص: 315.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ج : 7. ص: 41.

(3) جرّار، صلاح: زمان الأنس، دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس، ط: 1 . بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2004.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان . ج : 1 . ص : 271-274.

وتكشف هذه الإحتفالات عن انخراط المجتمع الأندلسي على اختلاف شرائحه، في مشاركة المسيحيين أعيادهم، حتى غدت في الأندلس ليست أعيادا مسيحية، بل أعيادا أندلسية.⁽¹⁾

واحتفل الشعراء مهنيين ملوكهم بالشفاء من المرض، كقول محمد بن عمر القرشي مهنتا أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف بعد شفائه. يقول:

عادت ببرئك بهجة الأيام واستقبلتك بثغرها البسام
فانزاح عنك الضير غير معاودٍ وأتيح بالآمال كل مرام⁽²⁾

(الكامل)

وشملت التهنئات العديد من المناسبات الإجتماعية كالتهنئة بالمولود والإعذار. ولأبن الخطيب مراسلات جرت بينه وبين عبد الله بن خلدون، وفيها يهنئه بمولوده الجديد يقول:

لم لا تتال العلى أو يعقد التاج والمشتري طالع والشمس هيلاج
والسعد يركض في ميدانها فرحا جذلان والفلك الدوار هملاج⁽³⁾

(البسيط)

ويقول في غرض الإعذار لولد السلطان أبي عنان

شحطت وقود الليل بان به الوخط وعسكره الزنجي هم به القبط⁽⁴⁾
أتاه وليد الصبح من بعد كبره أيولداً أجنى ناكل الجسم مشمط⁽⁵⁾
كان النجوم الزهر أعشار سورة ومن خطرات الرجم أثناءها قط⁽⁶⁾

(الطويل)

(1) جرار، صلاح: زمان الوصل . ص : 119.

(2) ابن الأحرر، أبو الوليد اسماعيل: نثر الجمان في شعر من نظمتي وإياه الزمان . ص: 162.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص : 214.

(4) شحطت : بعدت ونأيت، وفود الليل، معظم شعر الرأس . الوخط : الشيب.

(5) الأجنى: الأحذب : المشمط : بياض الرأس يخالط سواده. القاموس المحيط. ص : 870. مادة شمط.

(6) المقرئ: أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ج: 8 . ص: 157.

وساد العتاب بين الأخوان ليعبر عن ألم لما حل بينهم، وهو في طياته يحمل دعوة لعودة الصفاء إلى النفوس، ونرى المعاتب في أشعاره يميل إلى الشكوى مما أصابه بسبب من يعاتب. ومن ذلك عتاب ابن الجيّاب إلى أبي القاسم بن أبي العافية حيث يقول:

عتبتَ ولم تغدر وتزعم أنني لك الصاحبُ الخوان ملّ وتاركا
ولو أنني نازلتُ منك نظيرها بسطتُ على ما كان منك اعتذاركا
صدعتُ فؤادي بالعتابِ وإنه لمنزلك الأرضي فخرّبتَ داركا
فيا نائرَ العتبِ الذي قد عكستهُ بحقُّ ألا فارجع على من أثاركا⁽¹⁾

(الطويل)

والعتاب لا يجري بين الأعداء، فهو نقيض الهجاء. ويأتي في سياق دعوة يطلقها المحبّون لكي تعود عُرى المحبّة وثيقة بينهم، ولهذا فإننا نلاحظ صدق العاطفة بين المتعاتبين.

وإلى جانب العتاب نرى النصيح والإرشاد، الذي يمثل علاقات صادقة تمتزج بتجارب عميقة، تصدر عن إنسان يتصف بالحكمة والمعرفة، ولإبن الخطيب رسالة يوجهها إلى ابن مرزوق ينصحه فيها بقوله:

والناس إمّا جائرٌ أو جائر يشكو ظلامه
وإذا أردت العزلاً ترزأ بني الدنيا قلامه⁽²⁾
قولوا لنا ما عندكم أهل الخطابة والإمامة⁽³⁾

(مجزوء الكامل)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص: 185.

(2) القلّامة: ما سقط منه. ينظر: الفيروز آبادي، مع الدين: القاموس المحيط. ص: 1485. مادة قَلَم.

(3) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 6. ص: 123-124.

بعد هذا العرض لأشعار الإخوانيات، نستطيع أن ننظر إليها من جانبين:

أولهما: جانب يسعى للحصول على مكاسب تعود عليه بالمنفعة، على نحو ما رأينا في تهنئة الملوك بالنصر والشفاء من المرض.

ثانيهما: جانب يسعى لتحقيق أغراض إنسانية تدل على صدق ووضوح في المشاعر والأحاسيس، ومن ذلك أشعار النصح والإرشاد والعتاب، فهي خالصة وبعيدة عن المنفعة الذاتية.

المبحث العاشر: الإستعطاف والشفاعات

فن قديم من فنون الشعر العربي، ويقال له أحيانا "الإعتذار" والمتتبع لهذا الفن، يرى أنَّ الشعر العربي لم يخل من شاعر أو أكثر نظموا الشعر استعطافا، أو اعتذارا عما تورطوا فيه من إساءة، كالهجاء مثلا، أو ما نسب إليهم زورا وبهتانا بحق ملك أو ذي سلطان، يباعث الوشاية أو الغيرة أو الحسد. وقصيدة الإستعطاف تدور أكثر معانيها، على ترفق الشاعر في الإحتجاج على براءته مما نسب إليه، واستمالة قلب المُستعطف، وتذكيره بولائه وخدماته، ووصف ما يعاني من ضروب الحرمان.⁽¹⁾ وهذا اللون يكاد يتصل بالرتاء لما فيه من بكاء الماضي، وتألُّم من الحاضر. ويكاد يختص بطبقة الملوك والوزراء، لما نالهم من النكبات والمحن، فهبطوا بعد رفعة، وذلُّوا بعد عزَّة،⁽²⁾ وازدهار هذا اللون يرجع إلى طمع الشعراء أنفسهم في أن تكون لهم المنازل المرموقة، والدرجات الرفيعة عند الملوك والرؤساء، وبهذا تهافتوا عليهم، وقد كان التسابق والتهافت الذي لا يخلو من الاحتكاك والنقد والحسد داعيا إلى ما يسوق بهم إلى المواقف المحرجة، والهفوات الشاذة، والأعمال النابية، وحينئذ تدعو الحاجة إلى هذا اللون من الشعر.⁽³⁾

ولجأ الشعراء في استعطافهم ملوك بني الأحمر، إلى إظهار شرعيتهم في الحكم، ويدعمها في ذلك ما تميزوا به من خصال حميدة. يقول ابن زمرك مستعظفا السلطان أبا الحجاج:

بما قد حزت من كرم الخلالِ بما أدركت من رتبِ الجلالِ
بما حوّلت من دين ودينيا بما قد حزت من شرفِ الجمالِ

(1) عتيق: عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 230.

(2) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنعاش. ص 56.

(3) طويل، يوسف: مدخل الى الأدب الأندلسي. ص: 142.

تغمدني بفضلك واغفرها ذنوبا في الفعال وفي المقال⁽¹⁾

(الوافر)

ونرى أن الشاعر يلجأ في استعطافه إلى استخدام الاسم الموصول (ما) المتبوع بحرف التحقيق (قد)، فهو بهذا يضع المستعطف بين الاسم الموصول وما يحمل من دلالات تدل على عظم ومكانة عالية وجملة الصلة التي تدل على النتيجة وهي أن يتغمده بفضلِهِ وعطفِهِ. (بما قد حزت، بما حوّلت = تغمدني). ويأتي استخدام التركيب الوصلي من أجل التحرك بين نقطتين ليتم من خلالهما تركيز الانتباه وإثارة الانفعال إلى عمق بعيد في النفس، فالاسم الموصول كلمة لا تفصح عن مضمونها إلا من خلال جملة الصلة.⁽²⁾

وبرز هذا الشعر إلى الوجود في عصر الدولة الأموية وكان الاستعطاف يصدر في معظمه عن مسجونين يوجهونه إلى الحاكم، فبقى في دائرة الاسترحام والاعتذار. ولو عدنا إلى أصل الاعتذار، لوجدناه نشأ نشوءاً من المديح، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء.⁽³⁾

ويظهر أن الكثير من شعراء السجون طرّقوا هذا الموضوع؛ لأنه كان يمثل لديهم أمل الخلاص من السجن. وكانت أشعارهم أحيانا تغلفها مسحة من التذلل والخضوع للحاكم مع الإعراف بالذنب، لتكون أبلغ تأثيراً في سبيل غايته، أو قد يختلط هذا الإستعطاف بالمدح، ليأخذ مأخذه في نفس الحاكم فيعفو ويصفح، وقد يتوجه الشاعر أحيانا بالاستعطاف عن طريق شفيع ليشفع له، ويتوسل به للوصول إلى ما يتمنى.⁽⁴⁾

وعالم السجن مختلف تماماً عن عالم الحرية، وهو يتلخص بكلمات البؤس والقهر والعذاب الدائم. لذلك فإنّ معظم الشعراء وصفوا عذاباتهم خلف القضبان، فابن الخطيب الذي

(1) ابن زمرك، محمد بن يوسف: الديوان. ص: 105.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: ح، ص: 157-158.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: نوح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 92.

(2) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 54.

(3) ضيف، شوقي: العصر الجاهلي. ط: 7. مصر: دار المعارف. 1960. ص: 211.

(4) الخطيب، رشا: تجربة السجن في الشعر الأندلسي. ط: 1. أبو طي. الجمع الثقافي. 1999. ص: 65.

دارت عليه الأيام، وانقلبت أحواله رأساً على عقب، وانحطت منزلته ومقداره فأصابته المحن حتى سقط في سجنه، ونكّل به أمام الملأ، يقول باكياً نفسه ومصيره:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوتُ فيها نحن قُوتُ
فقل للعدا ذهبَ ابنُ الخطيب وفاتَ ومنَ ذا الذي لا يفوت⁽¹⁾

(المتقارب)

ولأن ظلام السجن الذي خيم عليه كان هزة قوية مرّ بها هذا الوزير، فالسجن لأمثاله من كبار الشخصيات يعد صدمه قاسية، وهذا ظهر في شعره، فهو يبكي نفسه متوقعا مصيره المؤلم على يد أعدائه الذين أدخلوه السجن.

وأبو الحجاج يوسف بن الأحمر، يشكو في سجنه في شلوبانية من هذه المأساة التي ألمت به طوال هذه السنوات، ولم يطلق إلا بعد وفاة سجنائه أخيه الأمير محمد. يقول:

لقد خاض لِحّ الحب مني فتى غرّاً وشبّتُ فشبّتُ في ضلوعي له جمرُ
وما شبّتُ من سن ولكن أشابني صروفُ زمانٍ سوف يلغي به الجبرُ
دع الدهرَ والأيامَ وارق تكسبا لنيل معالٍ عندها يُرفع القدر⁽²⁾

(الطويل)

فالشيب قد غزا مفارق شعره، ولما يجاوز سن الشباب، والشيب علامة على مرور الزمن وسنوات العمر، فكان همّ سجنه يأكل من ربيع عمره دون أن يشعر به.

ولابن هذيل التجيبي أشعار رقيقة تصور مأساته داخل السجن، ويصف بُعدَه عن منزل الحبيب، وهو يعيش حالة من القهر لما حلّ به، فهو قريب من أحبابه، لكنه لا يستطيع وصالهم، مما زاده ألماً، وهو يعيش في غابة وبين وسط من الليوث تريد افتراسه. يقول:

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 185.

(2) يوسف الثالث: الديوان. ص 62.

ينظر: الخطيب، تجربة السجن في الشعر الأندلسي. ص: 86.

تباعَدَ عني منزلٌ وحبیبٌ
وإني على قرب الحبيب مع النوى
لقد بعدت عني ديار قريبة
وهاج اشتياقي والمزارُ قريب
يكاد إذا اشتد الأنين يجيب
عجبت لجار الجنب وهو غريب⁽¹⁾

(الطويل)

ثم يشكو الدهر وما فعله به، فهو دائم الحزن والبكاء، ولا يلجأ في سجنه إلا إلى الله
الذي يفرج كربة المكروبين. يقول:

أيا دهرُ، إني قد سئمتُ تهدي أجرني فإنَّ السَّهمَ منك مصيبُ
دعوتك ربي والدعاءُ ضراعةٌ وأنتَ تتأجى بالدعا فتجيب⁽²⁾

(الطويل)

وسادت هذه الأشعار المشاعر الحزينة التي عبرت عن نفس جريحة نال منها الزمان ما
نال، وظهر الانكسار عند الشعراء واضحا، وعبروا عنه من خلال تعابيرهم التي تراوحت بين
التذلل والبكاء. ومما زاد في ألمهم، أن شعورهم بقرب الأجل قد تمكن في نفوسهم، فالزمن
يسير والحياة تجري، وهم ما يزالون في مكانهم ينتظرون الموت الذي يقف بباب سجنهم.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 340.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق. ج: 4. ص: 341.

المبحث الحادي عشر: شعر الحنين

توسع الأندلسيون في شعر الحنين، فمعظم من رحلوا من الأندلس، وما أكثرهم! كانوا من ذوي الأقلام الشاعرة. وليس كالاغتراب شيء يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به، وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق، أم بالانتقال لسبب أو لآخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس. فكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم، فزعوا إلى الشعر يبثون توقعهم وحنينهم المشوب إلى أوطانهم وأحبابهم.⁽¹⁾

وتعددت ألوان الشكوى، فمنهم من شكى سوء الحال وظلم الحياة، ومنهم من شكى الغربة وآلامها، يقول صالح بن يزيد النفزي مبينا ما أصابه بسبب الغربة:

غريبٌ كلِّما يلقي غريباً فلا وطنٌ لديه ولا حبيبٌ
تذكرُ أصلهُ فبكى اشتياقاً وليس غريباً أن يبكي غريباً⁽²⁾

(الوافر)

ويخاطب محمد بن الحكيم اللخمي أهله في مدينة تونس حيث يقول:

حيِّ حيِّ بالله يا ريح نجد وتحمل عظيم شوقي ووجدي
بي شوق إليهم ليس يعزى بجميـل ولا لسكان نجد⁽³⁾

(الخفيف)

وأكثر الشعراء من لومهم للزمن، وما أصابهم من تشرد كان بفعل تقلباته التي كانت السبب في إبعاد ابن الخطيب عن وطنه. ونراه يعبر عن حبه له فيقول في شوقه إلى غرناطة:

أيام قربك عندي ما لها ثمن لكنني صدّني عن قربك الزمنُ

⁽¹⁾ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 273.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 283-284.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر نفسه. ج: 2. ص: 321.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 3. ص: 218.

حطت بعدك يا أهلي ويا وطني رحل الغريب فلا أهل ولا وطن⁽¹⁾

(البسيط)

وأظهروا في شكواهم إيماناً بالقضاء والقدر، فتبدل الحال هو من تقدير الله عز وجل، فالأيام لا تدوم لواحد، ولكن الله باق ولا يتبدل.. يقول ابن الخطيب مخاطباً الغني بالله:

الحق يعلو والأباطل تسفلُ والله عن أحكامه لا يُسألُ
وإذا استحالت حالة وتبدلت فإله عز وجل لا يتبدلُ
واليسرُ بعد العسرِ موعودٌ به والصبرُ بالفرجِ القريبِ مؤكَّلٌ⁽²⁾

(الكامل)

وظهر اليأس كثيراً في أشعارهم، وهذا نلمحه واضحا عند القاضي أبي البركات البليقي حيث يقول :

قالوا : تغرَّبتَ عن أهلٍ وعن وطنٍ فقلتُ: لم يبقَ لي أهلٌ ولا وطنُ
مضى الأحبةُ والأهلون كلُّهم وليس لي بعدهم سُكنى ولا سَكَنُ
أفرغتُ دمعِي وحزني بعدهم فأنا من بعدِ ذلك لا دمعُ ولا حَزَنٌ⁽³⁾

(الطويل)

فاليأس باد في أبياته، ونراه يلجأ إلى الألفاظ التي تدلُّ على فقد الأمل (تغرَّبتَ، لم يبقَ، ليس لي، مضى الأحبة، أفرغتُ دمعِي). وكذلك فقد كرر حرف النفي (لا) ليؤكد على يأسه من العودة إلى وطنه، فالذي يربطه به لم يعد موجودا.

وتشابه شعر الاستعطاف مع الحنين، فكلاهما يقوم على الشكوى من الحال وغدر الزمان، وظهرت من خلالهما حالة اليأس واضحة في أشعارهم، فهم لم يعودوا يفرقون بين الحزن والفرح، أو الموت والحياة، فالأيام تمرُّ في سجنهم دون قيمة تُذكر.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 189

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، ج: ح. ص: 621.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. ص: 287.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، ج: ح. ص: 495.

(3) النباهي، أبو الحسن: تاريخ قضاة الأندلس. ت: د: مريم الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1995. ص: 205. 40-41.

المبحث الثاني عشر: الشعر الديني

ونقصد به شعر الزهد والتصوف، وهما مرتبطان ببعضهما بعضاً، وظهر هذا الشعر بالأندلس في فترة الإمارة كردّ على حياة اللهو والمجون، أو لتكفير الذنوب في أيام الشيخوخة. وكان هذا الشعر يصدر عن فقهاء أتقياء مؤمنين، أو عن أناسٍ تاب بعضهم في أواخر أيامهم، ثم تطور هذا الشعر في بقية العصور الأندلسية.

ومن الزهد نشأ التصوف، فساد في عصر السيطرة المغربية نتيجة للظروف القاسية التي كان يعيشها بعض الناس، وبدافع الإيمان بالله، فالزاهد ينصرف عن الملذات طمعا في الآخرة، أما الصوفي، فإنَّ همَّه هو وقته الحاضر، وهدفه هو معرفة الله والإتصال الدائم به.⁽¹⁾

ومن غير العجيب أن يظهر فن الزهد في الأندلس، وقد علمنا ما للفقهاء من سلطان على الخاصة والعامة، فلا بدّ لهذا السلطان أن يقود إلى التعصب للدين، والتمسك بأحكامه، ثم إلى التظاهر بالعبادة والتقوى، والنفور من الدنيا وزينتها، والإبتعاد عن زخرفها وغرورها، فيكثر الشعراء المتزهدين حتى يصبح الزهد صناعة مطلوبة، وزياً مرغوباً فيه، فمنهم من ينظم بعامل التقوى والصلاح، ومنهم من ينظم اقتداءً بغيره وإرضاءً للفن. ومنهم من ينظر إلى الحياة الدنيا نظرة خائف فيزم غرورها، ويذكر ذنوبه، وجنونه بملذات الحياة فيندم ويعتذر إلى الله.⁽²⁾

ويمكن أن نردّ وجود هذا القسط من شعر الزهد والتصوف إلى أنها جاءت تلبية لرغبة الأمير، وهذا ما نراه في قول ابن الخطيب، يقول: وقلت وقد تشيع السلطان - رحمة الله عليه - للصوفية والفقراء وأحضرهم مجلسه، وأمرهم بالنظم في طريقهم:

هَبْ النَّسِيمُ مَعَطَّرَ الْأَرَاجِ فَشَفَى لَوَاعِجَ قَلْبِي الْمَهْتَاجِ

⁽¹⁾ طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص: 128.

ينظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ص: 57.

ينظر: السعيد، محمد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس. ط ح: بيروت: الدار العربية للموسوعات 1985. ص: 259، 277.

⁽²⁾ البستاني، بطرس: أدباء العرب في عصر الأندلس وعصر الإنبعاث، ص: 62.

فاشرب على ذكر الحبيب وسقني

صهباً تسرق في الظلام الداجي⁽¹⁾

(الخفيف)

وللتصوف ركنان هما : الزهد والحب الالهي ، وعلى هذا، فالتصوف أعمّ من الزهد، فكل تصوف زهد، وليس كلُّ زهدٍ تصوفاً، والفرق بينهما هو الفرق بين المبالغة والاعتدال، وإذا كان الزهد دعوة للانصراف عن ترف الحياة ومباهجها، والاكتفاء بما يقيم الأود ويستتر الجسم، فإنَّ التصوف شطف وخشونة وجوع وحرمان وإعراض عن زينة الدنيا وزخرفها، والزهد فيما يقبل عليه عامة الناس من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة.⁽²⁾

و يرى بعضهم أنّ هذا اللون من الشعر لم ينتشر في الأندلس ذلك الانتشار الواسع؛ لأنَّ الأخلاق كانت مرعية، والدين كان مقدساً، والتقاليد كانت واجبة الاحترام، والسبب في ذلك يرجع إلى جانبين: أولهما: أنّ الوازع الديني في الأندلس له قداسته واحترامه، ويرهب الناس سلطانه، ويخافون بطشه، ويحسبون حسابيه، على خلاف ما كان المشاركة.

ثانيهما : كانت الفلسفة في المشرق علة العلل، فهي التي أشاعت البلابل والشكوك وخلفت الطائفية والمذهبية، وفتحت أبواب الشر كلها بعنوان حرية الفكر والبحث والنظر، و ترتب على كل هذا الانطلاق والانحراف والمجون والانغماس في الملذات؛ ممّا دفع الغيورين إلى مقاومتها بمختلف صنوف المقاومة التي كانت خاتمة مطافها هذا اللون من الشعر.⁽³⁾

وفي مملكة غرناطة ذاتها، كان التصوف منتشرًا بين الخاصة والعامة، وفيها الكثير من الفرق الصوفيّة، وكان لهذه الفرق هدفان أساسيان هما: الإيثار والجهاد، ولما كانت أهم الحركات

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 42.

(2) عتيق ، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 225.

(3) أبو الخشب، إبراهيم: الأدب العربي في الأندلس. ص 192-193. ينظر: خفاجة، محمد: قصة الأدب في الأندلس. بيروت : منشورات مكتبة

المعارف. 1962. ص: 63.

الجهادية حصلت زمن الغني بالله إذ بلغت غزواته ذروتها ما بين 767هـ و 771 هـ، فقد برز الجهاد كغرض فنّي في تلك الفترة.⁽¹⁾

و ازدهر التّصوّف في هذه الفترة، وكان من بين أقطابه في ذلك الوقت أبو الحسن علي بن فرحون القرشي، المتوفى سنة 751هـ، وأبو اسحق إبراهيم بن يحيى الأنصاري، وقد ولد سنة 687هـ وتوفي بغرناطة سنة 751 هـ، وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المولود سنة 649 هـ، وله كتاب (بغية المسالك في أشرف الممالك) في مراتب الصوفية.⁽²⁾ وقد صور هؤلاء في أشعارهم الوقت وقدم الموت، والحديث عنه على أنه غاية مرجوة، وذم الدنيا لأنها فانية، والدعوة إلى التقوى والصالح وطاعة الله والتذكير بقدرته وقضائه، والابتعاد عن كل ما فيه حساب الآخرة والاعتراف بالذنوب والتوبة والتضرع إلى الباري في الشيوخة، والابتعاد عن المجتمع بسبب انشغال الحكام في الملذات وابتعادهم عن مقارعة العدو.⁽³⁾

وتركزت أكثر أشعارهم على ذم الحياة الدنيا، فهي دار فناء لا دار بقاء، ولا يتمسك بها إلا الجاهل الذي يبحث عن اللذة الآنية التي لا تدوم، يقول أبو جعفر أحمد بن صفوان في ذمها:

حديث الأمان في الحياة شجونٌ إن أرضاك شأنٌ احفظتكَ شؤون
يميل إليها جاهلٌ بغيرورها فمينةٌ اشتياقٌ نحوها وأنينٌ
تجاف عن الدنيا ودينٌ باطّراحها فمركبها بالمطمعين حارون⁽⁴⁾

(الطويل)

وظهر هذا عند ابن خميس في وصفه الدنيا، فحالها حال المرأة التي تبغض زوجها وتكرهه فلا يرجى منها صلاحٌ ولا ينظر فيها أملٌ، يقول:

تراجع من دنياك ما أنت تارك وتسالها العنبي وها هي فارك⁽⁵⁾

⁽¹⁾ الحمصي، أحمد: ابن زمرك سيرته وأدبه. ص: 168.

⁽²⁾ عنان، محمد: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. ص: 467.

⁽³⁾ طويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص128.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج:1. ص: 96.

⁽⁵⁾ الفارك، المرأة التي تبغض زوجها وتكرهه، والعنبي: هي الاسترضاء. ينظر: ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ج: 10. مادة (فرك).

تؤمل بعد التَّركِ رَجَعَ ودادها وشراً وداد ما تودُّ الترائك⁽¹⁾

(الطويل)

وهذا فادهم إلى التمسك برضى الله وطاعته و اللجوء إليه فهو يحكم في خلقه . يقول محمد بن الحكيم اللخمي في النسك والجوء إلى الله:

أيا مَنْ له الحكمُ في خلقه ويامنُ بكربي له أشتكى
تولُّ أموري ولا تُسلمني وإن أنتَ أسلمتني أهلك
تعاليتَ من مُفصل مُنعمٍ ونزّهتَ من طالبِ مُدرك⁽²⁾

(المتقارب)

والخوف من الله ظاهر في أشعارهم، فهم يفرون إليه طلباً للمغفرة على ما اقترفت أيديهم من ذنوب ومعاص، وتعللوا بأنهم عصوه عن جهل، وليس عن كبر وعناد، فهم يطمعون يوم القيامة بعفوه، فهو الحاكم العادل. يقول محمد بن عبد الواحد التلوي:

إلهي أجرتني إنني لك تائبٌ وإنني من ذنبي إليك لهاربٌ
عصيتك جهلاً ثم جئتُك نادماً مُقرّاً وقد سادتْ عليّ المذاهبُ
فخذ بيدي واقبل بفضلك توبتي وحقق رجائي في الذي أنا راغب⁽³⁾

(الطويل)

كان السعي وراء الآخرة واضحاً عندهم، فكلُّ ما سبق من بعد عن الدنيا ومتاعها جعلهم يحرصون على تحقيق هدفهم. فغايتهم هي الحصول على الأجر والثواب. وجُلُّ ما يتمنون هو النجاة يوم القيامة. يقول أبو القاسم بن أحمد الكلبى مشفقاً من ذنبه، ومتضرعاً إلى ربه:

ياربُّ إن ذنوبي قد عظمت فما أطيق لها حصراً ولا عدداً
وليس لي بعذابِ النارِ من قبيلٍ ولا أطيق لها صبراً ولا جلداً

(1) المقرئ، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 6. ص: 298.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2، ص: 180.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق. ج: 3. ص: 167.

فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي ولا تذيقي حراً الجحيم غدا⁽¹⁾

(البيسط)

ووجد هؤلاء ذاتهم الضائعة من خلال صلتهم بالله عز وجل، فانزاحت عنهم الضلالة فأصبحوا يرون أموراً لا تستطيع العامة رؤيتها، وهم بهذا يرفعون من مكانتهم بين الناس، وهذا الشعور كان سائداً عندهم يقول أبو حيان محمد بن يوسف النفزي الغرناطي:

تفرّدت لما أن جمعتُ بذاتي وأسكنتُ لما أن بدتُ حركاتي
فلم أر في الأكوانِ غيراً لأنني أزحتُ عن الأغيار روحَ حياتي
وقدستها عن رتبة لو تعيَّنتُ لها دائماً دامتُ لها حسراتي
فها أنا قد أصدتُها عن حضيضها إلى رتبة تقضي لها بثبات⁽²⁾

(الطويل)

ونخلص إلى نتيجة وهي أن الجوَّ الروحاني الذي عاشه هؤلاء قد تمكن في نفوسهم، ممّا دفعهم إلى الابتعاد عن الدنيا وملازمة الزائل، فأكثرُوا من تأنيب مَنْ يُقْبَلُ عليها، واتَّخذت أشعارهم طابع التحذير من خلال الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى. والمتتبع لأشعارهم يرى أنهم استطاعوا - كما يعتقدون - أن يروا أموراً لا نستطيع رؤيتها، وكأنَّ الحجاب قد رُفِعَ عنهم.

وكان للحرمان الأثر البالغ في انتشاره، فمنهم من اتخذ نتيجة للفقر المدقع والحرمان . فهم نظروا إلى الدنيا ولذاتها، فحاولوا التمتع بها، لكنهم لم يُوفِّقُوا لسبب من الأسباب فيئسوا، وآثروا الزهد على الكفاح في سبيل العيش الهنيء، وناصرُوا الحياة وصوروها على أنها باطل.⁽³⁾

وساعدت الحياة اللاهية على وجود هذا اللون من الشعر في مختلف الأعصر الإسلامية، فكانت الفتوحات مصدراً لإقتناء القصور نتيجة للغنائم الوفيرة التي كان يغنمها المسلمون من

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة فب من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 47.

ينظر: المقرئ، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 3. ص: 187.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 39-40.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة. ص: 82.

(3) ناصيف: إميل: أروع ما قيل في الزهد والتصوف. بيروت- دار الجيل. ص: 8.

أعدائهم. وهذا قاد بعض الشعراء لكي يطلقوا صرخاتهم إلى الحكام، من أجل أن لا يركنوا إلى حياة الترف والمجون، وأن لا ينسوا أن أعداء الإسلام يتربصون بهم.

المبحث الثالث عشر: الشعر التعليمي

هذا اللون من الشعر أبعد ما يكون عن الشعر بمعناه الخاص، أي الشعر الفني الذي يغلب عليه عنصر الخيال والعاطفة، ويهدف إلى الإمتاع والتأثير في النفوس. وهذا اللون لا يلتقي مع الألوان الأخرى إلا في صفة النظم فقط، وأغلبه يأتي من الرجز، والقليل يأتي في غيره من بحور الشعر. وعُرف الشعر التعليمي قبل عصر بني الأحمر، ومنه ما بدأه يحيى الغزال في القرن الثالث الهجري، ثم ابن عبد ربّه الذي نظم غزوات الناصر في أرجوزة مطوّلة. ثم أبو طالب عبد الجبار الذي نظم أرجوزة في قيام دولة المرابطين، وقد نظم ابن الخطيب تاريخ دول الإسلام في أرجوزة سماها (رقم المحلل).⁽¹⁾

وهذا الشعر يراد به الأراجيز والقصائد التاريخية أو العلمية، التي جاءت في حكم الكتب، وكذلك الكتب التي نظمت في حكم الأراجيز والقصائد، وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة، كأللفية الإمام مالك في نحو العربية، مما يجمع قضايا العلوم والفنون وضوابطها.⁽²⁾

ومن ذلك ما جاء به محمد بن أحمد بن مالك اللخمي اليكبي، والذي يبين فضل الحديث الشريف، ويصف تدوينه على يد صحابة رسول الله، والمنهج الدقيق والحازم في عملهم.

يقول واصفاً عمل رجال الحديث:

لقد حاز أصحابُ الحديثِ وأهله	شأواً وثيراً ومجداً مخلداً
فهم دوّنوا علمَ الحديثِ وأتقنوا	ونصّوا بتبيين صحيحاً ومسنداً
وجاؤوا بأخبارِ الرسولِ وصحبه	على وجهها لفظاً ورَسماً مقيدا
وهم نقلوا الآثارَ والسُننَ التي	منْ أصبحَ ذا أخذٍ بها فقد اهتدى

⁽¹⁾ بسبيح، أحمد: لسان الدين بن الخطيب، عصره، بيئته، حياته، وآثاره. ص: 20 - 21.

⁽²⁾ عتيق: عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 329.

ينظر: أبو الخشب. تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ص: 221 - 223.

وهم أوضحوا من بعدهم بإجتهدهم

وتبينهم سبيل الهدى لمن اقتدى⁽¹⁾

(الطويل)

ومن المطولات التي تصف علم النحو وتاريخه ما جاء به محمد بن يوسف بن حيان النفزي. فهو يرى بأن النحو هو أساس العلوم، فبه تعرف مقاصد القرآن والسنة. ويذكر النفزي وبعض علمائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي. ولا ينس أن يذكر بعض الأحداث التاريخية التي واكبت هذا العلم، ونذكر منها لقاء سيبويه بالخليل بن أحمد الفراهيدي. وتعتبر هذه المطولة وثيقة تاريخية لميلاد علم النحو العربي. ونذكر منها قوله:

به يعرف القرآن والسنة التي	هما أصل دين الله ذو أنت عابده
لقد حاز في الدنيا فخارا وسوددا	أبو الأسود الديلي فللجر سائده
هو استنبط العلم الذي جل قدره	وطار به للعرب ذكر نعاوده
وساد عطا نجله وابن هرمرز	ويحيى ونصر ثم ميمون ماهده
وعنيسة قد كان أبرع صحبه	فقد قلدت جيد المعالي قلانده
إلى أن أتى الدهر العقيم بوحد	من الأزد تتميه إليه فرائده
إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد	أقر له بالسبق في العلم حاسده ⁽²⁾

(الطويل)

ولشاعر المرية أبي عبدالله محمد بن الهواري، المعروف بابن جابر، قصيدة طويلة من بحر الطويل، وتدور حول ذكر فضائل الصحابة العشر وأهل البيت، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وحمزة والعباس.

ومن هذه القصيدة في فضائل أبي بكر الصديق يقول:

فمنهم أبو بكر خليفته الذي له الفضل والتقديم في كل مشهد

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 44-45.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 35-36.

ينظر: بقية الأبيات، الصفحات: 35-39. وتقع المطولة في مئة وستة أبيات.

وصديق هادي الخلق والمؤثر الذي
وصهر رسول الله وابتنته التي
لإنفاقه للمال في الله قد هُدي
ببرئها أي الكتاب الممجّد
فثالثنا ذو العرش أوثق منجد⁽¹⁾

(الطويل)

فهذه الأبيات تشير إلى العديد من الأحداث التي جرت في بدايات الدعوة المحمدية ،
وهي أحداث مشهورة. فأبو بكر الصديق هو أول الخلفاء الراشدين، وكان الرفيق الذي لزم
الرسول صلى الله عليه وسلم في رحلته أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة.

ويشير إلى حادثة الإفك التي جرت مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي البيت
الأخير يشير أيضاً إلى حادثة وصول رجال قريش إلى باب الغار أثناء الهجرة، وموقف الرسول
في تظمينه لأبي بكر عندما قال له: ما رأيك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما.

ولأبي حيان الغرناطي دالية في تفضيل النحو مطلعها:

هُوَ الْعِلْمُ لَا شَيْءٍ كَالْعِلْمِ شَيْءٍ تَرَاوَدُهُ لَقَدْ حَازَ بَاغِيهِ وَأَنْجَحَ قَاصِدُهُ⁽²⁾

(الطويل)

⁽¹⁾ المقري: أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج 9. 201-202.

ينظر الصفحات: 201-207.

ينظر: عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 337.

⁽²⁾ أبو حيان، محمد بن يوسف: تذكرة النحاة. ت: عفيف عبد الرحمن. ط: 1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1986. ص: 21. 40-41.

المبحث الرابع عشر: الحكمة

الحكمة قولٌ رائعٌ يتضمّن حكماً صحيحاً، وقلماً يخلو أدب أمةٍ من حكماء خلفوا وراءهم أقوالاً رائعة أودعوها خلاصة تجاربهم في الحياة. وشعر الحكمة يقوم في أكثره على المعاني والأفكار التي تستلهمها العقول الراجحة من ظروف وأحداث مجتمعاتها في شتى ميادين الحياة، ومن ثمّ فهو ليس في حقيقته شعراً خالصاً، وذلك لافتقاره إلى عنصرَي الخيال والعاطفة.⁽¹⁾

والأدب العربي في كلّ عصر من عصوره لم يخلُ من حكماء عبّروا عن آرائهم وتجاربهم في أقوال النثر أو الشعر، فالشاعر ما يزال يُدلي في تضاعيف قصيدته بتجاربه.⁽²⁾

ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم، فنحن نجدُها في معلقة عبيد بن الأبرص حيث يقول:

وكلُّ ذي غيبةٍ يُؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يُؤوبُ⁽³⁾

(المتقارب)

وتطوّر شعر الحكمة بتأثير الترجمة عن الأمم الأجنبية واتّساع آفاق الثقافة. وكان أول مظاهر هذا التطوّر، أن شعر الحكمة أصبح موضوعاً ثابتاً في الشعر العربي.⁽⁴⁾

وعبّرت الحكمة في هذا العصر عن هموم الأندلسيين وآلامهم، فحملت بين ثناياها صرخات مدوية لما حلّ بهم بعد السقوط، وما رافقه من ذلّ وتشريد، حيث يقول أبو البقاء الرندي:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ

⁽¹⁾ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس. ص: 207.

⁽²⁾ ينظر: اليازجي، كمال: الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم. ط: 1. لبنان: دار الجيل. 1986. ص: 13.

⁽³⁾ صيف، شوقي: العصر الجاهلي. ص: 218.

⁽⁴⁾ الروزي، الإمام أبو عبد اله: شرح المعلقات السبع. ت: عمر أبو نصر. حلب: منشورات جامعة حلب. 1966. ص: 332.

⁽⁴⁾ هدّارة، محمد: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. القاهرة: دار المعارف. 1963. ص: 448.

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سرّه زمنٌ ساءتُه أزمانٌ⁽¹⁾

(البسيط)

وحاولَ الرندي أن ينفذ إلى جواهر الأشياء، واتكأ على عنصر المقابلة، فقابل بين التمام والنقصان، وبين البقاء والفناء، وبين السرور والحزن، فهو يحذر النَّاس من الاعتزاز بطيب العيش؛ لأن دوام الحال من المحال.

وتناولت الحكمة في أغلب مواضيعها نقداً للحياة الاجتماعية السائدة، وهي في هذا تعتبر وسيلة للنهوض بالقيم الإنسانية. يقول علي بن عمر القيجاطي:

الحرُّ يصفحُ وإن أخلَّ خليلُهُ والبرُّ يسمحُ إن تجرأ جارهُ
فتراهُ يدفع إن تمكَّن جاهُهُ وتراهُ ينفع إن علا مقدارهُ⁽²⁾

(الكامل)

ونرى أن الحكمة استندت في أسلوبها على التركيب الشرطي، ولعلَّ الغاية من استخدامه كونه يعتمد على العقل، فالخطاب في هذا اللون من الأدب لا يكتفي بمحاكاة المشاعر على نحو ما نرى في الغزل والرثاء وغير ذلك من الفنون الأخرى.

وتأثر شعراء هذا العصر بتعاليم الإسلام في معظم حكمهم، فمن معينه استنقوا تجاربهم التي انطلقوا من خلالها ومن هذا قولُ محمد بن عبد الله الغافقي:

اقنع بما أوتيتَه تملِّ الغنى وإذا دهتكَ مُلمَّةً فتصبرِ
واعلم بأنَّ الرزقَ مقسومٌ فلو رُمنا زيادةَ ذرَّةٍ لم نقدر⁽³⁾

(الكامل)

⁽¹⁾ المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. 373.

ينظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه. ص: 550.

⁽²⁾ المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 7. ص: 48.

⁽³⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 295.

ويظهر تأثر الشاعر بالآية الكريمة "الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم" (1).

ونتيجةً لتأثر الحكمة بالقرآن الكريم والحديث الشريف، فلا بدّ من أن نوضح الفرق بينها وبين شعر الزهد، فعلى الرغم من التقائهما من ناحية أو أكثر إلا أنّهما يفترقان افتراقاً واضحاً، فالزهد مذهب في الحياة يدعو البشر أن يتجرّدوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوة بعيدة عن حياة الترف واللهو. أمّا الحكمة فهي مذهب في الشعر لا في الحياة ينظم فيه صاحبه بتأثير نظرة فلسفية للكون وحقائق الأشياء. ولهذا لا نستغرب إن وجدنا من الشعراء الذين يملؤون شعرهم بالحكمة والأمثال زنديقاً أو فاسقاً. (2)

وتأثر الشعراء في حكمهم بإخوانهم المشاركة، على نحو ما حدث في أغراضهم السابقة. وظهر تأثرهم بالمتنبي واضحاً، فقد تأثر به كبار هذا العصر من الشعراء، أمثال ابن الخطيب وابن خاتمة الأنصاري. ومما تأثر به ابن خاتمة قوله في ذم الحرص على جمع المال:

يا مَنْ غدا يُنْفِقُ العُمُرَ الثَمِينِ بلا جدوى سوى جَمَعَ مالٍ خيفةَ العدم
ارجع لِنَفْسِكَ وانظر في تخلصها فقد قذفتَ بها في لُجَّةِ العدم (3)

(البيط)

وهو في هذين البيتين يشير إلى معنى بيت أبي الطيب حيث يقول:

ومَنْ يَنْفِقُ الساعاتِ في جمعِ ماله مخافةً فقرٍ فالذي فعلَ الفقر (4)

(الطويل)

(1) سورة العنكبوت: آية 62.

(2) هذارة، محمد: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. ص: 448.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 156.

ينظر: ابن الخطيب، لسن الدين: الديوان. ج: 1. ص: 47.

(4) المتنبي، أبو الطيب: الديوان. ت: بدر الدين حاضري. ط: 1. بيروت: دار الشرق العربي. 1992. ص: 181.

ومن الباحثين مَنْ يرى أنّ الحكمة في الشعر الأندلسي ضعيفة النتاج، وهي ساذجة التفكير والتصوّر، ولا تدلّ على ثقافةٍ ناضجة وعلم واسع. ويعزو السبب في ذلك إلى قلة انتشار الفلسفة عن الأندلسيين.⁽¹⁾

والملاحظ على هذه الأحكام، أنّها جاءت بعيدة عن الموضوعية، فهي تنظر إلى هذا اللون الشعري من جانب واحد. ونحن لا نذكر أنّ الحكمة قليلة في الشعر الأندلسي فهم لم يكتروا فيها،⁽²⁾ على نحو ما حصل في شعر الاستعطاف.⁽³⁾ ومقابل هذا تكثرت في أغراض الغزل ورتاء المدن وغير ذلك من فنون الشعر الأخرى. وأما عن قوله بأنّها ساذجة التفكير؛ كونها لم تتأثر بالفلسفة، فهذا القول فيه تعصبٌ وظلمٌ للثقافة العربية التي حفلت بنتاج حضاري عريق يتربع على قمته، القرآن الكريم والشعر العربي بعصوره المختلفة.

⁽¹⁾ البستاني، بطرس: أدباء العرب. ص: 60.

⁽²⁾ جوميث: اميليو: الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه. ص: 73.

⁽³⁾ أسعد: محمد جاسر: الاستعطاف في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف.

رسالة جامعية غير منشورة. جامعة النجاح الوطنية. نابلس: فلسطين. 2004. ص: 148.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية للشعر في عصر بني الأحمر

أولاً: البناء اللغوي:

المبحث الأول: التكرار:

المبحث الثاني: التقديم والتأخير.

المبحث الثالث: الطباق.

المبحث الرابع: التضمين والاقْتباس.

ثانياً: الموسيقى الداخلية:

المبحث الأول: إيقاع الحروف.

المبحث الثاني: المشتقات.

ثالثاً: الموسيقى الخارجية:

المبحث الأول: الوزن.

المبحث الثاني: القافية.

رابعاً: مناسبة الألفاظ للمعاني المطروقة .

البناء اللغوي

المبحث الأول: التكرار:

إن أبسط قاعدة نستطيع أن نصوغها بالاستقراء ونستفيد منها، هي أنّ التكرار في حقيقته، إلحاحٌ على جهة مهمّة في العبارة. وهذا هو القانون الذي نلمسه كامناً في كلّ تكرار يخطر على البال. فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى، ذو دلالة نفسية قيّمة⁽¹⁾. فهذه الظاهرة ليست حليةً لفظية تزيّن النّص، ولا عملاً عشوائياً يأتي به الشاعر كيفما شاء، إذ أنّ اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام. والتكرار هو ذكر الشيء مرتين فصاعداً. ولهذا نستطيع أن نضع التكرار في باب الإطناب.

ولم يعارض البلاغيون العرب التكرار، وعدّوه نوعاً من أنواع التأكيد. " فمن سنن العرب التكرير والإعادة، والغرض منه إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"⁽²⁾.

ومن البلاغيين مَنْ عاب التكرار إذا وقع في اللفظ والمعنى، " لأنه يقع في الألفاظ دون المعاني، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه"⁽³⁾.

ويرى الجاحظ أنّ التكرار لا يجوز أن يستخدم إلا عند الضرورة والحاجة، وهذه الحاجة تكون ضمن دائرة المعنى الذي نريده، فلا يخرج إلى العبث. " فالتكرار لا يكون زيادة ما دام لحكمه كتقرير المعنى، أو خطاب السّاهي، كما أنّ ترداد الألفاظ ليس بعِيٍّ ما لم يجاوز مقدار الحاجة"⁽¹⁾.

(1) الملائكة، نازك: قضايا الشعر المعاصر. ط: 9. بيروت: دار العلم للملايين 1996. ص: 276.

(2) أنظر: السيوطي، عبد الرحمن: المزهرة في علوم اللغة وأنواعها. ج: 2. ضبط وتصحيح: محمد أحمد جاد المولى. بيروت: دار إحياء الكتب العربية. ص: 332.

(3) أنظر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. ج: 2. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: 3. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. 1964. ص: 74.

(1) أنظر: البيان والتبيين. ج: 3. ت: عبد السلام هارون. ط: 3. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1968. ص: 314. ينظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ت: محمد عبد المنعم خفاجي. ط: 4. بيروت: لبنان: دار الكتاب اللبناني. 1975. ص: 304.

والتكرار يأتي لأغراضٍ كثيرة، منها إبراز المعنى وتقريره في النفس واستمالة المخاطب، فهو من ضمن الإيقاع الداخلي للنص على مستوى البيت أو الأبيات، وهذا التكرار ينجح في كسر رتابة الإيقاع الخارجي، مما يجعل القصيدة "سيمفونية" متعددة الألحان.⁽¹⁾

أ. الاسم الموصول: إن تكرار الاسم الموصول ينقل السامع إلى ما يدور في نفس الشاعر⁽²⁾، فقد استطاع الشعراء من خلال الاسم الموصول "ما" أن يعبروا عن معاني الكمال التي يريدونها، ومن هذا قول ابن خاتمة في وصف مألقة:

ما شئتَ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ حَسَنٍ ما شئتَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ بَدْرِ
ما رمتَ مِنْ أَمْنٍ وَمِنْ أَمَلٍ ما رمتَ مِنْ بُشْرٍ وَمِنْ بَشْرٍ⁽³⁾

(الكامل)

فقد لجأ الشاعر في هذه الأبيات إلى تكرار الاسم الموصول "ما". ولكن هذا التكرار لم يكن في "ما" وحدها، بل لجأ إلى استخدام التركيب الفعلي الذي ظهر من خلال قوله "ما شئتَ، ما رمتَ". وهذا دفع السامع لكي يجول في خياله راسماً لوحةً فنيّةً جميلة، تتكون من كل معاني الجمال التي تألفت فيما بينها لكي ترسم معالم هذه المدينة التي أرادها الشاعر أن تكون أجمل المدن. "وبهذا فقد استطاع من خلال استخدامه للاسم الموصول أن يعلم بشيء لم يكن عنده"⁽⁴⁾.

(1) عتيق، عمر: دراسة أسلوبية في شعر الأخطل. رسالة جامعية: نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية. 2000. ص: 55.

(2) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 55.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 120.

(4) أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ت: الدكتور فايز الداية ومحمد رضوان الداية. ط: 2. دمشق: مكتبة سعد الدين. 1987. ص: 204.

ينظر: تكرار الاسم الموصول: ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 327، 354، 460. ابن خاتمة الأنصاري، جعفر: الديوان. ص: 39، 153، 204، 157.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 215، 225، 337، 339، 443، 600، 616، 620، 707. ابن الخطيب، لسان الدين:

الإحاطة. ج: 3. ص: 214، 350. ينظر: المقرّي، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 31، 120.

وظهرت هذه الصورة عند ابن زمرك، وهو يستعطف السلطان أبا الحجاج، ونرى أنه لجأ إلى استخدام الاسم الموصول "ما" ليدلّ على حاجته التي يريدها، وأدخل عليه حرف الجر "الباء" الذي يفيد الاستعانة. حيث يقول:

بما قد حُزتَ من كرمِ الخلالِ	بما أدركتَ من رتبِ الجلالِ
بما خُوِّلتَ من دينٍ ودنيا	بما قد حُزتَ من شرفِ الجمالِ
بما أوليتَ من صنعِ جميلٍ	يُطابقُ لفظهُ معنى الكَمالِ
تغمّدني بفضلكَ واغفرها	ذنوباً في الفَعَالِ وفي المَقَالِ ⁽¹⁾

(الوافر)

فالشاعر اعتمد في استعطافه على مقدمات بدأها بـ "ما". وجاءت النتيجة بعدها، لتظهر في قوله: "تغمّدني". والشعراء في التركيب الوصلي يتحركون بين نقطتين هما: الاسم الموصول وجملة الصلة⁽²⁾.

ب. أسلوب النداء: ويُعتبر من أساليب الإنشاء الطلبي، وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة، ينوب كلّ حرف منها مناب الفعل "أدعو"⁽³⁾. ولجأ الشعراء إلى تكرار الاسم الممدوح حرصاً منهم على التتويه به، والإشادة بذكره تفخيماً له في القلوب والأسماع⁽⁴⁾. وظهر هذا في أغراض المدح والفخر بالنسب والاستعطاف. ومن هنا ما جاء في مدح الغني بالله حيث يقول ابن زمرك:

يا ابنَ الإمامِ ابنِ الإمامِ ابنِ الإمامِ م ابنِ الإمامِ وقَدَرُها لا يُجْهَلُ⁽⁵⁾

(الكامل)

⁽¹⁾ ابن زمرك: الديوان. ص: 105.

⁽²⁾ الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 54.

⁽³⁾ ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعراب. ت: مازن المبارك وآخرون. دمشق: 1972. ص: 488.

⁽⁴⁾ ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. ج: 2. ص: 74.

⁽⁵⁾ ابن زمرك: الديوان. ص: 96.

يُنظر: المقرئ، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 115.

يُنظر: المقرئ: نفع الطيب. ج: 9. ص: 67.

فابن زمرك يسعى جاهداً ليؤكد على أصالة الغني بالله وأحقيته بتولي أمور المسلمين، فلجأ إلى تكرار "ابن الإمام". وجاء التكرار هنا لرفع الشأن والمنزلة والتعظيم، والدليل على ذلك، هو أنه أكد على أنه ابن إمام، وأبوه ابن إمام وجدّه ابن إمام، وهكذا...

ولجأ بعض الشعراء إلى تكرار المنادى وحذف حرف النداء، حيث يقول ابن الخطيب:

مولاي، مولاي إن أرضاك بذل دمي فقد أثيت به أسعى على قدمي⁽¹⁾

(البيسط)

واستخدم الشعراء حرف النداء كثيراً في أشعارهم، ولعلّ (الياء) من أكثرها استخداماً. والمتتبع لأشعار ابن زمرك يجده قد استخدم هذا الحرف أكثر من مئة مرة. ولجأ أكثرهم إلى تكراره إلى جانب غيره من حروف النداء الأخرى.⁽²⁾

وهذا ابن الخطيب يبني قصيدةً كاملة على تكرار حرف النداء (الياء)، في أثناء خطاب

يوجهه إلى ساقط أفرط في الكبر والتباهي حيث يقول:

يا طَّلَعَةَ الشُّومِ التي مَهْمَا بَدَّتْ	يَبْسَتْ عَفَاةَ النُّجْحِ مِنْ أَسْبَابِهِ
يا وَقَفَةَ النَّاعِي بِمَقْتَلِ واحدٍ	أَذكى على الأَحْشَاءِ حَرَّ مُصَابِهِ
يا مَنْ تَشَكَّى عَصْرُهُ مِنْ عَارِهِ	يا مَنْ تَبَرَّمَ دَهْرُهُ مِنْ عَابِهِ
يا مَنْ يَغْصُ بِهِ الزَّمَانُ نَدَامَةً	من كَفَّهِ وتَراهُ قَارِعَ نَابِهِ
يا مَنْ تَجَمَّلَ بِالْحَرَامِ وَإِنَّمَا	قَدَرُ الفَتَى ما كان تحت إهابِهِ ⁽¹⁾

(الكامل)

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان، ج: 2، ص: 554.

⁽²⁾ ينظر تكرار حرف النداء (الياء) ديوان ابن زمرك. الصفحات: 50 - 60 - 100. وديوان الملك يوسف الثالث: الصفحات 46. وابن

حاتمة الأنصاري. ص: 79. الكتيبة الكامنة. الصفحات: 41، 50، 105، 168، 169، 217.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 137، 442، 428، 429، 616.

ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3، ص: 84، 192. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4، ص: 125، 294.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2، ص: 49.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1، ص: 137.

واستطاع ابن الخطيب من خلال تكرار هذا الحرف، أن يجعل هذه الصفات الذميمة قريبةً من هذا الشخص. ولم يكتفِ بتكرار هذا الحرف، بل نراه يقرنه باسم الاستفهام (مَنْ) الذي يستخدم للعاقل⁽¹⁾. وكأنّه بهذا يوجّه نصحاً لبني البشر جميعاً، لكي يبتعدوا عن هذه الصفات، فهو بهذا يخرج من باب الهجاء إلى النصّح والإرشاد. وهذا يدلّ على شاعرية تتسم بالعبقرية والقدرة على استحضار الصور وربطها ببعضها ببعض.

ولجأ بعض الشعراء إلى تكرار البيت كاملاً، على نحو ما فعل ابن الخطيب حيث يقول:

مُثِيرُ رِيّاحِ العِزْمِ فِي حَوْمَةِ الوَعْيِ	وَمُخْتِطِفُ الأَبْطالِ يَوْمَ نِزالِهِ
مُثِيرُ رِيّاحِ العِزْمِ فِي حَوْمَةِ الوَعْيِ	وَمُخْتِطِفُ الأَبْطالِ يَوْمَ نِزالِهِ ⁽²⁾

(الطويل)

ومن قوله أيضاً:

رَحِيبةَ أَلْطافِ إِذا الوَقْدُ حَلَّها	تَكَنَّفَهُمُ غَمْرُ النِّوَالِ عَمِيْمُهُ
رَحِيبةَ أَلْطافِ إِذا الوَقْدُ حَلَّها	تَكَنَّفَهُمُ غَمْرُ النِّوَالِ عَمِيْمُهُ ⁽³⁾

(الطويل)

وظهر تكرار الأبيات عند ابن زمرك حيث يقول في باب المديح:

يا فخرَ أُنْدلسٍ وَعِصْمَةَ أَهلِها	يجزِيكَ عِناها اللهُ خَيْرَ جِزاءٍ ⁽⁴⁾
-------------------------------------	---

(الكامل)

ج. أسلوب الشرط: يستخدم أسلوب الشرط في اللغة ليصل بين أمرين، ويتكون من جملتين تربط بينهما أداة الشرط، والجملتان مترابطتان ارتباطاً بالنتائج بالمقدمات، أو ارتباطاً الغاية

(1) عدس، محمد: الواضح في قواعد النحو والصرف. ط: 1. عمان. دار مجدلاوي للنشر. 1991. ص: 93.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 484.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: المصدر السابق. ص: 551.

(4) ابن زمرك، الديوان. ص: 16. يُنظر التكرار في الصفحات: 41، 95، 113. ينظر تكرار عجز البيت عند ابن زمرك "نصر من الله

وفتح قريب" أزهار الرياض. ج: 2. ص: 198، 203، 204.

بالوسيلة، أو ارتباط العلة بالمعلول.⁽¹⁾ فهذا الأسلوب يميل إلى الجانب العقلي، الذي يعتمد على أسباب تصل في النهاية إلى نتائج متوقّعة. ونجد أنّ الشعراء يميلون إلى استخدام أدوات الشرط، بغية الإقناع والوصول إلى ما يريدون. وأكثروا من استخدام أداة الشرط "لو" ومن هذا ما جاء في فخر يوسف الثالث حيث يقول:

لو أنّ ما بي بالأفق من أسفٍ	ما لاح نوراً للأنجم الزهرِ
لو أنّ ما بي بالروض من كلفٍ	ما انتشقت منه رائحة الزهرِ
لو أنّ ما بي بالسحب من ألمٍ	ما أرسلت وأكفأ من المطرِ
لو كنت تفدي بالمال لابتدرتُ	أكفأنا بالهبات للبردِ ⁽²⁾

(الكامل)

هذه البنية التكرارية بدأت بحرف الشرط غير الجازم (لو). وهو حرف امتناع لامتناع ، فجواب الشرط يتمتع لامتناع فعل الشرط. وفعلها لا يمكن أن يكون قد حصل، وبالمحصلة جوابها لا يتحقق، لذلك لا جدوى منها، فأراد الشاعر هنا، أن يبيّن شدة الألم والأسف والأعباء، فلو وضعت على ظواهر الطبيعة لغيرت في نظامها من شدة الهموم المترتبة عليه. فالألفاظ المكررة هنا لا تكتسب أهميتها من القيمة العددية فحسب، وإنما من ارتباطها بالحالة الشعورية المسيطرة على الصياغة أيضاً، وهي حالة إثبات القوة له، ونفي الضعف والخوار، ووضعها في صدر الصياغة يضفي عليه أهمية توازر أهميته السابقة.⁽³⁾

وقد يتألف أسلوب الشرط في تكراره مع أساليب أخرى يلجأ الشاعر إلى تكرارها مجتمعةً على نحو ما جاء عند محمد بن عبد الله بن لب الأمي حيث يقول:

لو أنّ للبرد المنير كماله	ما ناله كسفٌ ونكسٌ محاق
لو أنّ للبحرين جودَ يمينه	أمن السفين غوائل الإغراق

(1) الخطيب، حسام وآخرون: اللغة العربية. ط: 2. حلب: منشورات جامعة حلب. 1985. ص: 77.

(2) يوسف الثالث: الديوان. ص: 78.

(3) مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص: 88.

لو أن للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم من الإشفاق⁽¹⁾

(الكامل)

فقد بدأ بتكرار حرف الشرط (لو)، بأن جعله أساساً للكلام، ثم أتبعه بتكرار آخر جاء من خلال حرف التوكيد "أن"، فازداد الكلام بذلك قوةً وترابطاً. وظهر إبداع الشاعر الفني من خلال إدخال تكرار ثالث وهو حرف (اللام). وكل هذا جاء ضمن سياق الجملة الإسمية التي سدّت مسد فعل الشرط، واستطاع بتعدد التكرارات أن يضع السامع في حالة من الشوق والانفعال والترقب، لما سيحدث من نتائج قد تظهر من خلال جواب الشرط.

ووجد الشعراء في أسلوب الشرط متنفساً، يستطيعون من خلاله أن يعبروا عما يجول في نفوسهم. (فالشرط يتعلق بمجموع الجملة)⁽²⁾.

وهذا يُظهر صدق ما جاء به الشاعر، فهو برهان على شيء سيحصل في المستقبل، أو أنه حصل في الماضي. إنَّ المنتبِع للأشعار التي ظهرت في هذا العصر، يجد أن كثيراً منها اعتمد على أسلوب الشرط.⁽³⁾ ولهذا فلم يجد ابن زمرك أسلوباً يعبر فيه عن حزنه بعد فقده لسلطانه الغني بالله غير هذا الأسلوب، لما فيه من فسحةٍ يستطيع من خلالها أن يأتي بالأدلة والبراهين، على أن هذا السلطان لم يأت مثله في أي زمان ومكان، وفي مقابل هذا، فهو متفائل بأن وليّ عهده سيكون عظيماً مثله. يقول:

لئن غرَبَ البدرُ المنيرُ محمدٌ لقد طلعَ البدرُ المكملُ يوسفُ
وإن رُدَّ سيفُ الملكِ صوتاً لغمده فقد سلَّ من غمِّ الخلافةِ مرهفُ

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. ص: 302.

⁽²⁾ أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص: 50.

⁽³⁾ أنظر: تكرار أسلوب الشرط، ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 117، 470، 475، 478.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 235، 285، 415، 458، 544.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 144. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. الصفحات: 131،

302.

318.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 1. الصفحات: 119، 149.

ينظر: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 99.

وإن طوتَ البُردَ اليماني يدُ البلى
وإن نضبَ الوادي وجفَّ معينُهُ
وإن صوحَ الروض الذي ينبتُ الغنى
وإن أفلعت سحُبُ الحيا وتفشَّعت
وإن صدع السَّمَلَ الجميع يدُ النَّوى
وإن راع قلبَ الدَّينِ نعيُّ إمامِهِ
فقد نُشرَ البردُ الجديدُ المُفَوِّفُ
فقد فاضَ بحرٌ بالجواهرِ يقذفُ
فقد أنبتَ الروضُ الذي هو يُخلفُ
فقد نشأتَ منها غمامٌ وكُفُ
بيوسفَ فخرِ المنتدي يتألَّفُ
فقد هُزَّ منه بالبشارة مَعْطِفُ⁽¹⁾

(الطويل)

فابن زمرك في أبياته هذه، يعتمد على أسلوب الشرط، (وهو بهذا يقيد الفعل بالشرط، و"إن" هي حرف شرط للاستقبال، وقد تستخدم للتفاؤل)⁽²⁾ وهذا بدا واضحاً في الأبيات. فالشاعر يظهر تفاؤلاً من خلال تعزية نفسه بأن هذا السلطان العظيم قد أورث ملكه إلى وليِّ عهد عظيم من شأنه أن ينهض بأعباء الدولة.

د. أسلوب الاستفهام: وهو من الإنشاء الطلب⁽³⁾، ويستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب.⁽⁴⁾ ولهذا فقد أكثر الشعراء من استخدام هذا الأسلوب في أغلب أغراضهم الشعرية. ووجد الشعراء باستخدام أدوات الاستفهام ملاذاً لهم، يستطيعون من خلاله أن يعبروا عن أغراضٍ كثيرة، كالتعجب والتقرير والإنكار.⁽⁵⁾ وجاء استخدام (مَنْ) واضحاً في أشعارهم المدحية ومراثيهم. ومن هذا ما جاء في رثاء ابن الجيّاب لأبي مسعود المحاربي حيث يقول:

ومن كعليّ ذي الشجاعة والرِّضا
ومن كعليّ ذي السَّماحة والنَّدَى
ومن كعليّ للوزارة قائماً
لإصراخٍ مذعورٍ وإيواءٍ مطرود
لإسباغٍ إنعامٍ وانجازٍ موعود
عليها بتصويبٍ عليها وتصعيدٍ

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 440.

(2) أنظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 183.

(3) عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص: 96.

(4) الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 97.

(5) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب. ص: 24 - 25 - 244 - 271 - 392.

ومن كعليّ للإدارة سالكاً لها نهجَ تليين مشوبٍ بتشديد⁽¹⁾

(الطويل)

ويكمل الشاعر تكراره لاسم الاستفهام (مَنْ) فهو يرفع من مكانة المرثي علي بن مسعود المحاربي. وخرج الاستفهام في هذه الأبيات إلى درجة التعظيم. ودلّ هذا على صفات عديدة أرادها الشاعر أن تكون ملازمة له، كالشجاعة والكرم والسيادة.

وخرج الاستفهام إلى معنى التعجب، ووجه خروجه، أن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب⁽²⁾. وهذا يتفق مع الشعراء في مديحهم، فحرصوا على إظهار ممدوحهم بصفات لم يستطع الآخرون أن يتصفوا بها. ومن هذا ما جاء في مدح ابن زمرك للسلطان الغني بالله حيث يقول:

مِنْ أَيْنَ لِلشَّمْسِ المَنِيرَةِ منطِقٌ	ببَيانِهِ دُرُّ الكَلامِ يَفصَلُ
مِنْ أَيْنَ لِلشَّمْسِ المَنِيرَةِ راحَةٌ	تَسخو إِذا بخلَ الزمانُ المُمجَلُ
مِنْ أَيْنَ لِلبَدْرِ المَنِيرِ شَمائِلُ	تَسري بِرِياها الصَّبَا والشَّمالُ
مِنْ أَيْنَ لِلبَدْرِ المَنِيرِ مَنابِلُ	بجِهادها تُنضِي المَطِيَّ الزُّلُّ ⁽³⁾

(الكامل)

وجاء تكرار اسم الاستفهام (أين) والمسبوق بحرف الجر، ليؤكد على المبالغة في إظهار الممدوح متفرداً بهذه الصفات. وإن تكرار أدوات الاستفهام، جعلها قادرةً على نقل الانفعالات بصورة بارزة عندنا، مما دفعنا لأن نرسم في خيالاتنا العديد من الصور المتخيّلة حول هذا الممدوح، كلها تبقى حبيسة في دائرة هذا الأسلوب.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 55.

⁽²⁾ عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص: 106.

⁽³⁾ ابن زمرك: الديوان. ص: 99 – 100.

ينظر: المقرئ، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 120.

المبحث الثاني: التقديم والتأخير:

إن الجملة العربية تخضع لترتيب ينظّم تتابع أجزائها في الهيكل الأساسي للبناء اللغوي النحوي، ومن ثم تستكمل عناصر أخرى يتمّ بها التعبير ونقل الآراء والانفعالات، فهناك التركيب الاسمي، وفيه يتقدم المبتدأ على الخبر. والتركيب الفعلي الذي يبدأ بالفعل والفاعل وبعده المفعول به.⁽¹⁾

وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلامٍ دفعةً واحدة، من أجل هذا، كان لا بدّ عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر. (والتقديم لا يرد اعتباراً في نظم الكلام وإنما يكون مقصوداً بما يلبي الحاجة وهذا هو سرّ التقديم)⁽²⁾.

فالأهميّة تلعب دوراً فاعلاً في بيان رغبة الشعراء في التقديم والتأخير، فالمتقدّم يخالف المألوف وهو مجيئه متأخراً، والمتأخّر في مقابل ذلك يأتي متقدماً للسبب المذكور، وكأنّه يضع السّامع في بؤرة التركيز على هذا المتقدّم.

ومن أساليب التقديم الشائعة ما جاء في باب تقديم المجرورات، والتي تعين الشاعر في تعبيره عما يبغى إيصاله، ومن هذا ما جاء في مخاطبة ابن الخطيب للوزير ابن الحكيم حيث يقول:

توارثت كريم الإصدار والإيراد	في سبيل الإلاه مجدّ
تي هي العذب في احتدام الجواد ⁽¹⁾	في سبيل الإلاه أخلاقك اللا
ترويه ونقل مصحح الإسناد	في سبيل الإلاه علم

⁽¹⁾ الدابة، فايز: جماليات الأسلوب. ص: 76.

⁽²⁾ أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص: 135.

ينظر: عباس، فضل: إعجاز القرآن. ط: 2. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1977. ص: 196.

ينظر: عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص: 149.

⁽¹⁾ الجواد: شدة الحرّ.

لي ثناءً كما علمتَ هو الوَشْيُ وصــــنعاءُ في فمي وفؤادي⁽¹⁾

(الخفيف)

فابن الخطيب يلجأ إلى تقديم شبه الجملة وهي الخبر على المبتدأ، وهذا التقديم جاء ليرفع من مكانة ابن الحكيم، حيث إنّه جعل حياته كلّها مكرّسةً لله. فنراه يقدّم قوله (في سبيل الإلاه) ليؤكد على هذا الأمر، وهو بهذا فقد قصر الصفة على الموصوف. فالمجد والخلق والعلم، كلّها أمور تآلفت لتصل إلى تحقيق هذا الهدف.

ويعود ابن الخطيب في نهاية الكلام ليؤكد على ثنائهِ على هذا الشخص من خلال الأسلوب نفسه.

إنّ أهميّة أمرٍ، أو شخصٍ أو انفعالٍ، تلعب الدور الأساسي في التقديم. وهذه الأهميّة مرتبطة بالسياق وتوجّههُ، ونقصد هنا ما يشغل الشاعر من قضايا ومواقف وانفعالات. إنّ تقدّم المفعول به يحدّد نقطة الاهتمام التي سوف ينصبّ التركيز عليها. وهنا يوجه السّامع كلّ تركيزه لكي يوضع في دائرة المفعول به. يقول ابن خاتمة الأنصاري مغرباً بالصمت:

لسانك اسجُنْ وتُطِلْ حَبْسَهُ إن شئتَ إكراماً وتصويناً
لو لم يكنْ للسّجِنِ أهلاً لما غدا بقعرِ الفم مسّجوناً⁽²⁾

(السريع)

فالشاعر لجأ إلى تقديم المفعول به على الفعل والفاعل؛ لأنّ الإنسان إذا أراد أن يحفظ كرامته وهيبته بين الناس، فلا بدّ له من أن يحافظ على كلامه، وهذا لا يتأتى له إلا من خلال ضبط لسانه.

ومن هذا ما ظهر عند ابن زمرك، فهو يقدّم ممدوحه ليظهره بصفاتٍ جعلها متأصلةً فيه، فالغني بالله سلطان فان الجميع بأفعاله التي عجز عن فعلها سائر الملوك، يقول:

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين. الديوان. ج: 1. ص: 296.

⁽²⁾ ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 159.

نشرتَ مَحْمَدَكَ الرَّفَّاقُ فَأَصْبَحَتْ
علمتَ مَلُوكُ الأَرْضِ أَنَّكَ فخرُها
تطوى بها الأَنْجَادُ والأَغْوارُ
ناجتُكَ قاصيةُ البلادِ بشكرِها
فلها ما تبتغيه بدارُ
وأتي رسُولُكَ بالذي تختارُ
وافتُكَ من مِصرَ الهدايا تَمْتري
مِنكَ القَبُولَ ونعمَ ما تَمْتارُ
خطبتُ نوالَكَ بالثنا أعلامُها
فأنتُكَ منها الكُتُبُ والأشعارُ⁽¹⁾

(الكامل)

فابن زمرك يلجأ إلى تقديم المفعول به على الفاعل، سعياً منه للتأكيد على ما جاء به من صفاتٍ وأفعالٍ تتعلق بهذا السلطان دون غيره.

(1) ابن زمرك، محمد: الديوان، ص: 159.

المبحث الثالث: الطباق:

وهو الجمع بين الشيء وضده، أو بين معنيين متقابلين في الجملة⁽¹⁾ ومنهم من اشترط فيه أن يضع المتكلم أحد المعنيين المتضادين من الآخر وضعاً ملائماً. فيجمع بين الشئين على حذو واحد، فيكون الشيطان للمعنيين، والحذو الواحد: اللفظة.⁽²⁾

وحاول الشعراء من خلال استخدامهم لهذا اللون من البديع، أن يظهروا الشيء من خلال ضده. ويعدُّ الطباق من الوسائل الفنية التي اعتمد عليها الشعراء في إقامة علاقات جديدة بين مفردات اللغة.

ومن الشعراء من أقام قصائد كاملة من خلال الجمع بين المتناقضات، فهم يعبرون عن الشيء بضده. يقول ابن زمرك واصفاً محبوبه:

رَضِيْتُ بِمَا تَقْضِي عَلَيَّ وَتَحْكُمُ أَهَانُ فَأُقْصِي أَمْ أَعَزُّ فَأُكْرِمُ
عَلَى أَنَّ رُوحِي فِي يَدَيْكَ بِقَاوِهَا بُوَصْلِكَ تُحْيِي أَوْ بِهَجْرِكَ تُعْدِمُ
وَأَنْتَ إِلَى الْمَشْتَاقِ نَارٌ وَجَنَّةٌ بِيَعْدِكَ يَشْقَى أَوْ بِقُرْبِكَ يَنْعَمُ⁽³⁾

(الطويل)

وابن زمرك يصور علاقته بالمحبوبة من خلال بيان العلاقات المتناقضة التي يحيها، فالعز في حياته لا يظهر إلا من خلال زوال حالة الهوان التي يعيشها، والبقاء الذي يكون مرهوناً بالوصال لا يتحقق إلا بذهاب الهجر والنكران. ونتيجة لما سبق، فهو يقف أمام طريقتين متناقضتين؛ هما: طريق النعيم الذي لا يتحقق إلا بانتهاء طريق الشقاء.

(1) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 477.

(2) أنظر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وأدابه، ونقده. ج: 2. ص: 7.

(3) ابن زمرك: الديوان. ص: 109.

(إن الجمع بين الأمور المتضادة، يكسوها جمالاً وبهاءً، فالضدُّ - كما قالوا - يظهر حسنَهُ الضدُّ، ولا بدَّ أن يكون هناك معنى و مغزى وراء الجمع بين هذين الضدين في إطار واحد ، وإلا كان هذا الجمع عبثاً وضرباً من الهذيان)⁽¹⁾.

وكان للظروف السياسية التي سادت الأندلس آنذاك، أثر واضح في استخدام الشعراء للطباق، فأوجدوا من خلاله مقارنةً بين واقعين: أولهما: واقع اتسم بالعز والقوة، وثانيهما: واقع يتسم بالذلّ والتراجع. فالعرب أصبحوا لقمة سائغة بيد الاسبان، بعد أن كانوا أسياداً على أرضهم. وخير من عبّر عن هذا الواقع أبو البقاء الرندي حيث يقول:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانٌ فلا يغرُّ بطيب العيش إنسانٌ
هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ من سرّه زمن ساءته أزمان⁽²⁾

(البيسط)

وأظهر الشعراء في هذا العصر براعةً في الوصول إلى ما يريدون، وهنا تفاوتت هذه البراعة من شاعر إلى آخر، والمتتبع لأشعار ابن الخطيب يرى هذه البراعة واضحةً في أشعاره، فهو يعطي الفكرة مكتملة المعالم من خلال عبقرية نافذة، في الجمع بين هذه الأضداد فنراه يمدح الغنيّ بالله قائلاً:

فمن استجار غلاك عزّ جواره وعزير قوم، لم يطعك، ذليل⁽¹⁾

(الكامل)

وابن الخطيب في هذا البيت، يمدح الغنيّ بالله من خلال بيان أن الطاعة لهذا الملك واجبةٌ على الجميع، ومن لم يطعه، سيؤول في النهاية ذليلاً وإن كان عزيزاً في قومه.

وهذا الملك يوسف الثالث، استطاع أن يصوّر لنا، أن بني نصر هم حماةً للدين، فهم

الذين نشروا الأمن والرخاء في ربوع الأندلس حيث يقول:

(1) قيود، بسيون: علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع. ص: 136.

(2) المقرّي، أحمد: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 373.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 487.

لمن راية حمراء ترتاح بالنصر
تطيف حواليتها حماة بني نصر
إلى جبل بالفتح يصدق فآله
فبعد تولى العسر لا بد من يسر⁽¹⁾

(الطويل)

فهؤلاء الملوك - كما يرى يوسف الثالث - استطاعوا أن يخلقوا من رحم الهزيمة
نصراً، وأن يجعلوا العسر يسراً، وهذا الفعل لا يتأتى لأناس عاديين.

وظهر الطباق واضحاً في أشعار الزهد والحكمة،⁽²⁾ فهو أساس لها، فعليه أقاموا الحجج
والبراهين، ففرقوا الباطل بإظهار الحق، والسعي وراء الآخرة من خلال نبذ الدنيا والابتعاد
عنها. يقول ابن خاتمة الأنصاري:

أعرض عن الشيء إن تهواه تحظ به
واحرص عليه إذا تاباه يمتنع
قد أقسم الدهر إيماناً مغلظةً
إن ليس ينجح حرصاً فاسعاً أو دغ⁽¹⁾

(البيسط)

فابن خاتمة يتمثل قول أبي بكر الصديق "أطلبوا الموت توهب لكم الحياة" بالإعراض عن
الشيء يقابله الحظ الطيب، ولكن الحرص يقابله الضياع، فهو يقرن الإعراض بالحرص. وفي
البيت الثاني يدعنا أمام خيارين، إما السعي وراء الشيء سعياً دؤوباً، أو أن نترك هذا
الأمر للآخرين.

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 65.

(2) ينظر أشعار الحكمة والزهد في: ابن الأحرر، إسماعيل: نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان. الصفحات: 302، 326، 339.

ينظر: الملك يوسف الثالث: الديوان. الصفحات: 33، 46، 70، 71، 183.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. الصفحات: 291، 324. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1.

الصفحات: 96، 288. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. الصفحات: 176، 180، 339، 452.

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 154، 156، 157، 161.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 574.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عيباض. ج: 2. ص: 317.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. الصفحات: 35، 36، 44، 47، 53.

(1) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 156.

ونرى أن الطباق واضحاً في شعر الحكمة عند الملك يوسف الثالث، فكان لهذا اللون من

البدیع الأثر الواضح في قوة التعبير والبرهان حيث يقول:

خليلي مهلاً فالزمانُ كما تدري ولا بدّ من يسر على أثر العسرِ
فمهما دهى صحوٌ فلا بدّ من قَطْرِ ومهما دجا خطبٌ فلا بدّ من فجرٍ⁽¹⁾

(الطويل)

فالشاعر يبيّن أنّ دوام الحال من المحال، فليس هناك شيء ثابت في هذه الحياة، فالعسر

يعقبه اليسر، ومهما اشتدّت الأزمات فلا بدّ أن تنفرج يوماً ما. وإن أُجذبت الأرض، فلا بدّ من

أن تمطر السماء، فالفجر يبزغ من رحم الظلام.

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 70.

المبحث الرابع: التضمين والاقتباس:

لقد عَرَفَ شعراء بني الأحمر التضمين كغيرهم من شعراء الأندلس والشعراء المشاركة، ويرجع هذا إلى عامل التأثر والتأثير بين الشعراء أنفسهم. وعلاوة على هذا فقد لجأ إليه بعضهم من باب الإعجاب بكبار الشعراء أمثال المتنبي وأبي تمام وغيرهم من كبار شعراء المشرق والأندلس.

والتضمين: هو أن يضمّن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن الشاعر مشهوراً،⁽¹⁾ فإن كان معروفاً فلا يشترط التنبيه⁽²⁾. (وأحسن وجوه التضمين ما دَخَلَهُ التورية والتشبيه)⁽³⁾.

وجاء التضمين واضحاً في أشعارهم، وربما يكون المتنبي من الشعراء الذين أثروا في أشعار هذا العصر، لما له من عبقرية أعجب بها كبار شعرائهم أمثال: ابن زمرك، وابن الخطيب، وابن خاتمة الأنصاري، وغيرهم... والملاحظ في تضمينهم هو ذكر البيت صريحاً دون تغيير عليه، وإن حدث هذا يكون طفيفاً محتفظاً بإيقاع موسيقي ثابت. ومن ذلك ما جاء عند ابن الخطيب في أبياته حيث يقول:

ومحتمل الركبَان طيبَ حديثه " فيأتيك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ⁽¹⁾

(الطويل)

وهذا البيت ضمّنه من قول طرفة بن العبد حيث يقول:

سـتبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ⁽²⁾

(الطويل)

(1) ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ج: 2. ص: 84.

(2) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 580.

(3) أنظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: المصدر السابق. ص: 582.

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 312.

(2) طرفة بن العبد: الديوان. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1980. ص: 57.

ونرى أن شاعراً كبيراً كابن الخطيب لم يأخذ من شعراء غير معروفين، ولهذا فكلُّ الذين تأثروا بهم، هم من الشعراء الكبار وإن كانوا من النساء، فقد تأثر ببعض أبياته بالخنساء حيث يقول:

هيهات يَجِدُ فَضْلَ مَجْدِكَ جاحِداً إنّ العُلاَ عَلمٌ وفَخْرٌ نارُهُ⁽¹⁾

(الكامل)

وهذا البيت مأخوذ من قول الخنساء:

وإنَّ صَخْرًا لتَأْتُمُ الهدَاةُ بِهِ كأنَّهُ عَلمٌ في رأسِهِ نارُهُ⁽²⁾

(الكامل)

وابن خاتمة يعاتب محبوبته التي تمكّنت من قلبه، ولكنها تُعرض عنه زيادةً في تعذيبه، وهو لا يغيب عن ذهنه أن يصوّر حاله بحال المتنبّي الذي أحبّ سيف الدولة، ولكنه لم يرع هذه المحبة. يقول ابن خاتمة الأنصاري مصوراً هذا:

أنتِ الأَميرُ وأنتِ خصمي فاحكمي لي أو عليّ فلن أسأئلُ: ذالِمَةٌ؟⁽³⁾

(الكامل)

ونرى معنى هذا البيت مأخوذ من قول المتنبّي حيث يقول:

يا أعدلَ الناسِ إلا في مُعامَلتي فيكَ الخصامُ وأنتِ الخصمُ والحَكَمُ⁽¹⁾

(البيسط)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 373.

(2) الخنساء: الديوان. بيروت: منشورات دار الحياة. ص: 51.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 112.

(1) المتنبّي، أبو الطيّب: الديوان. ص: 271.

فالتضمين لم يقتصر على أشعار البعض منهم دون الآخر، بل ظهر عند جميع شعرائهم⁽¹⁾ فهو ظاهرة عامّة نلاحظ فيها احتراماً كان يبيديه هؤلاء لمن سبقوهم من شعراء المشرق وغيرهم.

وقد ضمّوا أشعارهم الكثير من الأمثال، وساقوها تحقيقاً لغاياتٍ في نفوسهم، فالمثل يعطي الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ، ولذلك جاءت الأبيات متناسقة مع مضمون القصيدة، ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب حيث يقول:

مَنْ كَعَمَرُو مُضْنِي الْبِرَاجِمِ وَالْمُدَّ نِ وَقَدْ أُلْقِحَتْ حُرْبُ الشَّدَادِ⁽²⁾

(الخفيف)

والبراجم: هم قومٌ من تميم. وفي المثل "إنّ الشقيّ وافدُ البراجم"⁽³⁾. ويضرب لمن يوقع نفسه في هلكةٍ طمعاً.

ومن الذين ضمّوا أبياتهم بعض الأمثال، ابن خاتمة الأنصاري، حيث يقول في حفظ اللسان والحضّ على صونه:

لسانك كالسيف في شكله وأعدى من السّيف في سطوته

فاغمد ظبأه فقد يُنقى على حاملِ السّيف من شفرته⁽¹⁾

(المتقارب)

⁽¹⁾ ينظر التضمين في: ابن الخطيب: الديوان. ج: 2. فهرس التضمينات والاقتياسات الشعرية. ص: 819 - 820.

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري: الديوان: الصفحات: 97 - 99 - 100 - 108 - 112 - 121 - 156.

ينظر: نثير فرائد الجمان، الصفحات، 316 - 317.

ينظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب. ص: 360.

ينظر: ابن زمرك: الديوان: فهرس أشعار سائر الشعراء. ص: 194.

ينظر: يوسف الثالث: الديوان. ص: 39 - 46 - 61 - 62 - 109.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 395.

⁽³⁾ العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج: 1. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: 2. بيروت: دار الفكر. 1988. ص: 121.

⁽¹⁾ ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 159.

فقد ضمّن أبياته المثل الذي يقول: "مقتلُ الرّجل بين فكّيه"⁽¹⁾. ولذلك نرى أن تضمين الأشعار بالعديد من الأمثال، قد جاء من أجل تدعيم مقولة الشاعر وما يؤمن به.⁽²⁾

أمّا الاقتباس: "فهو تضمين النثر أو الشعر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما، ويجوز أن يغيّر في الأثر المقتبس قليلاً"⁽³⁾. ونحن نظنّ أن سبب إطلاق هذه التسمية على هذا النوع من المحسنات اللفظية، راجع إلى قداسة المقتبس منه وهو القرآن الكريم والحديث الشريف. "فالقبسُ شعلَةٌ من نارٍ تَقْتَبَسُ من معظم النَّارِ بقصدِ الهداية"⁽⁴⁾. ومنهم من ذهب إلى القول: "إنّ الاقتباس يجب أن يحصل دون شعور المقتبس، فإن شعر باقتباسه، فلا يكون اقتباساً، بل استشهداً"⁽⁵⁾. وفي الاقتباس تكون الصلة بين المعنى اللغوي والمعنى البلاغي ظاهرة؛ "لأنّ المقتبس مستفيدٌ بما اقتبسه"⁽⁶⁾.

فالأصل في الاقتباس: هو تقوية النصّ وتوضيح المعنى، إذا ما عدنا إلى بدايات بني الأحمر وجدناهم حريصين على إرجاع نسبهم إلى أنصار الرسول الكريم، لهذا نرى أن كثيراً من شعرائهم قد تنبّه إلى هذه القضية، فحاولوا أن يظهروا لهم بأنهم على معرفة بكتاب الله وسنته، فجاء إكثارهم للاقتباس من القرآن والحديث الشريف، وظهر هذا واضحاً في المدائح النبوية التي كانوا يلقونها أمام سلاطينهم. ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في مدح رسول الله حيث يقول:

(1) العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج: 2.

(2) ينظر: تضمين الأمثال في: ابن الخطيب: الديوان. ج: 2. ص: 821 – 822.

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 41 – 165.

ينظر: يوسف الثالث: الديوان. ص: 128 – 1299.

ينظر: أزهار الرياض. ج: 2. ص: 18 – 51. الكتيبة الكامنة: ص: 94 – 178 – 181.

(3) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 575.

ينظر: الجارم، علي وآخرون: البلاغة الواضحة. ط: 21. مصر: دار المعارف. 1969. ص: 270.

(4) الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. 727.

(5) قيود، بسبوي: علم البديع، دراسة تاريخية وفتية لأصول البلاغة ومسائل البديع. ص: 268.

ينظر: العلي، فيصل: البلاغة الميسرة في المعاني والبيان والبديع. ص: 221.

ينظر: معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ص: 224.

(6) المطعني، عبد العظيم: البديع من المعنى والألفاظ. ص: 195.

ينظر: الصابوني، محمد: الموجز في البلاغة العربية والعروض. ط: 1. بيروت: المكتبة العصرية. 1998. ص: 84. 1

كَدَحْتَ إِلَى رَبِّ الْجَمَالِ مُلَاقِيًا "فيا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ"⁽¹⁾

(الطويل)

فابن الخطيب أراد أن يظهر المعاناة التي واجهها الرسول الكريم في بداية دعوته، ف جاء بالفعل "كدح" وهو الإجهاد في العمل، ثم اقتبس الآية الكريمة "يا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فملاقية"⁽²⁾ ليرسِّخ من حجم المعاناة في أذهاننا، وجاء اسم الفاعل الذي يدلُّ على الفعل ومَنْ قام به، مرتبطاً بالفعل "كَدَحَ". فالإقتباس ظهر في كثير من أشعارهم، فاستعانوا به على مخاطبة الآخرين في معظم قضاياهم التي تمرَّ بهم، ومن هذا ما جاء عند أبي القاسم الخضر بن أحمد بن أبي العافية، في وصفه للفقر والغنى، حيث يقول مخاطباً زوجته:

وهُزِّي إِلَيْكَ بِجُذْعِ الرَّضَى تُسَاقِطُ عَلَيْكَ الْأَمَانِي ثَمَاراً⁽³⁾

(المتقارب)

ويظهر أن زوجته لم تكن قانعةً بالحياة معه، ولهذا فهو يحثُّها على الرضى بالقليل والصبر على ما قسم الله لهما، وهو يستحضر قصة مريم من خلال اقتباسه للآية الكريمة: "وهزِّي إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْباً جَنِيًّا"⁽⁴⁾. والشاعر في هذا الاقتباس يحاول أن يقيم على زوجته الحجَّة من خلال الإقناع، فمريم أثناء ولادتها عيسى لم يكن لديها سوى حباتٍ من التمر تقطت بها.

وإلى جانب القرآن الكريم جاء اقتباسهم من الحديث الشريف، وهذا نلمحه في أشعار ابن الخطيب واضحاً، ومن هذا قوله منشداً السلطان أبا الحجاج بن نصر:

"مطلُّ الغنيِّ ظلمٌ" ففيم ظلمتني؟ ولو ليت ديني عن وجودٍ يسارٍ⁽¹⁾

(الكامل)

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 225.

(2) القرآن الكريم: سورة الانشقاق. آية 6.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. ص: 181. ج: 2.

(4) سورة مريم: آية 25.

(1) ابن الخطيب لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 368.

فهو يضمن قوله الحديث الشريف "مطلُ الغنيِّ ظلمٌ"⁽¹⁾ فهو بهذا يوجه لوماً للسلطان أبي الحجاج على تأخره في إعطياته له. واستحضر حديث الرسول؛ لينبّه أبا الحجاج ويحذّره من أن يكون كذاك الرجل الغنيّ الذي يماطلُ في أجر عامله؛ وهذا مكروه عند رسول الله. وبهذا الاقتباس، استطاع ابن الخطيب أن يكشف مهارته في إحكام الصلة بين كلامه وبين النصّ الذي اقتبسَهُ.⁽²⁾

فالاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، دليل قاطع يقوّي ما ذهب إليه الشاعر من أفكار ووجهات نظر.

ولجأ ابن خاتمة في وعظه إلى الاقتباس من الحديث الشريف يقول:

إذا وجدتَ فجُذَّ للنَّاسِ قاطبةً فالحالُ تفنى ويبقى الذكرُ أحوالاً
لاسيما ورسولُ الله ضامنُهُ أنفق ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً⁽³⁾

(البيسط)

فابن خاتمة يلجأ إلى مدح البذل والعطاء والحضّ عليهما من خلال الاستعانة بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يقول فيه: "أنفق يا بلال ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً".

ويظهر الاقتباس واضحاً في أبيات أحمد بن علي الهوارى، ويعرف بابن جابر، حيث يقول في حضّ الناس على حسن النية:

حسنُ النيةِ ما اسطعتَ ولا تتبّع في النَّاسِ ما قد نوى

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. ت: طه عبد الرؤوف سعد. المنصورة مكتبة الإيمان. 2003. ص: 493. باب الاستقراض.
(2) الزين، نبيل: المرشد في البلاغة. ط: 1. عمّان: دار أسامة. 1996. ص: 107. ينظر الاقتباس في: المقرئ: أزهار الرياض. ج: الصفحات: 198 - 203 - 204. ينظر ابن زمرك: الديوان: فهرس الآيات القرآنية. ص: 189. ينظر ابن الخطيب: الديوان. ج: 2. فهرس التضمينات والاقتباسات القرآنية والتضمينات الحديثية. الصفحات: 815 - 816 - 817 - 818. ينظر ابن الخطيب: الإحاطة. ج: 4. الصفحات 103 - 213 - 521. ينظر ابن الخطيب الكتيبة الكامنة. الصفحات: 181 - 258. ينظر: ابن خاتمة: الديوان. الصفحات: 65 - 94 - 137 - 155 - 164 - 211. ينظر نثير فرائد الجمال: 238 - 247. ينظر يوسف الثالث: الديوان: 17 - 65 - 86. ينظر: المقرئ، أحمد: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. الصفحات: 202، 203، 204 - 205، 266.

(3) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 156 - 157.

إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، مَنْ يَنْوِ شَيْئًا فَلَهُ مَا قَد نَوَى⁽¹⁾

(الرمل)

وقد أخذ هذا البيت من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرٍ عَمَلٌ" ⁽²⁾.

الموسيقا الداخلية

⁽¹⁾ المقرئ، أحمد: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج: 9. ص: 191.

⁽²⁾ البخاري، محمد: صحيح البخاري. ص: 25.

المبحث الأول: إيقاع الحروف:

جاءت البنية الإيقاعية للحروف التي تشكلت منها قصائد الشعراء في أغراضهم المختلفة، مواكبةً للغرض الذي يهدفون إليه، ولهذا فإننا نلاحظ تفاوتاً في استخدامهم لها، فالحرف جاء عندهم ليشكّل لبنةً تُساهم في تشكيل هيكل القصيدة العام. وإذا ما ألقينا نظرةً فاحصةً على هذه الأغراض، فإننا نجد أنها قد جاءت في بنيتين إيقاعيتين مختلفتين، أولها: ما جاء في بنية إيقاعية صاخبة تتميز بموسيقاها العالية، والأخرى، اتّسمت بالإيقاع الهادئ الذي يميل إلى السكون.

ولجأ الشعراء إلى تزيين ألفاظهم بألوان من البديع اللفظي من أجل تحسين الكلام عندهم. "وأصل الحسن في هذا التزيين؛ هو أن تكون الألفاظ تابعةً للمعاني، فإنّ المعاني إذا أرسلت على سجيّتها، وتُركت وما تريد، طلبت لأنفسها الألفاظ، ولم تكتسب إلا ما يليق بها"⁽¹⁾.

ومن الألوان البديعية التي ظهرت في أشعارهم: الجناس، والسجع، والتصريع، وردّ العجز على الصور، إضافة إلى تعدد القوافي داخل البيت الواحد.

الجناس:

وهو تشابه الكلمتين في النطق واختلافهما في المعنى، ويسمى التجنيس والتجانس والمجانسة.⁽¹⁾ والجناس نوع من أنواع التكرير بالمعنى العام.⁽²⁾ ويفيد في خلق تماثل إيقاعي داخل النص.⁽³⁾ والجناس يحتاج إلى توازن دقيق بين أجزاء الكلام المتجانس والكلمة نفسها. وممّا جاء في باب الجناس قول ابن الخطيب:

مَآ لِي أَعَذَّبَ نَفْسِي فِي مَطَامِعِهَا وَالنَّفْسُ تُزْرِي بِتَهْدِيْبِي وَتَهْدِي بِي
وَإِذَا اسْتَعْنَتُ عَلَى دَهْرٍ بِتَجْرِبَةٍ تَأْبَى الْمَقَادِيرُ تَجْرِيْبِي وَتَجْرِي بِي⁽⁴⁾

(1) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 554.

(2) ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدوه. ج: 1. ص: 321.

ينظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 535.

(3) السيد، عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير. ط: 2: بيروت: عالم الكتب. 1986. ص: 102.

(4) ابن معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ص: 100.

(4) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 147. ينظر: ابن الأحرر: نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان. ص: 251.

(البسيط)

فابن الخطيب يظهر دقةً في اختيار ألفاظه، ويظهر الجرس الموسيقي في توالي حروف المدّ في قوله: "تهذيبي وتهذي بي" و "تجريبي وتجري بي" فالياء حرف مدّ يحتاج إلى نفس طويل وجهد واضح في نطقه، والكلمة التي تشتمل على واحدٍ من حروف المدّ، يصبح لها إيقاع واضح، لأنّ النغمة تتولد من خلال تطويل النفس في هذا الحرف، ويكون الصدى فيه طويلاً⁽¹⁾ وهذا يتناسب مع جوهر الأبيات ومضمونها، فعذاب النفس منبته الطمع، والمقادير تتحكم بحياة الإنسان على طولها حتى وفاته.

ومن قوله في الجناس:

إِنَّ الصَّادَاقَةَ لَفِظَةٌ مَدْلُولُهَا فِي الدَّهْرِ كالعَنْقَاءِ بَلُّهُ أَعْرَبُ
كَمْ فَضَّةٌ فَضَّتْ، وَكَمْ مِنْ ضَيْعَةٍ ضَاعَتْ، وَكَمْ ذَهَبٌ رَأَيْنَا يَذْهَبُ⁽²⁾

(الكامل)

واستطاع الشاعر أن يعبر عن موقفه في الصداقة من خلال توليد معانٍ جديدة، باستخدام هذا اللون من البديع. فالفضة والذهب يُؤلفان بين الأخوان والأصحاب، وهما اللذان يبينان الضياع، ولكنهما في الوقت نفسه يهدمان ما بينهم من جسور المودّة والمحبة.

والتطابق الإيقاعي بين ركني التجانس يتعاقب مع المعاني وإحساس الشاعر بها، على الرغم من تباين مدلولهما في الواقع، فهما مختلفان في المعنى واقعاً، لكنهما تتحدان في نفس الشاعر إحساساً، "ومن هنا تأتي مهمة الشاعر في المزج والجمع بين العناصر المتباعدة، وتحقيق الوحدة فيها من خلال عاطفته وإحساسه"⁽¹⁾.

⁽¹⁾ عبد الله، محمد: جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقديّة والفنيّة والفكرية. ط: 1. القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية. 1993. ص: 293.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 111.

ينظر: الجناس في الصفحات: 95، 100، 116، 129، 131، 164، 167، 230، 231، 337، 382، 385، 394، 511، 513.

514، 526، 527، 528، 533.

⁽¹⁾ مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث: ص: 78.

يقول الملك يوسف الثالث:

والملحدون بما قالوا وما فعلوا للسيف ما كتبوا والمحو ما كتبوا⁽¹⁾

(البيسط)

الجناس عند هذا الملك، صادر عن طبع لا عن تكلف، وجاء عفويًا، والمعنى هو الذي يطلبه، والجناس وقع بين الفعلين "كتبوا" الذي جاء على وزن "فعل" ويدل على التكرير، والمعنى فيه أن الأعداء يحشدون الكتائب للقتال على وجه الكثرة. والفعل الثاني هو "كتبوا" وهو من باب الكتابة. ويظهر الشاعر براعته من خلال الربط بينهما برابط الجمع الذي تم من خلال الضمير وهو "واو الجماعة".

ونجد هذا اللون من البديع ظاهراً في أشعار ابن زمرك وابن خاتمة وابن الخطيب. فلا نكاد نجد قصيدة تخلو منه. يقول ابن زمرك:

كم مشهد زحف النبي لحربه في معشر الأنصار نعم المعشر⁽²⁾

(الكامل)

ومما ظهر عند ابن خاتمة قوله:

مجال لطفك بين النفس والنفس وسر هديك بين النار والقبس
غرته غرة دنيا بالصبا فصبا وأنستته بتهوين الهوى فنسي⁽¹⁾

(البيسط)

فالشاعر يبدأ قصيدته بتمجيد وحمد الله تعالى، فيقول: إن حياة الإنسان ليست إلا إمساك النفس باستمرار جريان النفس بلطف سعت إلى الدنيا ونسيت الآخرة. فكان هذا وبالاً عليها،

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 5.

(2) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 46.

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 33، 35.

ولجأ ابن زمرك إلى استخدام كلمة (الصَّبَا) لما فيها من دلالات التمتع بالدنيا وعدم الاكتراث بالآخرة، وكلمة (صَبَا) "بمعنى الجهل والفتنة"⁽¹⁾.

فالشاعر يستخدم كلمة (مَعَشَرَ) في معنيين مختلفين، ففي الأولى جاءت في معنى الجماعة، والثانية جاءت في باب حسن المعاملة، وكأنه بهذا يحصر الشجاعة ومؤازرة المظلوم في جماعة الأنصار. فهو من خلال هذه الأبيات أعادنا إلى نسب بني الأحمر الذي يتصل بهم.

فالشعراء استطاعوا من خلال الجناس أن يوجدوا تآلفاً في إيقاع الحروف داخل الكلمات، فجاءت كقطرات الماء التي تتساب من جدول، مشكلة حركية واحدة تدل على روعة وجمال فائقتين.

ومن الجناس ما نراه عند ابن زمرك حيث يقول:

هُوَ النِّجْمُ حَقًّا قَدْ تَطَّلَعَ مِنْ بَدْرِ لَوَارِثِ أَنْصَارِ النُّبُوءَةِ فِي بَدْرِ⁽²⁾

(الطويل)

وجاء الجناس بين كلمتين هما (بدر) الأولى، وتدل على الجمال والإبداع، وكلمة (بدر) الثانية، وهي معركة بدر التي انتصر المسلمون فيها، والشاعر هنا يربط السلطان الغني بالله بحادثة معركة بدر، وهو بهذا يرفع من مكانته بين الملوك.

ومن الجناس والتصريع ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

بَدْرٌ تَمَّ بِأَفْقِ قَلْبِي تَجَلَّى جَلَّ فِي الْحُسْنِ أَنْ يُنَاعَتَ جَلَا
حَرَمَ الْوَصْلِ وَالصُّدُودَ أَحْلَا وَضُرُوبَ الْأَسَى بِصَدْرِي أَجَلَا
كَيْفَ قَلَّ لِي: عَنِ الْهَوَى يَنْسَلَى مَنِ حَسَاهُ بَوَجْدِهِ يَنْصَلَى⁽¹⁾

(1) أنظر: الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ص: 1679.

(2) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 193.

ينظر: الجناس: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 46، 48، 53، 57، 58، 61، 63، 71، 79، 81، 247، 235، 417، 418.

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 29، 33، 34، 35، 42، 45، 65، 67، 68، 72، 74، 75، 77، 79، 81.

(الخفيف)

إنّ الإيقاع الموسيقي يبدو واضحاً في هذه الأبيات، وجاء نتيجةً لاعتماد الشاعر على أكثر من لون بديعيٍّ. فاعتمد على الجناس، والطباق، والتصريع، وردّ العجز على الصدر، وكلّ هذا جاء في آن واحد. ففي البيت الأول نرى الجناس ظاهراً من خلال كلمتي (جلّ، جلا). أمّ البيت الثاني، فقد ورد فيه الجناس من خلال كلمتي (أحلا، أحلا)، ومنه فقد لجأ إلى ردّ العجز على الصدر. وفي البيت الثالث، ظهر التصريع في قوله: (يَتَسَلَّى: فعلاتن) و(يَتَصَلَّى: فعلاتن) وهما في نفس الموقع جناس غير تام.

ويظهر إبداع الشاعر من خلال التآلف الموسيقي الذي حدث بين هذه الألوان، فلم نرّ تنافراً من شأنه أن يؤذي أذن السامع، فالإيقاع جاء رتبيّاً متناغماً. والتصريع هو: "جعل العروض مقفأة تقفية الضرب. وهو ممّا استحسن، حتى أن أكثر الشعر صرّع البيت الأول منه"⁽²⁾.

وظهر التصريع واضحاً في قصائدهم، ومنه ما جاء عند عبد الله بن سعيد السلماني حيث يقول:

سِهَامُ المَنَايَا لَا تُطِيشُ وَلَا تُخْطِي وَلِلدَّهْرِ كَفٌّ تَسْتَرِدُّ الَّذِي تُعْطِي⁽¹⁾

(الطويل)

فالتصريع يظهر بين الكلمات: (ولا تخطي، الذي تعطي) وهما على وزن مفاعيلن التي هي من ضرب الطويل وعروضه في هذا البيت.

⁽¹⁾ ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 131.

⁽²⁾ الخطيب، القرويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 551.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 298.

أنظر: التصريع:

ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 33، 48، 67، 70، 74، 78، 76، 90.

ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. الصفحات: 414، 416.

ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 50، 57، 73، 85، 103، 132، 147، 174، 185، 188، 193، 197، 199.

ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 134، 148، 155، 167، 180، 181، 229، 245، 259، 306، 337، 359.

وكذلك فمن التصريح ما جاء عند صالح بن شريف النغزي حيث يقول:

يا طَّلَعَةَ الشَّمْسِ إِلَّا أَنَّهُ قَمْرٌ أَمَا هَوَاكَ فَلَإِ بَقِيٍّ وَلَا يَنْزَرُ⁽¹⁾

(البسيط)

فالتصريح جاء في كلمتين (قمرٌ، يَنْزَرُ) وهما يقعان في آخر الصدر، وآخر العجز على الترتيب. ويظهر التجانس الصوتي في نهاية كل مصراع من البيت. فالإيقاع جاء من خلال التكرار (فعلن).

ومن الشعراء من ردّ العجز على الصدر وهو: "أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر في المصراع الأول، أو حشوّه، أو آخره، أو صدر الثاني"⁽²⁾.

ومنه ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري في وصف فتاة جميلة حيث يقول:

لَمُحِيَّاةِ الْمُحَيَّا رَوْنَقٌ يَا لِقَلْبِي وَلِذَاكَ الرَّوْنَقُ⁽¹⁾

(الرمل)

فالشاعر في هذا البيت يردّ العجز (الرّونق) على آخر المصراع الأول، وهذا شكل تجانساً صوتياً من خلال تكرار كلمتي (الرونق، رونق).

ومن هذا اللون ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي، أثناء وصفه لجيش الغني بالله حيث يقول:

وَلَرُبَّ ذِي بَصَرٍ حَدِيدٍ قَدِ غَدَا يُعَشِّيه مِنْ لَمَعِ الصَّقَالِ حَدِيدُ⁽²⁾

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 3. ص: 278.

(2) الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: 543.

أنظر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدو. ج: 1. ص: 173.

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 100.

(2) ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 119.

أنظر: ردّ العجز على الصدر:

ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 109، 111، 119، 139، 193، 196، 197.

(الكامل)

فالشاعر يلجأ إلى تكرار كلمة (الحديد) الواردة في عجز البيت ويضعها حشواً في الصدر. وجاءت منونةً (ذي بصرٍ حديدٍ). وهذا زاد من وقد الجرس الموسيقي في السامع. وظهرت الموسيقى واضحة من خلال تعدد القوافي الداخلية في أشعارهم. ومن هذا ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

نورٌ لمُقْتَبَسٍ، حزرٌ لمُحْتَرَسٍ يُمنٌ لمُنْتَكِسٍ، نُعمى لمُبْتَنَسٍ
أعظمُ به من هُدَى للمُقْتَبَسِينَ، نَدَى للمُعْتَبَسِينَ، رَدَى للمُلْحَدِ النَّكِسِ⁽¹⁾

(البسيط)

فالشاعر يلجأ إلى التعدد في القوافي الداخلية، ففي البيت الأول نراه يستخدم الكلمات: (لمقتبس، لمحترس، لمنتكس، لمبتنس). أمّا البيت الثاني فاستخدم فيه الكلمات: (هدى للمقتبين، ندى للمعتبين، ردى للملحد النكس). إن هذا التكرار الذي جاء مصاحباً للتونين، وقد أعطى الألفاظ جمالاً نتج عن التتابع في الجرس الموسيقي، فالشاعر استطاع أن يضعنا في جوٍّ مفعم بالحياة والحركة. ولعلّ الذي ساعد في خلق هذا الجوِّ، هو استخدام التونين المصاحب لحرف السين، وهو صوت صفيريٍّ مهموس.

إن تتابع القوافي داخل الأبيات، من شأنه أن يجعل السامع تحت تأثير الموسيقى التي تشدُّ انتباه كلِّ مَنْ يسمع إليها؛ لأنّ القصيدة تصبح أغنيةً كاملةً لا نستطيع أن نقتطع جزءاً منها.

ومن هذا قول ابن الخطيب في وصفه للطائر الحسون:

أحسنتِ أحسنَتِ أمَّ الحَسَنِ لقد جنَّتِ بالحُسَنِ في كلِّ فنِّ

ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 163، 388، 390، 500، 550، 723.

ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 40، 45، 50، 63، 72، 79، 80 – 103.

ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 2. الصفحات: 291، 308، 317، 321.

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 34.

مُحِيَاً عَجِيبًا، وَشَخْصًا طَرُوبًا وَسَجْعًا أُدِيبًا وَصَوْتًا حَسَنًا⁽¹⁾

(المتقارب)

فالشاعر يبدأ قصيدته بتكرار قوله: (أَحْسَنْتَ، أَحْسَنْتَ)، ثم أتبعها بقوله: (أَمَّ الحسَن)، وفي العجز يأتي بقوله: (بالحسن... فن). ثم لا يلبث أن يبدأ بالغناء من خلال تعدد القوافي في قوله: (محيا عجيب، شخص طروب، سجع أديب). ثم ينهي كما بدأ في البيت الأول من خلال قوله: (صوت حسن). واستخدم حرف النون وهو من الأصوات الموسيقية التي لها تأثير سمعي واضح.

ومن تتابع القوافي ما جاء في مدحه وبيان حبه للرسول الكريم. حيث يقول:

سَلْ مَا "سَلْمَى" بِنَارِ الْهَجْرِ تَكْوِينِي وَحُبِّهَا فِي الْحَشَى مِنْ قَبْلِ تَكْوِينِي
النَّارِ فِي كَبْدِي، وَالشُّوقِ يَقْلِقُنِي وَالقَرْبُ يَنْشُرُنِي، وَالبَعْدُ يَطْوِينِي⁽²⁾

(البسيط)

فالشاعر يبدأ أبياته من خلال الاعتماد على الجناس التام، الذي ظهر في قوله: (تكويني) الأولى والتي عبّرت عن الأذى والألم. و(تكويني) الثانية التي عبّرت عن النفس البشرية. فهو يربط بين الألم وحبه القديم للرسول الكريم، ثم لا يلبث أن يرسخ هذه الفكرة في نفوسنا من خلال التعدد في القافية داخل البيت من خلال قوله: (الشوق يقلقني، القرب ينشُرني). وهذا التعدد جاء مصاحباً لضمير المتكلم، وكأن هذه الصفات التي تدلّ على معاني الألم قد بدأت مع ولادة هذا الشاعر.

والسجع من ألوان البديع التي ظهرت واضحة في أشعارهم، فلا نكاد نجد قصيدة واحدة تخلو من هذا اللون،⁽¹⁾ فجاءت عباراتهم رشيقة خفيفة على السمع، وهذا أعطاها إيقاعاً موسيقياً ثابتاً.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 124.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 610.

ينظر: المقرئ، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 1. ص: 316.

ومن السّجع ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي حيث يقول:

مَلِيكَ لَهُ تَعْنُو الْمُلُوكَ جَلَالَةً يُجَرِّرُ أذْيَالَ الْفَخَارِ مُطَالَةً
وَتَفَرِّقُ أَسْدُ الْغَابِ مِنْهُ بَسَالَةً وَتَرَضَاهُ أَنْصَارُ الرَّسُولِ سُلَالَةً⁽²⁾

(الطويل)

فالشاعر يلجأ إلى استخدامه في قوله: (جَلَالَةً، مُطَالَةً، بَسَالَةً، سُلَالَةً). وهذا منح الأبيات إيقاعاً موسيقياً ثابتاً؛ مما جعله يتسم بالرتابة وحسن الوقع على أذن السامع. ولعلّ مجيء التتوين في سياق السّجع، قد ساهم في إظهار هذا الإيقاع واضحاً ومسموعاً.

ومنه ما ظهر عند لسان الدين بن الخطيب حيث يقول:

يَمِينًا بِيَانَعٍ وَرَدِ الْخُدُودِ وَعَذَبِ اللَّمَى فِي الشَّهَى الْبِرُودِ
جَمَالُكَ مَعْنَى جَمَالِ الْوُجُودِ وَبَابُكَ مَعْنَى مَضَاءٍ وَجُودِ⁽¹⁾

(المتقارب)

فالشاعر في مديحه للسلطان أبي الحجاج يستخدم السجع من خلال قوله: (الخدود، البرود) و(جمالك، بابك) و(معنى، مغنى) و(الوجود، جود).

فابن الخطيب يكثر من استخدامه للسّجع في هذا البيت، فاستطاع أن يحشد العديد منه. وظهر التآلف الصوتي واضحاً بين العبارات. ولهذا فقد بدت الألفاظ خفيفةً عذبة، ممّا جعل أذن السامع ترتاح لها.

⁽¹⁾ أنظر: السجع:

ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات: 41، 82، 84، 88، 109، 111، 112، 114، 127، 139، 142، 143.
ينظر: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات: 226، 283، 291، 362، 371، 383، 393، 402.
ينظر: يوسف الثالث: الديوان. الصفحات: 70، 71، 75، 81، 132، 136، 152، 157.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 120، 122، 127، 128، 138، 169، 180، 185، 199، 219، 259.

⁽²⁾ ابن زمرك، محمد: الديوان. ص: 395.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 263.

ولم يغب الجناس عن أشعار ملوكهم، ومنه ما ظهر عند الشاعر الملك يوسف الثالث،

حيث يقول:

على العَدَلِ يجري حِكْمُهُ وقضَاؤُهُ ومنالُهُ التسَلِيمُ فيما يشَاؤُهُ
ومَنْ كان بالحقِّ اليقينِ اهْتداؤُهُ رأى النَّصرَ خفاقاً عليه لَوَاؤُهُ⁽¹⁾

(الطويل)

فالشاعر يكثر من استخدامه للسجع من خلال قوله: (حكمة، قضاؤه، مناله، يشاؤه،

اهتداؤه، لواؤه).

وجاء سجعه من خلال تكرار الضمير الذي يعود على محبوبته، وبهذا، فقد استطاع الشاعر من خلال هذا التكرار المنتظم أن يضعنا ضمن الحالة الشعورية التي كان يعيشها، فكلّ الخيوط قد أمسكها هذا المحبوب.

وساعدت الحياة اللاهية على شيوع الغناء في بيئتهم، مما استوجب عليهم الإكثار من استخدام هذا اللون من البديع. فالشاعر ينظر من حوله فيرى الأرض وقد زينت بزينة الربيع وخضرت مياها المتدفقة، وسجع طيوره التي انتشرت في حدائقهم التي امتدت على طول مملكة غرناطة. ومن هذا ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

حيّاً الرّبيعُ بنرجسٍ وبّهَارِ فارْدُدُ تحيَّتهُ بكأسِ عَقَارِ⁽¹⁾

(الكامل)

فالسجع واضح بين كلمتي (بهار، عقار).

ومنه ما جاء في الطيور حيث يقول:

ووردِيّةُ الجلبابِ أعجَبَها الورْدُ فغَنَّتْ وما بالغانياتِ لها عَهْدُ

(1) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 70.

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 76.

تُريك اضطراب الرقصات إذا انثنت¹ وتسمع لحن المسمعات إذا تشدو⁽¹⁾

(الطويل)

فالشاعر يستخدم السجع في وصف طيور البلبل وهي تغني فرحةً بين البساتين التي امتلأت بالورود الجميلة. ونرى الشاعر يلجأ في وصفه إلى الاستعانة بالسجع، ليظهر المشهد وكأنه يجري أمام أعيننا، وظهر هذا في قوله (الورد، عهد) (الراقصات، المسمعات). إن استخدام السجع في هذه الأبيات جاء مناسباً للمشهد الحركي الذي يجري داخل هذه الجنان.

ولعلّ التآلف الذي ظهر بين المجموعات الصوتية القوية، قد أدى إلى حشدٍ من الحروف يجتاح القصيدة، فالحرف داخل الجملة، أو المفردة يهيئ السبيل إلى حرف آخر يماثلُه نغماً أو رسماً.⁽²⁾ ومن هذا ما ظهر في قصائد ابن الخطيب في الاستتفار والجهاد حيث يقول:

أخواننا لا تنسوا الفضل والعظفاً	فقد كاد نورُ الله بالكفر أن يطفأ
فهل ناصرٌ مستبصرٌ في يقينه	يُجيرُ من استعدى ويكفي من استكفى
ومستنجزٌ فينا من الله وعده	فلا نكث في وعد الإلاه ولا خلفاً
وكيف يعيثُ الكفرُ فينا ودوننا	قبائلُ منكم تُعجزُ الحصرَ والوصفاً
إذا كتبتُ يوماً فأقلامها ألقنا	وإن أرسلتُ يوماً كانت صفائحها الصُّحفاً ⁽¹⁾

(الطويل)

فابن الخطيب يبدأ قصيدته بالصراخ الموجه على أخوانه في المغرب، وأثناء هذا، فإنه ينظم لنا سيمفونية تعتبر غايةً في الروعة والاتقان، حيث نراه يستخدم الحروف القوية ذات الدرجة العالية في السمع، فهو يستهل قصيدته بحروف التفخيم في قوله: "العظفا، يطفأ". ونراه بعد ذلك يستخدم حروف "السين والصاد والزاي" (وهي حروف صفيرية عالية الدرجة)⁽²⁾، وقد ظهرت في قوله: "مستبصر، استعدى، ستكفى، مستنجز، صفائحها، الصحفا" وجاءت الحروف

⁽¹⁾ ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 123.

⁽²⁾ الصانع، عبد الإله: الخطاب الشعري الحدائوي والصورة الفنية. ط: 1. بيروت: المركز الثقافي العربي. 1999. ص: 170.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. 678.

⁽²⁾ النوري، محمد جواد: علم الأصوات العربية. ص: 147.

متألّفةً غير متنافرة، فالصا د حرف مفخم يقابله حرف السين المرقق، والسين مهموسة تقابلها الزاي المجهورة، وكلها تنتمي إلى مخرج واحد.⁽¹⁾

وإذا ما نظرنا إلى البنية الإيقاعيّة الهادئة، فإننا نجدها واضحة في غرض الرثاء، وبخاصة رثاء الأشخاص، فهذا الغرض يسوده الأنيان والدموع، ولا يحتاج إلى صوت عالٍ ليسمع الآخرون، فالأحاسيس والمشاعر تُعصر في القلوب. ومن هذا ما جاء في رثاء ابن زمرك لوالد السلطان الغني بالله حيث يقول:

سلامٌ على الدنيا جميعاً وما فيها	غداة نعتُ شمسُ الخِلافة منْ فيها
نعتُ ملكَ الأملاكِ والكاملِ الذي	يكفُّ عوادي الحادّاتِ ويكفيها
عميدَ بني الأنصارِ غير مدافع	ومحيي معاليها ومولى موالِها
وبدرُ نياجِها وشمس نهارها	وبشّرَ مُحيّاها ونورَ مجالِها ⁽¹⁾

(الطويل)

فابن زمرك يستخدم حروف المدّ على نحو واضح في أبياته، فحرف الألف ورد أكثر من عشرين مرّةً، وحرف الياء ورد سبع عشرة مرةً، ولهذا ظهر تناغم وإيقاع هادئ ومسموع، نتيجةً لاستخدام هذين الحرفين. وهذه الحروف أينما وقعت في الكلمة، فإنها تحدث إيقاعاً مؤثراً في الحسّ والنفس، وتتابعها يوئدُ طاقة من هذه الإيقاعات التي تفسح المجال لتتوّع النغمة الموسيقية للكلمة الواحدة، أو للجملة الواحدة لسعة إمكاناتها الصوتية ومرونتها.⁽²⁾

وظهرت الأصوات المهموسة واضحة في أشعار المديح، ومن هذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي عنان المريني ملك المغرب، حيث يقول:

سَقَتْ سارياتُ السُّحبِ سَاحةَ فاسٍ سوانحُ تكسو السَّرْحَ حُسْنَ لبّاس

⁽¹⁾ النوري، محمد جواد: فصول في علم الأصوات العربية. ط: 1. نابلس مطبعة النصر التجارية. 1991. ص: 98.

⁽¹⁾ ابن زمرك: الديوان. ص: 126.

ينظر: المقرئ: أزهار الرياض. ج: 2. ص: 152.

⁽²⁾ عبد الله، حسن: جماليات اللغة ودلالاتها. ص: 293.

وَسَارَ بَتْسَـلِيمِي لِسُـدَّةِ فَارِسِ نَسِيمٌ سَرَى لِّلسَّـبِيلِ بَكَاسِ
سِرَاجَ السُّرَى، شَمْسٌ، سَمًا قَبْسُ السَّنَا كَسَا سَاطِـيَاتِ الأَسَدِ لِبَسِهَ بَاسِ
أُنِسْتُ بِمَسْرَى سَـيْبِهِ وَتَأْنَسْتُ بِسَاحَتِهِ نَفْسِي وَأُسْعِدُ نَاسِي⁽¹⁾

(الطويل)

ونلاحظ أن السين تكررت في هذه الأبيات في جميع الكلمات، وهي مهموسة، وجاءت مناسبةً للحال الذي يكتنف الشاعر، فهو مبعوث من قبل سلطانه الغني بالله إلى السلطان المغربي أبي عنان، والوقوف بين يدي هذا السلطان يتطلب الاحترام والتذلل، مما يستوجب استخدام صوت يحقق هذا الحال، وهو أمر يتماشى مع صوت السين البعيد عن الجهر والاهتزاز.⁽²⁾

المبحث الثاني: المشتقات:

استخدم الشعراء المشتقات في قصائدهم سعياً منهم في تقوية المعنى وتأکید دلالاته، فالمشتقات جميعها تحمل دلالاتٍ إضافية إلى دلالاتها الأصلية، فاسم الفاعل يدل على الفعل ومن قام به، فهو يحمل دلالتين، وهكذا الحال بالنسبة لباقي المشتقات، فمنها من يحمل ثلاث دلالات، وقد تكون هذه الدلالات متصفةً بالثبوت كما يحصل في الصفة المشبهة⁽¹⁾. وأدرك الشعراء

⁽¹⁾ ابن الأحرر، اسماعيل: نثر فرائد الجمال فحول الزمان. ص: 289.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين. ج: 2. ص: 735.

⁽²⁾ محمد، محمود: الأصوات العربية بين اللغوين والقراء: المدينة المنورة: مكتبة دار الفجر الإسلامية. 1998. ص: 111.

⁽¹⁾ الغلابي، الشيخ مصطفى: جامع الدروس العربية. ج: 1. ط: 38. بيروت: المكتبة العصرية. 2000. ص: 178، 182، 185، 193.

أهمية هذه المشتقات في أغراضهم الشعرية المختلفة، فاستطاعوا أن يسوقوها في أثناء قصائدهم بما يخدم الهدف الذي يريدون.

والأمر اللافتُ للنظر أن هذه المشتقات جاءت ملازمة لألوان البديع المختلفة، وهذا الأمر نلاحظه عند غالبية شعرائهم. فاستخدموا الصفة المشبهة، واسم التفضيل، واسم المفعول، واسم الفاعل في الجناس، والسجع، والتصريع، وغير ذلك من ألوان البديع الأخرى. ومن هذا ما جاء عند ابن زمرك الغرناطي حيث يقول:

صَاحَ ثَوْبُ الشُّحُوبِ فَوْقَ الْأَصِيلِ مُسْتَعَارٌ مِنْ رَقَّتِي وَنُحُولِي
مَنْ عَذِيرِي مِنَ النَّسِيمِ عَلِيًّا قَدْ وَشَّ فِي الْهَوَى بَسْرَ الْعَلِيلِ⁽¹⁾

(الخفيف)

فالشاعر يستخدم الصفة المشبهة (عليل) في سياق استخدامه للجناس، فكلمة (عليل) الأولى جاءت بمعنى الهواء الخفيف على النفس، أمّا كلمة (العليل) الثانية، فهي الإنسان الذي أصابه المرض. ووردت الصفة المشبهة في لون آخر من ألوان البديع وهو التصريع، حيث جاءت كلمتا (العليل) و(عليل) في عروض وضرب البيت، وهما على وزن (فاعلاتن).

ومن استخدام الصفة المشبهة في ألوان البديع، ما جاء عند ابن الخطيب حيث يقول:

لَيْسَنَ رِدَاءَ الصَّبَّاحِ الْجَدِيدِ وَجَرَّرَنَ ذَيْلَ الزَّمَانِ الْجَدِيدِ⁽¹⁾

(المتقارب)

⁽¹⁾ أنظر: ابن زمركن محمد: الديوان. الصفحات: 169، 170، 201، 224، 226، 234، 242، 271، 277، 280، 300، 353.
أنظر: ابن حاتمة الأنصاري، أحمد. الصفحات: 45، 209، 214، 216، 218.
أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 129، 164، 473، 474، 482، 488، 517، 535، 567، 650.
أنظر: يوسف الثالث: الديوان. الصفحات: 23، 78، 81، 85، 113، 114، 119، 122، 123.
أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. الصفحات: 77، 82، 111، 168، 176، 178، 179، 233، 297.
⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص: 265.

فالشاعر يستخدم الصفة المشبهة (الجديد) في لونين من ألوان البديع. أولهما: ما جاء في باب التصريع، ويظهر في كلمتين هما: (الجديد، الجديد). وتقعان في آخر الصدر وآخر العجز، وهما على وزن (فعلون). وثانيهما: ما جاء في باب ردّ العجز على الصدر.

ومن استخدام المشتقات في البديع ما جاء عند ابن خاتمة:

الدَّهْرُ يَحْكُمُ بَيْنَنَا يَا ظَالِمَةً هَا حَالَتِي هَاتِي وَأَنْتِ الْعَالِمَةُ⁽¹⁾

(الكامل)

فالشاعر يستخدم اسم الفاعل في تصريعه لهذا البيت، وظهر هذا من خلال الكلمتين (ظالمة، عالمة). ويظهر فيهما لونٌ آخرٌ من ألوان البديع وهو السجع.

واستخدم ابن خاتمة اسم الفاعل في باب ردّ العجز على الصدر، ومنه قوله:

سَائِلٌ كَيْفَ حَالَتِي وَهُوَ يَدْرِي أَنْ دَمَعِي مِنَ الصَّبَابَةِ سَائِلٌ⁽¹⁾

(الخفيف)

فالشاعر يستخدم في (ردّ العجز على الصدر) اسمَ الفاعل (سائل). حيث ورد في بداية الصدر ونهاية العجز. ويظهر هنا لون آخر من ألوان البديع وهو الجناس. فكلمة (سائل) الأولى جاءت بمعنى السؤال وكلمة (سائل) الثانية جاءت بمعنى المنسكب. إن هذا التتابع الذي ظهر في البيت من خلال المشتق (اسم الفاعل) وكذلك استخدامه في نوعين من أنواع البديع، قد أوجد نوعاً من التجانس الصوتي الذي نشأ بين المقاطع في كل مصراع من البيت.

ولجأ ابن خاتمة إلى استخدام الاسم المشتق في تعدد القوافي الداخلية في البيت، حيث يقول:

نورٌ لمُقْتَبَسٍ، حَزْرٌ لمُحْتَرِسٍ يُمْنٌ لمُنْتَكِسٍ، نُعْمَى لمَبْتَسِسٍ
أَعْظَمُ بِهِ مِنْ هُدَىٍ لِلْمُقْتَفِينِ، نَدَىٍ لِلْمُعْتَفِينِ، رَدَىٍ لِلْمُلْحَدِ النَكِسِ⁽²⁾

⁽¹⁾ ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 112.

⁽²⁾ ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 113.

(البسيط)

فالشاعر يستخدم اسم الفاعل في تعدد قوافيه الداخلية، وظهر هذا من خلال قوله:

(مقتبس، محترس، منتكس، مبتئس) وقوله في البيت الثاني: (هدى للمقتفين، ندى للمعتفين).

إنّ هذا التعدد في استخدام القوافي والذي جاء من خلال استخدام اسم الفاعل، قد أوجد

إيقاعاً موسيقياً ظاهراً. وهذا أدى إلى أسر انتباه السامع ووضعه في الجو العام للمعاني

داخل القصيدة.

الموسيقا الخارجية

المبحث الأول: الوزن:

وهو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت، وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية

للقصيدة العربية في معظم الأحيان.⁽¹⁾ ولا ريب أنّ لبحور الشعر وأوزانه، أثراً في الأداء، وفي

(1) ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص: 34.

(1) فاحوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. حلب: منشورات جامعة حلب / كلية الآداب. 1987. ص: 165.

موسيقا العبارة، وفي قوّة الأسلوب. ولذلك فالوزن يأتي بعد الإيفاع والقافية ودقّة اختيار الكلمات وجودة صياغتها، وهو قمة الأداء الموسيقي في الشعر.⁽¹⁾

وإذا وقفنا عند البحور التي اختارها الشعراء في هذا العصر، فإننا نجدهم مقلّدين للنهج الذي سار عليه الشعراء المتقدّمون، فهم يلجؤون في أغلب أشعارهم إلى بحور الطويل والكامل والبسيط. وأثناء تتبّعنا لأشعار المشهورين منهم، كابن الخطيب، وابن زمرك، وابن خاتمة الأنصاري، والملك يوسف الثالث، فقد وجدنا أن الغالب في قصائدهم قد نسج على هذه البحور الثلاثة، وكانت النتائج على النحو الآتي:

ابن الخطيب: وجدنا عنده مئة وثمان وسبعين قصيدة على البحر الكامل، ومئتين وخمس عشرة قصيدة على البحر الطويل، وواحدة وتسعين قصيدة على البحر البسيط، وسبعاً وأربعين قصيدة على البحر الوافر، واثنين وعشرين قصيدة على البحر المتقارب، وأما بقية القصائد والمقطوعات، وعددها مئة وثمانون، فقد جاءت على بقية البحور، كالسريع والمنسرح والرمل والرجز والخفيف والمجتث.⁽¹⁾

ابن زمرك: جاء معظم شعره على ثلاثة أوزان، وهي: الكامل والطويل والبسيط، وبلغت نسبة الكامل 42%، والطويل 44%، والبسيط 10%، والبقية من أشعاره البالغة 3% جاءت على بقية البحور.⁽²⁾

الملك يوسف الثالث: جاءت أشعاره في معظمها على هذه البحور الثلاثة وهي: الطويل والكامل والبسيط، حيث بلغت في مجملها ما نسبته 70%.⁽³⁾

⁽¹⁾ سليمان، نايف: الواضح في العروض وموسيقى الشعر. ط: 1. عمّان: دار الفكر للنشر. 1991. ص: 7. ينظر: الأسعد، عمر: علم العروض

والقافية.. ط: 4. الأردن: عالم الكتب الحديث. 2004. ص: 21.

⁽¹⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. فهرس الأشعار: ص: 823.

⁽²⁾ الحمصي، سليم: ابن زمرك، سيرته وأدبه. ص: 244.

⁽³⁾ مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص: 115.

وأما ابن خاتمة الأنصاري: فقد جاءت نصفُ أشعاره على هذه البحور الثلاثة، حيث بلغت نسبة البسيط 25%، و20% على الكامل، و10% على الطويل، و12% على الخفيف، و7% على المتقارب، و5% على الوافر، و9% على السريع، و12% على بقيّة البحور.⁽¹⁾

إنّ استخدام هذه البحور الثلاثة – الكامل، والطويل، والبسيط – على وجه الكثرة لم يأت عبثاً ووليداً للصدفة، بل إنّ الظروف التي أحاطت ببني الأحمر، وسير حياتهم في هذه المملكة التي كانت تحيط بها الأهوال، هي التي قادت شعراءهم لكي يستخدموا بحراً دون آخر في قصائدهم.

وقديماً ذكروا أنّ الغضب ينتج الحماسة والتهديد والشكوى والهجاء، والإعجاب ينتج المديح والوصف الجميل، والحبُّ ينتج النسيب والمديح، والازدراء ينتج الهجاء، والحزن ينشئ الرثاء والعتاب، والطرب يقود إلى الفخر والخمريات.⁽²⁾

والحماسة من حمس بمعنى اشتد وقوي، وفن الحماسة في الشعر هو فن القوة أو فن الأسلوب القوي الشديد، فالكلمات قوية الجرس، إيجابية المعنى، وهي رماح وسيوف، وطعن وضرب، وقتل وأسر، وانتصار ودماء.⁽¹⁾ وقد لوحظ أنّ الطويل يتّسع للفخر والحماسة.⁽²⁾ ومن الذين نظموا في الحماسة شاعرنا ابن الخطيب حيث يقول:

هَنِيئاً لَهُمْ هَذَا التَّثَاءُ الْمَخْلَفُ	أَنْتَ ابْنُ أَنْصَارِ الْهُدَى وَحُمَاتِهِ
وَحَرْبٌ وَمِحْرَابٌ وَسَيْفٌ وَمُصْحَفٌ	شِعَارُهُمْ عِلْمٌ وَجَلْمٌ وَنَائِلٌ
يُعْفَرُ أَنْافِ الطَّغَاةِ وَيُرْعَفُ ⁽³⁾	فَكَمْ أَطْلَعُوا فِي الْحَرْبِ مِنْ تَجْرِ صَارِمٍ

(الطويل)

(1) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان / الفهرس. ص: 232.

(2) الشايب، أحمد: الأسلوب، دراسة بلاغية لأصول الأساليب الأدبية. ط: 12. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 2003. ص: 179.

(1) الشايب، أحمد: المرجع نفسه. ص: 80.

(2) الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص: 41.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 671.

فابن الخطيب منذ بداية القصيدة، وهو يحاول إثارة الهمم والعزيمة في نفس وقلب أبي الحجاج، فلم يجدوا بجرأً يتسع لهذا الهدف على نحو أفضل من الطويل، فهو بحرٌ ذو تفاعيل كثيرة تتسع لكلامته وأناته وشكواه، وجاء ملائماً لأغراضه الجدّية التي تتمثل في الدعوة إلى القتال والتصدي: (1)

وهذا الملك يوسف الثالث، الذي تموج نفسه بمشاعر العزّ والكبرياء لم يجد متسعاً للتعبير عنها إلا من خلال البحر الطويل، فهو بحرٌ يستوعبُ هذا الملك وعنفوانه، حيث يقول:

إذا شئتَ أن تُعطى المقادة أهلها	وتلقى حُسامَ النَّصرِ في كفِّ ضاربٍ
تجدني مقداماً على الهولِ لم أبلُ	بما جمَعُوا أو عدَدُوا من مقانب
يصاحبني حزمٌ يخونُ هاجسي	وعزمٌ كما سلّت رِقاقُ المضاربِ (2)

(الطويل)

ونراه يصدرُ بيتهُ بأداة الشرط غير الجازمة (إذا) وهي ظرف متعلق بجوابه، ولكننا نلاحظُ أنه أحرَّ الجواب إلى البيت الثاني، وهذا يتناسب مع الطول الذي بنى أبياته عليه، حيث بناها على البحر الطويل، ليربط بين البيتين من جهة، وليثبت طول نفسه من جهةٍ أخرى. (1)

وإلى جانب الطويل يكثرُ استخدام الكامل، فهو بحر يصلحُ لأكثر الموضوعات؛ وهو في الخير أجود منه في الإنشاء، وأقرب إلى الرقة (2) ولهذا نراه يصلحُ للوصف والمديح والنسيب وغير ذلك من الأغراض الأخرى، إلا أننا نراه بوضوح في الوصف؛ لأنّ هذا اللون يحتاج إلى

(1) الفاحوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. ص: 174.

(2) الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 5.

(1) مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص: 117.

(2) الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص: 41.

الأساليب الخبرية، وهذا ما نلاحظه في أشعار ابن الخطيب وابن خاتمة الأنصاري، فالأول جاءت أكثر أوصافه في الكامل⁽¹⁾، حيث يقول:

بلدٌ يَحْفُ به الرِّياضُ كأنَّهُ وَجَّةٌ جميلٌ، والرياضُ عِذارُهُ
وكانما واديه مِعْصَمٌ عادةً ومن الجُسورِ المحكَّماتِ سِوارُهُ⁽²⁾

(الكامل)

ولجأ ابن خاتمة في غزله إلى استخدام البحر الكامل ليعبر عن أحاسيس تعتمر في داخله حيث يقول:

اللهُ يكفي عاذلي ورقيبها حتَّى تُثيبَ على الهوى وأثيبها
ما كانَ ضرٌّ وقد عصيتُ عواذلي أنْ لم تكنْ تعصي كذاك رقيبها
وأنا الفقيرُ إلى اختلاسة لحظةٍ منها، وتقتلُ بالصُّدودِ كئيبها
لمياء تَبسُّمُ عن عقودٍ لآليء يا بردَ كبدي لو رشفتُ شنيبها⁽³⁾

(الكامل)

فابن خاتمة يشكو من عاذله، ومن رقيب المحبوبة المذكورة، ويقسم أن راحته لا تكون غيرها. فالأحاسيس المرهفة جاءت مناسبة للبحر الذي قيلت فيه هذه القصيدة، فهذه الأبيات بعيدة عن الحدّة والخشونة، وتميل إلى الهدوء والرقّة، وهذا أدى إلى وجود التناغم بين إيقاع الأبيات ومضمونها.

وجاء استخدام البسيط واسعاً عند أغلب شعرائهم، ولا سيما في أشعار ابن خاتمة الأنصاري، فهو يأتي في مقدمة البحور عنده. والبسيط يقرب من الطويل، وإن كان لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني، ولا يلين لينه للتصرف بالتركيب مع تساوي أجزاء البحرين، ولكنه يفوقه

(1) ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات: 93، 103، 105، 109، 193، 199.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 1. ص: 425.

(3) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 86.

رَقَّةٌ وَجَزَالَةٌ، ولهذا قيل في الجاهلية، وكثر في شعر المولدين⁽¹⁾ وسُميَ البسيط بسيطاً، لسهولته في الذوق وبساطته.⁽²⁾

إنّ هذه الميزة جعلت الشعراء يستخدمونه في أغلب أغراضهم، فظهر في الحماسة والمدح والفخر وغير ذلك من الأغراض الأخرى. ولعل الرقّة التي ظهرت فيه، جعلته قريباً وصالحاً للمديح النبوي، حيث يقول ابن زمرك:

أنتَ المشفَعُ والأبصارُ شاخِصَةٌ أنتَ الغياثُ وهولُ الخطبِ قد فدَحَا
حاشَ العُلا، وجميلُ الظنِّ يشفَعُ لي أنْ يُخَفِّقَ السعيَ مني بعد ما نجحا
عَسَاكَ يا خيرَ مَنْ تُرَجى وسائلُهُ تتجى غريقاً ببحرِ الذنْبِ قد سبحا⁽³⁾

(البسيط)

إنّ مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، تتطلب منا مزيداً من الخشوع والإقدام، ولهذا يستوجب علينا استخدام ألفاظ تتوافق مع هذه المشاعر، فكان لا بدّ من استخدام البحر البسيط الذي يتسم بالرقّة والسهولة. وفي مقابل هذا، فإنّه يتّسع لأغراض الحماسة، ومن هذا ما جاء عند أبي البقاء الرندي، حيث يقول:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يغرُّ بطيبِ العيشِ إنسان⁽⁴⁾

(البسيط)

فالرندي يستثير عزمات المسلمين مستخدماً البحر البسيط، ولهذا فقد ظهرت العواطف في أبياته واضحة، على نحو ما مرّ بنا سابقاً في ذكرنا لهذه القصيدة.

والوافر من البحور التي كانت أقلّ استخداماً، وظهر عندهم في الرثاء والاستعطاف والغزل. فالوافر هو ألين البحور، يشتدُّ إذا شدتته، ويرقُّ إذا رقتته.⁽¹⁾

(1) الأُسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص: 41.

(2) الحنفي، الشيخ جلال: العروض، تهذيبه وإعادة تدوينه. ط: 2. بغداد: مطبعة الإرشاد. 1982. ص: 205.

(3) ابن زمرك: الديوان. ص: 27.

(4) المقرئ، أحمد: نفع الطيب. ج: 5. ص: 373.

ومن ظهوره في الاستعطاف قول ابن زمرك وهو يستعطف السلطان أبا الحجاج:

بما قد حزتَ من كَرَمِ الخِلالِ بما أدركتَ من رتبِ الجلالِ
بما خوَّلتَ من دينِ ودنيا بما قد حُزتَ من شرفِ الجَمالِ
تغمدني بفضلكِ واغترها ذنوباً في الفِعالِ وفي المقالِ⁽²⁾

(الوافر)

فالمشاعر الرقيقة هي التي سيطرت على هذه الأبيات، ويظهر التوسُّل واضحاً عند ابن زمرك، وكأنه أمامَ فِعلَةٍ كبيرة يريد المغفرة والصفح عنها عند أبي الحجاج.

ونخلصُ إلى القول: إنَّ البحور الشعرية التي استخدمت عند شعراء بين الأحمر، جاءت ملبيةً لحاجاتهم وأحاسيسهم، ووفق ما يقتضي الحال، ولكن نعود إلى حكم ذكرناه في السابق، وهو أن فنون القول هي واحدة، ولهذا لا بدّ لنا من القول أن البحور الشعرية في التاريخ العربي هي واحدة أيضاً، فمن الطبيعي أن يستخدمها الشاعر الأندلسي في غرناطة، كما استخدمها الشاعر الأموي في دمشق، والشاعر العباسي في بغداد.

المبحث الثاني: القافية:

القافية: هي آخر حرف ساكن في البيت، إلى أول ساكن يليه من قبله، مع الحرف الذي قبل هذا الساكن.⁽¹⁾ وقد اختلف الباحثون في حقيقة القافية، وعدّها الأخفش بقوله: إنها آخر كلمة

⁽¹⁾ الشايب، أحمد: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. ص: 82.

⁽²⁾ ابن زمرك: الديوان. ص: 105.

⁽¹⁾ الفاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. ص: 137. يتظر: العلي، فيصل: الميسر الكافي في العروض والقوافي عمّان: مكتبة الثقافة للنشر.

ص: 120. ينظر: أبو مغلي، سميح: مبادئ العروض. ط: 3. 1984. ص: 36.

في البيت، ومنهم من يرى أنها حرف الروي في آخر البيت⁽¹⁾ والقافية ليست إلا عدّة أصوات تتكرر في أواخر الأَشْطَر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي تتردد في فترات زمنية منتظمة.⁽²⁾

وتتركز القافية بشكل أساسي على حرف الروي، وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة وتنسب إليه.⁽³⁾

ولا يخفى علينا أنّ للروي دوراً بارزاً في إضفاء النغم على القصيدة، فالشعر يحسن وقعه على السمع لحسن وقع قافيته، ويسوء وقعه لضعف قافيته، وسوء وقع رويّة، حتى ولو كان يتضمن المعاني البليغة والصور الشعرية الرائعة.⁽⁴⁾

وإذا كان لكل بحر صفات ثلاثم غرضاً من الأغراض الشعرية، فالأمر كذلك بالنسبة إلى الروي، فلا يحسن استعمال القاف، مثلاً، رويّاً في قصيدة غزليّة، لأنّه حرف استعلاء يتّصف بالشدّة ويوجد في غرض الحرب والقتال.⁽⁵⁾ ولهذا جاء استخدام حروف الروي بما يتناسب مع الحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء الشعراء، فابن زمرك يلجأ إلى الأصوات المهموسة في أغلب مرثياته، وله في هذا الغرض أربع قصائد: ثلاث منها جاء رويها مهموساً، ومنها ما جاء في رثاء الغني بالله حيث يقول:

عزاءً فإنّ الشجوة قد كان يُسرفُ وبُشرى بها الراعي على الغور يشرفُ
لئن غربَ البدرُ المنيرُ محمّداً لقد طلعَ البدرُ المكمّلُ يوسفُ⁽¹⁾

(الطويل)

(1) اسعد، عبد المنعم: علم العروض والقافية. ط: 1. القدس: كلية الآداب للبنات - جماعة القدس. 1987. ص: 129.

(2) أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر. ط: 4. مصر: مكتبة الأنجلو. 1972. ص: 346.

(3) خفاجي، محمد: الأصول الفنيّة لأوزان الشعر العربي. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1992. ص: 129.

(4) الحمصي، أحمد: ابن زمرك. سيرته وأدبه. ص: 183.

(5) الحمصي، أحمد: المرجع السابق. ص: 183.

(1) ابن زمرك: الديوان. ص: 71. ينظر: ص: 74 - 126 - 128.

ونرى ابن زمرك يبدأ قصيدته بقول: (عزاء)، وهو مفعول مطلق حُذِفَ عامله، وجاء هنا للطلب.⁽¹⁾ فهو يبحث عن شيء يخفف من مصابه وآلامه، ولم يجد ما ينفسُ عنه هذه الآلام سوى الشكوى التي أطلقها مستخدماً الصوت المهموس الذي عبّر عن أحاسيس مكبوتة أُريد بها أن تخرج لعلها تكون بلسماً شافياً لنفسه. وإذا ما نظرنا إلى بقية القصيدة ، نرى أنّ صوتيّ السين والشين قد ترددا كثيراً بين ثناياها، إضافة إلى روي الفاء الذي يلتقي معهما في الهمس.

وهناك من الشعراء من جاءت مرثيته مجهورة الروي، ومن هذا ما جاء عند علي بن

عمر القيجاطي حيث يقول:

حَمَامٌ حَمَامٌ فَوْقَ إِيكَ الْأَسَى تَشْدُو	تَهِيحُ مِنَ الْأَشْجَانِ مَا أَوْجَدَ الْوَجْدُ
وَذَلِكَ شَجْوٌ فِي حَنَاجِرِنَا شَجِيٌّ	وَذَلِكَ لَهْوٌ فِي ضَمَائِرِنَا جَدُّ
أَرَى أَرْجَلَ الْأَرْزَاءِ تَشْتَدُّ نَحُونَا	وَأَيْدِيهَا تَسْعَى إِلَيْنَا فَتَمْتَدُّ ⁽²⁾

(الطويل)

فهذه المرثية اعتمدت على روي مجهور، وهو حرف الدال، ويأتي استخدام الحروف المجهورة بما يتناسب والحالة التي يعيشها الشاعر، فالعاطفة الجياشة واضحة في الأبيات حيث يقول: تشدو، تهيج، شجوٌ في حناجرنا. وجاء روي الدال حرفاً مضعفاً، ليزيد من حالة التردد لهذه الصرخات.

وفي مقابل هذا، فإننا نرى أن الشعر السياسي قد اعتمد في معظم قصائده على الأصوات المجهورة، فالاستجداد والدعوة للقتال يتناسب مع الجهر، فالمقام يتطلب الأصوات المسموعة ذات الروي الشديد. ومن هذا ما جاء في استجداد الملك يوسف الثالث ببني مرين حيث يقول:

أَبْنِي مَرِينِ وَالْحَمَايَةَ شَأْنُكُمْ	وَبِكُفْكُمُ سَيْفُ الْجِهَادِ يُجْرَدُ
إِنَّ السَّعِيدَ إِذَا تَمَهَّدَ مَلِكُهُ	عُدْتُمْ لَنَا وَالْعَوْدُ مِنْكُمْ أَحْمَدُ
أَوْطَانُكُمْ أَخْوَانُكُمْ وَبِلَادُكُمْ	عُودُوا وَعَهْدُكُمْ الْقَدِيمَ فَجَدُّوا ⁽¹⁾

⁽¹⁾ جطل، مصطفى: النحو والصرف. حلب: منشورات جامعة حلب. 1985. ص: 131.

⁽²⁾ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 4. ص: 83.

(الكامل)

والشاعر في هذه الأبيات يطلق صرخة موجّهة إلى إخوانه من بني مرين، فالجهدُ عندهُ فرضٌ عين لا يسقط كما هو الحال في فرض الكفاية، ولهذا جاءت دعوته قويّة ومدويّة، واستخدم المعاني التي تدعو للعودة إلى الجهاد في قوله (عدتم، العود، عودوا). وإلى جانب هذا فقد جاء رويُّ القصيدة حرف الدال، وهو صوت شديد مجهور.⁽²⁾

إنّ النسق اللغوي العام لهذه الأشعار، يتطلب استخدام فعل يتمشى مع غرض الطلب، مما يوجب عليهم استخدام صيغة الأمر، وهذا يتناسب مع الرويِّ المجهور في نهاية كل بيت. ومن هذا ما جاء في دعوة ابن زمرك للسلطان الغني بالله يحثّه فيها على الجهاد، حيث يقول:

يا ناصرَ الإسلامِ يا مَلِكَ العُلا الله يُؤتِيكَ الجَزَاءَ جزيلا
جَهْرَ جِيُوشِكَ للجهادِ مُوقِّفاً وكفى بِرَبِّكَ كافيّاً وكفيلا
ولتُبْعِدِ الغاراتِ في أرضِ العِدا والله حَسْبُكَ ناصِراً ووَكِيلا⁽³⁾

(الكامل)

واستخدم ابن زمرك صيغَ الأمر في قوله: (جهّر، كفى، لتُبْعِد) وهذا يتناسب مع التقخيم الذي أبداه لها الملك، وجاء الرويُّ من خلال حرف (اللام) وهو من الحروف التي تتميز بالوضوح السمعي، إضافةً إلى هذا فقد أُتبع الرويُّ بحرفي لين هما: الياء والألف، ممّا زاد من قوّة وضوحه في السمع، فاللام من أوضح الأصوات الساكنة في السمع، ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين.⁽⁴⁾

ونلاحظ أنّ رويّ الراء، قد وردَ في جميع الأغراض، فقد رأيناه في المديح والرتاء والغزل، وغير ذلك من الألوان الأخرى. ويرجع هذا إلى صفة التكرار التي تميّزه عن باقي

⁽¹⁾ الملك يوسف الثالث: الديوان. ص: 51.

⁽²⁾ أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ط: 5. مصر: مكتبة الأنجلو. 1979. ص: 48.

⁽³⁾ المقرّي، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج: 2. ص: 102.

⁽⁴⁾ أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ص: 63.

الأصوات، وهذا جعله ملتبساً للحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء. ومن الغزل ما جاء عند أبي عبد الله البلشي، حيث يقول:

عيناَيَ تفهَمُ من عيناكَ أسراراً ووردُ خديكَ يزكي في الحشا نارا
ملكْتَ قلبَ محبِّ فيكَ مكنَّبٍ قد أثرَ الدَّمعُ في خديهِ آثارا
رصابُ ثغركِ يُروي حَرَ غلَّتِه يا ليتَ نفسي تقضي منه أوطارا
أنعمَ بطيفِ خيالِ منك ألمحه ماذا عليكَ لطيفِ منه لو زارا⁽¹⁾

(البسيط)

فالشاعر يعبر عن حبه المتجدد الذي لا ينضب، من خلال روي يتناسب مع التجدد والاستمرار، وهذا يتناسب مع حرف الراء الذي يعطي دلالة التكرار في ذاته. والذي يدعو الشعراء إلى استخدامه، هو أن الصفات التي يطلقونها على محبيهم وممدوحهم لا تنقطع، وهذا يتوافق مع دلالة التكرار في صوت الراء.

مناسبة المعاني للألفاظ المطروقة

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكنية الكامنة. ص: 56.

قضية "اللفظ والمعنى" من قضايا النقد الأدبي التي كانت وما زالت موضع اهتمام النقاد قديماً وحديثاً، على أساس أنهما من عناصر العمل الأدبي، ومن الخصائص التي تؤخذ في الاعتبار عند تقديره والحكم عليه.⁽¹⁾

ويراعى المعنى الذي يعطيه اللفظ لا صيغة اللفظ وحده⁽²⁾. ولهذا يجب أن تتآلف الألفاظ والمعاني في قالب واحد، بحيث يوافق أحدهما الآخر، وهذا ما دفع الشعراء لاستخدام ألفاظ لها خصائص تختلف من غرض إلى آخر. وجاءت أشعارهم مناسبة للغرض المطروق، وإضافة إلى هذا، فقد كانت هذه الألفاظ تسبك ضمن قواعد تختلف من شاعر إلى آخر، فالألفاظ واحدة، ولكنها تختلف في سياق الكلام، وهنا تبرز مقدرة الشاعر على حسن استغلالها ووضعها في المكان المناسب التي تعطي فيه المعنى اللازم. إن هذا الأمر جعلنا نعجبُ بشاعر دون آخر، فظهر الشعراء المبدعون الذين استطاعوا أن يتركوا خلفهم نتاجاً شعرياً زاخراً ويحمل في طياته فناً راقياً تتألفته الأجيال فيما بينها.

ونستطيع أن نقول: إن قضية مناسبة الألفاظ للمعاني المطروقة، هي قضية نسبية تختلف من شاعر إلى آخر، فالشاعر الذي يمتلك ناصية اللغة، يستطيع أن يلائم بين اللفظ والمعنى، على نحو يتيح لجوهر المعنى أن يبدو كاملاً وواضحاً بحيث يمنحه قوة التأثير في النفوس. وإذا ما نظرنا إلى أشعارهم فإننا نرى التآلف واضحاً بين ثنايا أشعارهم، فاللفظة تساق فتوضع في مكانها المناسب الذي لا يمكن أن يقبل غيرها. وكأننا أمام فنّان عبقرٍ يقيم لوحة غاية في الروعة والجمال، فهي من الفسيفساء الجميلة التي تألفت فيها العديد من الألوان، فلا نرى تناقضاً بينها. وهذا الترابط نراه واضحاً في أشعار ابن الخطيب، فهو يقود الألفاظ بعناية وإتقان، وكأنه فارس يمتطي جواده الذي لا يتحرك إلا بإشارة من صاحبه، وهذا ما جعله قادراً على الربط بين الأغراض الشعرية المختلفة في قصيدة واحدة، فهو يبدأ بالغزل ثم يدخل في المديح، حيث يقول مادحاً السلطان أبا الحجاج يوسف:

(1) عتيق، عبد العزيز: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط: 3. بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر. 1980. ص: 326.
(2) ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية. ت: إحسان عباس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. ص: 137.

خُضتَ بحرَ الحبِّ والدَّمعِ وهَلْ
فَسَطَا الوَصْلُ عَلَى الهَجْرِ كَمَنْ
أُبْحُرُ الجودِ وَأَمَلَاكُ الوَرَى
لَهُم الفخرُ بِحقِّ، وكفى
أَيُّ مَجْدٍ أُحْكِمَت، آيَاتُهُ
دَام فِي سَعْدٍ جَدِيدٍ وَمُنَى
مَا ارْتَدَى بِالغَيْثِ رَوْضٌ فَرَوَتْ
تُدْرِكُ الأَمَالَ إِلَّا بِالغَرِّ⁽¹⁾
"ببني نصر" على الدهر انتصر
وسيفُ اللهُ تُرْدِي من كَفَر
"بأبي الحجاج" اسماً مُفْتَخَر
فهي تتلى مثلما تتلى السور
تصلُ الأَصَالُ فِيهَا بالبُكْر
نَسَمَةُ الرِّيحِ عن الزَّهْرِ خَبْر⁽²⁾

(الرمل)

و"الخوض" لفظةٌ تدل على العموم، وهذا الفعل يقوم به الجميع مشاةً وركباناً⁽³⁾، وهذا جاء متناعماً مع مدلول "بحر الحب" فهذه العاطفة يعانيتها الجميع، والتي تأتي في نتائجها بالدموع، ولا يقوم بهذا العمل في النهاية إلا مَنْ أَرَادَ أَنْ يخوض غمار هذه المعاناة، وغالباً ما تكون من نصيب العاشقين الذين يدافعون عن حبهم. والشاعر يأتي بالنتائج بناء على المقدمات (الحب + الدموع) (الإصرار + المغامرة).

ويبدأ صدر البيت الثاني بقوله: "فسطا" والسطوة فيها معاني القوة والإقدام، وهما تأتيان بالقهر والبطش⁽⁴⁾، وهذا يتناسب مع قوله: "فسطا الوصل على الهجر"، لأن وصل الحبيب يحتاج إلى التضحية والصبر، والهجر لا ينتهي إلا بدوام الوصل.

ونرى ابن الخطيب يحاول أن يصل إلى فكرة أرادها منذ البداية وتتلخص في قوله: إن النصر لا يأتي الإنسان إلا من خلال (آل نصر)، وعبر عن هذا من خلال الرباط وهو الاسم الموصل "مَنْ"، فالشاعر يربط بين الصدر والعجز ربطاً محكماً، (الوصل الهجر) (بني نصر الانتصار). والمتتبع لبقية الأبيات يرى هذا البناء اللغوي واضحاً، وكان

(1) الغرّ: المغامرة، ينظر حاشية الديوان. ص: 394.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ط: 1. ص: 394.

(3) الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ص: 827.

(4) الفيروز آبادي، مجد الدين: المصدر السابق. ص: 1670.

ابن الخطيب عالم منطق ورياضيات، فالجود عنده يُذهبُ الفقر، كما تذهب
سيوف المجاهدين الكفر، والمجد يدوم كما تدوم الآيات التي تتلى تقرباً إلى الله،
والأصال ترتبط بالبُكر كما ترتبط الأزهار بالمطر.

وفرقوا بين المحسوس والمتخيّل في أشعارهم، فما وقعت عليه العين المجردة،
جاء وصفه بالألفاظ محسوسة ومدركة، على نحو ما رأينا في الأشعار التي تصفُ الرياض
والقصور، والغزل الحسيّ. ومن هذا ما جاء في وصف أحمد بن عبد الحقّ الجدلي لشجر
النارنج المزهر حيث يقول:

وثمارِ نارنجِ نرى أزهارها مع نأتيء النارنج في تنضيد
فاذا نظرت إلى تألفها أتت كمباسم أوّمت للثمّ خدود⁽¹⁾

(الكامل)

فالألفاظ التي ساقها الشاعر، جاءت ملبيةً للغرض المطروق، وهو وصف جمال هذه
الأشجار، فبدأ الوصف بقوله: "نرى"، وهذه الرؤية تتعلق بالعين والمحسوس، والتألف الذي ظهر
بينها يستوجب النظر بالعين المجردة، واستطاع الشاعر أن يختم أبياته بصورة حسيّة مناسبة
للموقف الذي يراه أمام عينه، فاستحضر صورة الفتاة ذات الخدود الجميلة التي يطيب تقبيلها،
وهو ما يتناسب مع الأزهار التي يطيب لنا أن نستنشق طيب عبيرها. فالألفاظ كلها تعتمد على
المحسوس الذي نلامسه ونشعر به.

ولابن الزمرك أبيات في وصف دار الملك، وما فيها من جمال صنعته وأبداعه يد إنسان

حيث يقول في وصفها:

ولله مبناك الجميل فإِنَّهُ يفوقُ على حكم السعودِ المبانيا
به البهوّ قد حازَ البهاءَ وقد غدا به القصرُ أفاقَ السّماءِ تباها
به المرمرُ المجلوّ قد شَفَّ نورُهُ فيجلو من الظلماء ما كان داجيا

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج: 1. ص: 68.

به البحرُ دَفَّاعِ العبابِ تخالُهُ
 إذا ما انبرى وفرُّ النسيمِ مُبارياً
 ولم نرَ قصرًا منه أعلى مظاهراً
 وأرفعَ آفاقاً وأفسحَ نادياً
 ولما دعوتَ الناسَ نحو صنيعةِ
 أجابوا لهم من جانبِ الغورِ داعياً⁽¹⁾

(الطويل)

ويبدأ ابن زمرك وصفه لهذا القصر - وهو الحمراء - بأنه أجمل القصور التي أبدعتها يد الإنسان، وهو يسلك في هذا السبيل الوصف الحسي، فيوظف الألفاظ التي يستطيع من خلالها، أن يجعل هذا البناء ماثلاً أمام أعيننا وكأننا نراه الآن، فيصف لنا البهو وما فيه من مرمرٍ وحجارةٍ كريمة تسطع بحسن بريقها الذي يبدد الظلمات، ثم يصف المياه التي تتساب من البرك التي تنتشر في حدائقه، وكأنها تسابق الرياح وهذا دليلٌ على غزارة مياهاها.

ويعود في نهاية وصفه إلى تعبير (لم نرَ، ولما دعوتَ الناسَ إلى حسن صنيعة)، وهو بهذا يستند على ألفاظ تؤكد على الرؤية بالعين المجردة، وهذا أيضاً ما فعله منذ بداية وصفه لهذا القصر. فالألفاظ كلها تنطلق من باب المحسوسات، وهو ما يتناسب مع وصف القصور والآثار التي ابتناها أمراء وملوك بني الأحمر.

وظهر هذا أيضاً في الغزل، فجاءت ألفاظ الغزل الحسي الذي يعتمد على الشهوة مختلفة عن ألفاظ الغزل العفيف الذي يستند في جوهره إلى الروح والقيم الإنسانية وما فيها من معاني الحبِّ والعاطفة الصادقة بين المتحابين. وظهر هذا التفريق واضحاً بين الألفاظ، فالغزل الحسي جاءت ألفاظه مناصرةً للجسد وأوصافه، فوصفوا الشعر والرقبة والعيون والشفاه والريق التي شبهوها بالخمرة، وكلها أوصاف تدخل في باب الحس المدرك باللمس والرؤية بالعين. ومن هذا ما جاء في غزل ابن خاتمة حيث يقول:

غُزِلْتُ غَزَلَتْ الحَاظَةُ جَسْدي
 أرقُّ من غَزَلِي في لُطفِ معنَاهُ
 ساجي الجفونِ وقَاخُ الوجْهِ ماجنُهُ
 مفرَّغُ البالِ عمَّن بات يهواهُ
 يَفْتَرُّ عَن مَبْسَمٍ يا ما أَمْلِحُهُ
 يجولُ فيه رَضابٌ ما أُحْيَلُهُ

(1) ابن زمرك: الديوان، ص: 140 - 141.

كالورد وجنته، والشهد ريقته
والسلك مبسمه، والمسك رياه
بدر، ولكن سواد العين مقلعة
ظبي ولكن سويدا القلب مرعاه⁽¹⁾

(البسيط)

والشاعر يرسم صورة باهرة لمحبوته، وهو يستفيد من معطيات الجمال الحسي المتعددة بوسائل التعبير المباشرة، فيصف العيون الجميلة التي أثرت في جسده، ويصف فيها وابتساماتها التي تدل على الجمال والرقّة، ويشبه حلاوة ريقها بالشهد، وخطودها بالورد، والعيون السوداء بالبدر. وكلها أوصاف حسية مستوحاة من البيئة التي عاشها الشاعر وغيره من شعراء بني الأحمر، وهي تدل على مظاهر الترف والتمتع بملذات الحياة التي انتشرت في هذه المملكة.

أما ألفاظ الغزل العفيف فقد جاءت بعيدة عن ألفاظ الجسد والشهوة فعبّرت عن روح الجمال وجوهره الإنساني الذي يصبو إلى القيم وصدق المشاعر، يقول ابن خاتمة:

في راحتك حياة الروح والبدن
وفي رضاك مجال السرّ والعلن
وفي ضميري لكم مكنون سرّ هوى
ما زلت أكتمه صوناً فيكتمن
خفيت عن كل شيء غير عشقكم
من السقام، ولولا الطبع لم يرني
بيني وبين الهوى أجلى مناسبة
فذاك أعرفه حقاً ويعرفني⁽²⁾

(البسيط)

فالشاعر يخاطب المحبوبة دون ذكر اسمها، أو التلميح بصفات جسدها على نحو ما فعله في قصيدته السابقة، فدارت أبياته حول استنثار المحبوبة بجانب الروح والبدن، وهو يقدم الروح ويجعله محورا وأساساً لحبه الذي يكنه في صدره.

ونرى أن الشاعر قد أكثر من الألفاظ التي تخاطب العاطفة والوجدان، فجاء بكلمات الروح والضمير، وهذا يجعلنا نفكر بهذه المكونات التي تثير فينا كل العواطف والأحاسيس.

(1) ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص: 80.

(2) ابن خاتمة الأنصاري: المصدر نفسه. ص: 97.

وجاء الشعر الديني بعيداً عن المحسوسات، فهو يخاطب الأفئدة والعقول، فيتحدث عن أسرار الوجود ومواطن راحة النفس وسكونها، وهذا ظاهر في أشعار التصوف والزهد والمدائح النبوية. ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في الوعظ حيث يقول:

أعشاقَ غيرِ الواحدِ الأحدِ الباقي	حُنُونُكُمْ وَاللَّهِ، أَعْيَ عَلَى الرَّاقِي (1)
حننتم بما يَفَنَى وتبقى مضاضةً	تَعَذَّبُ بَعْدَ الْبَيْنِ مَهْجَةً مَشْتَاق
وتربطُ بالأجسامِ نفساً، حياتها	مبايعةُ الأجسامِ بالجوهرِ الرَّاقِي
فلاهي فازت بالذي علقَتْ به	ولا رأسُ مالٍ كان ينفعها باقي
فراقٌ وقبرٌ وانقطاعٌ وظلمةٌ	قني البُعدَ من نَيْلِ السَّعَادَةِ يا واقِي (2)

(الطويل)

ونرى أن الوعظ جاء من خلال استخدام ألفاظ خاطبت في جوهرها النفس الإنسانية بمعانيها السامية التي تدخل إلى القلوب، فالعشق لا يكون إلا لله وحده، وأن هذه الدار الدنيا فانية لا محال، والخلود الأبدي لا يكون إلا في جوار الله عز وجل، ويمضي ابن الخطيب واصفاً الإقبال على الدنيا بالجنون، والأجساد عنده تربط فيما بينها برابطٍ معنويٍّ بعيدٍ عن المعاني المجردة، فالجوهر الإنساني يكون بالروح لا بالجسد.

والدعاء إلى الله يستلزم التمسك بهذه الروحيات، وخطاب ذي الجلالة يكون بالمعاني التي تدلّ على الجانب الروحي البعيد عن التخصيص أو التجسيد، يقول ابن الخطيب مخاطباً ربّه ومعتزفاً بذنبه:

مولاي، إن أذنبت يُنكرُ أن يُرى	منك الكمالُ ومني النقصانُ
والعفوُ عن سبب الذنوب مسبّبٌ	لولا الجنايةُ لم يكن غفران (1)

(1) الراقي: وهي التعويذة تستخدم لدفع الشر عن الإنسان وتكتب بالأسماء والحروف، ينظر حاشية الديوان. ص: 703.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج: 2. ص: 703 - 704.

المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 8. ص: 13.

(1) المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 8. ص: 199.

(الكامل)

فالذنوب والنقصان يقابلهما الكمال والعفو والمغفرة من الله عزّ وجل، والكمال والعفو والمغفرة، هي صفاتٌ تتسم بالشمولية، وهي ما تتصف به الذات الإلهية.

ولجأ الشعراء في أشعارهم الحماسية إلى استخدام الألفاظ التي تدل على الجانب الديني، وهم بهذا يعزفون على وتر العاطفة الدينية، فيستثيرون الهمم والعزائم في النفوس، فالحال يقتضي مثل هذه الألفاظ. ولم تغب عن أشعارهم طوال حكم المسلمين في الأندلس، ولكن كثر استخدامها في عصر بني الأحمر، ويرجع هذا إلى التسارع الذي حدث في سقوط المدن خلال القرن التاسع الهجري، يقول الملك يوسف الثالث:

معاذَ مَنْ كَتَبَ الحسنى لأندلس	مِنْ أَنْ يَجوسَ عدوّ الدِّينِ أندلسا
مُستعصمُ الدينِ ما كانت فوارسُهُ	يوماً ليترك حزب الكفرِ مُفترسا
كم أثبتوا قدما كم جدّوا صنما	كم شيّدوا للمعالي أربعا دُرُسا
مَنْ لم تكن لإلاه العرش وجهتهُ	ألفى على ظمأ ورْدِ الندى يَبَسَا ⁽¹⁾

(البسيط)

ونرى أن الملك يوسف الثالث قد استخدم الألفاظ التي تثير الجانب الديني عند المسلمين فهو يقول: "عدوّ الدين، مستعصم الدين، حزب الكفر، الأصنام" ونراه في البيت الأخير يتوجّج ما بدأ به من استنارة الهمم بقوله: إنّ العمل يجب أن يكون من أجل الله عز وجل ونصرة دينه، فلا خير في عمل لا يكون في جانب الله، فهو كالورد الذي جفّ من العطش، ففقد رائحته الزكية التي يتميّر بها.

وجاء ذكر المسجد كثيراً في أشعارهم، وهو ما يتلاءم مع الموقف الذي كان يجري في ذلك الوقت، ونقصد في هذا القول، الاعتداء الذي كان يجري عليه بوصفه رمزاً للإسلام والمسلمين. يقول:

(1) يوسف الثالث: الديوان، ص: 154.

تبكي الحنيفة البيضاء من أسفٍ
على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
كما بكى لفراق الإلف هيمانُ
قد أفقرت ولها بالكفر عمرانُ
فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المنايرُ ترثي وهي عيدانُ
وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ
واليومُ هم في بلادِ الكفر عبْدانُ⁽¹⁾

(البيسط)

فالشاعر يربط بين واقع المسلمين وما حلَّ بالمساجد بعد سقوط المدن الأندلسية، فهو لم يرَ عزاً إلا في ظلّ دولة الإسلام. وتأتي الأفكار عندَه رتيبةً، وتتفق مع واقع الحال الذي يعيشه المسلمون. ولعلّ استخدامه لهذه الألفاظ كان من أهم الأسباب التي ساعدت على تكوين الصورة التي أراد أن يوصلها إلى بقية المسلمين في أصقاع الأرض، واستطاع الشاعر من خلال هذه الرتابة أن يربط بين هذا البكاء والمعاني التي تدلّ في جوهرها على الإسلام، وما يذكر المسلمين بالمكائد التي تحاك ضدهم، وعبر عن هذا من خلال الكلمات (ديار الإسلام، الحنيفة البيضاء، الكفر، المساجد، عبد الله، الكنائس، النواقيس، الصلبان، بلاد الكفر).

وارتبطت معاني الألفاظ التي جاءت في أشعارهم بالحالة النفسية التي عاشوها، فالشاعر - كما هو معروف - يخضع لعوامل نفسية تقوده إلى اختيار الغرض الذي يرمي إليه، مما أدى إلى اختلاف العاطفة من شاعر إلى آخر. وتبدو مسحة الحزن واضحة في أشعار الرثاء، فهم سيكون حبيباً قد مضى، أو مدينةً قد سقطت بيد الأسبان، وفي الحالتين يبكي الشاعر على أيام قد مضت ولن تعود، ومن هذا ما جاء في رثاء أبي الحسن علي بن عمر القيجاطي، حيث يقول في غرض الرثاء:

حمّامُ حمّامُ فوق أيك الأسي تشدو
أرى أرجلَ الأرزاء تشتدُّ نحونا
تهيجُ من الأشجان ما أوجدَ الوجْدُ
وأيديها تسسعي إلينا فتمتدُّ

(1) المقرّي، أحمد بن محمد: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج: 5. ص: 374.

وإنْ خَطَرْتُ لِلْمَرْءِ ذِكْرِي بِخَاطِرٍ
فَتَسْبِيحَةُ السَّاهِي إِذَا سُمِعَ الرَّعْدُ
مَصَابٌ بِهِ قُدَّتْ قُلُوبٌ وَأَنْفُسٌ
لَدِينَا إِذَا فِي غَيْرِهِ قُطِعَتْ بَرْدٌ
تَلِينُ لَهُ الصَّمُّ الصَّلَابُ وَتَتَهَمِي
عِيونٌ وَيَبْكِي عِنْدَهُ الْحَجْرُ الصَّلْدُ
فَلَا مَقْلَةٌ تَرْنُو وَلَا أذنٌ تَعْيِي
وَلَا رَاحَةٌ تَعْطُو وَلَا قَدَمٌ تَعْدُو⁽¹⁾

(الطويل)

ونرى أن الشاعر يعيش حياة حزينة بعد فقده من أحب، وجاءت الألفاظ مناسبة للغرض المطروق، واستطاع الشاعر أن يضعنا في جوٍّ من الكآبة والحزن، ولم يترك لنا مجالاً إلا واستخدمه لكي يضعنا ضمن الأحاسيس التي يشعر بها، فبدأ أبياتةً ببيت قلد فيه من سبقوه من الشعراء في تصويرهم للألم، وهي صورة الحمام وهو يرسل أحياناً حزينة، ولكنَّ الشاعر جاء بصورة جديدة وهي شجرة الموت التي تقف فوقها هذه الحمامة.

ويستمر في استخدام ألفاظ تدلّ على نفسٍ قد تحطّمت، وفقدت ما هو جميل في هذه الحياة، فالمصائب تتسارع مقبلةً عليه، وكأنّها تتسابق فيما بينها للوصول إليه، ولهذا لم يجد شيئاً يخفف من مصائبه إلا الدموع التي تغسلُ الهموم. ولكثرة بكائه فقد بكى الصخر الذي يعتبر عنواناً للقسوة والجمود. وفي النهاية نراه فاقداً لكل معاني التفاؤل بهذه الحياة. ولجأ الشاعر في أبياتِهِ هذه إلى استخدام ألفاظ تتصل بعالمه الحزين الذي يعيشه، واستطاع من خلال هذه الألفاظ أن يدخلنا إلى هذا العالم ودليل هذا، أننا استطعنا أن نشعر بألامه، وأن نتعاطف معه، وجاء هذا نتيجة لحسن استخدامه لهذه الألفاظ.

وظهرت الألفاظ الحزينة في أشعار السجون والعتاب والغزل، فعَبَّروا عما يجول في نفوسهم بسبب فرقة الأحباب، وما يعانون من هذه الأحوال، وهم يتسابقون فيما بينهم إلى خلق الصور التي تدل على هذه المعاناة، ومن هذا ما جاء في قول الملك يوسف الثالث:

هَجَرُوا وَخَطَبُ الْهَجْرِ لَيْسَ يَسِيرُ
بَدْرٌ يَسِيرُ الْبَدْرُ حَيْثُ يَسِيرُ

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة، ص: 38.

كم ذا تعجُّله القطيعةُ والجفا
وَالدَّهْرُ يَصْدَعُ وَالْحَمَامُ يَجُورُ
زَمُوا رِكَائِبَهُمْ وَخُلْفَ بَعْدَهُمْ
تَهْمِي وَتَضْرِمُ أَمْدُعُ وَصُدُورُ⁽¹⁾

(الكامل)

فالهجر أمر عظيمٌ قد أصابه، وهو غير محتمل عنده، ونرى أن المحبوب بالنسبة إلى الشاعر، يمثّل كلّ معاني الجمال في هذه الحياة، فالبدر يستمد نوره منه، ويسير معه حيث يسير. وهذه من الصور الجميلة التي جاء بها الشاعر، ويستخدم في البيت الثاني ألفاظاً تقليدية استخدمها الشعراء من قبله، وهي صورة الحمام الذي يعتبر رمزاً للوداعة والحزن في آن واحد.

ونرى أن الشاعر يمسك بزمام اللغة، وهذا يدلّ على فصاحته ومعرفته باللغة، فاستخدم تعبير "زَمُوا" وهو الربط والعقدُ بشدّة⁽²⁾ ولم يُقَل: "ربطوا" فقد يكون الربط غير محكم، ولكنه أراد أن يبيّن أن ربط الأمتعة كان بشدّة وإحكام، لأنّ السفرَ سوف يطول، وهذا دليلٌ على بعد المحبوب، مما يزيد من آلامه ومعاناته.

وجاءت ألفاظ الهجاء شديدة ومؤلمة مما جعلها ثقيلةً على النفس، فالمهجو يشعر بوقعها في نفسه، فهي أحدٌ من السيف. واستخدموا في هجائهم الألفاظ التي تتال من شرف وكرامة الإنسان، واعتمدت ألفاظهم على العوامل والظروف الاجتماعية والسياسية والدينيّة التي كانت سائدة في هذا العصر⁽¹⁾. ومن هذا ما جاء في هجاء ابن زمرك لابن الخطيب حيث يقول:

هذا وزير الغرب عبْدٌ أبـق
لم يلف غيرك في الشدائد من وزر
كفر الذي أوليته من نعمة
والله قد حتم العذاب لمن كفر
إن لم يمّت بالسيف مات بغيظه
وصلى سعيراً للتأسف والفكر
ركب الفرار مطيّةً ينجو بها
فجرت به حتى استقر على سقر⁽²⁾

(1) يوسف الثالث: الديوان. ص: 76.

(2) الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ص: 1444. مادة: زم.

(1) ينظر ما جاء في الهجاء: الفصل الثاني من الرسالة.

(2) المقرّي، شهاب الدين أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج: 2. ص: 37.

(الكامل)

فهو يصفه بالعبد الأبق وهي لفظة شديدة على النفس، ولا ننسى ابن الخطيب وهو شيخ لهذا الشاعر، فابن زمرك هو تلميذ له، وهذا يزيد الأمر تعقيداً، ولم يتوقف ابن زمرك عند هذا الحد، بل وصفه بالكفر، وهذا يخرج عن ملة الإسلام، لذلك فهو من وجهة نظره لا يستحق إلا الموت. ونرى أن الألفاظ جاءت شديدة على الأذن والنفس، واعتمد في حشد ألفاظه على الناحية النفسية ومدى تأثير هذه الألفاظ فيها.

واستخدموا الألوان بما يتناسب والغرض الذي يريدون ، فلم تخرج عن المعنى المراد ، ومن هذا ما جاء عند ابن زمرك في وصفه للحسد ،ومن يتصف بهذة الصفة، حيث يقول في سياق مدحه للسلطان الغني بالله :

لَمَّا أَرْتَكَ الشَّمْسُ صُفْرَةَ حَاسِدٍ لَجْبِينِكَ المتألق الأنوار⁽¹⁾

(الكامل)

فابن زمرك يأتي لنا باللون الأصفر في وصفه للحاسدين ،وهو ما يتفق والمعنى المقصود ، فصاحب هذه الصفة يعيش حياة يشوبها الحقد والكراهية على الآخرين ، ويميل وجهه إلى الشحوب الذي يشير إلى المرض والقلق ، وهو ما يتفق مع صفات اللون الأصفر.

وجاء اللون الأبيض ليدل على النقاء والعفة ،وهي صورة قديمة ، فقد كان العرب ييغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كل شيء ممدوح عندهم مادياً أو معنوياً بالبياض، وكان مما يمدح به الرجل أو يُفتخر به أنه أبيض ، وكانت المرأة تمدح بالبياض وكذلك الرجل . والبياض ليس مجرد لون ، وإنما يرتبط في المفهوم العام بنقاء العرض من الدنس والعيوب.⁽¹⁾

يقول ابن خاتمة:

⁽¹⁾ ابن زمرك: الديوان. ص: 56.

⁽¹⁾عودة ،خليل: المستوى الدلالي للون في شعر عنتره . مجلّة الدارة /العدد2 . السنة 22 . 1417 هـ. ص: 225.

ما بينَ فائِرِ طرفِها وجُفُونِي خبرَ تمازَجَ جِدَّةٍ بِمُجُونِي
قُلْ لِّلَّتِي خَضَبْتَ بِيَاضَ بِنَانِهَا بدماءِ دَمْعِي أو سوادِ عُيُونِي
من أينَ للغزلانِ وهي عواطل صَبَغُ الحواجِبِ أو خِضابِ يَمِينِ

(الكامل)

فابن خاتمة يستخدم اللون الأبيض ليدل على جمال ونقاء هذه الفتاة، التي تتصف بالتمنع والعفة، وجاء استخدامه لهذا اللون، ليؤكد على أمر آخر، وهو الحياة الرغيدة التي كانت تحياها هذه الفتاة، والتي نستقيها من خلال قوله: (بياض بنانها) فالبياض لا يأتي مع كثرة العمل، وهذا من صفات النساء الشريفات عند العرب.

وظهر اللون الأسود عندهم في المواقف الاجتماعية التي تدل ترتبط بمظاهر نفسية منفرة، كالحداد وما يصاحبه من حزن وكآبة.⁽¹⁾

ونجد هذا واضحا في رثاء ابن زمرك حيث يقول:

وتبكيه حتى الشُّهْبُ في أفقِ العلا وتلبسُ جلبابَ الظلامِ جوارِيبها⁽¹⁾

(الطويل)

فالبكاء يتناسب في جوّه الحزين وواقع اللون الأسود، الذي ينتج عن الظلمة الحالكة، فالشاعر يوجد موازنة بين البكاء والسواد، للدلالة على هذا المصاب الجلل الذي حل بهم.

وعبروا عن الكفر باللون الأسود، لما فيه من الضياع والبعد عن الصراط المستقيم، يقول ابن زمرك في وصفه للكفر:

واسودَّ وجه الكفر من خزي متي ما احمرَّ وجه الأبيض البتار⁽²⁾

(الكامل)

⁽¹⁾ ينظر: عودة، خليل: المرجع نفسه. ص: 227.

⁽¹⁾ ابن زمرك: الديوان: ص: 127.

⁽²⁾ ابن زمرك: المصدر نفسه: ص: 60.

فالحالة التي يعيشها الكافرون، وما يرافقها من بعد عن الهداية والإيمان، تتناسب مع اللون الأسود الذي يعدُّ رمزا للظلم والضلالة .

فالتفاعل بين الألفاظ والمعاني المطروقة كان واضحاً في أشعارهم، فالشعر ينفعل بانفعال صاحبه ولهذا جاء مؤثراً في النفوس، وهذا التأثير يتراوح من شاعر إلى آخر ويعتمد في هذا على مدى إجادة الشاعر لهذا الفن الأدبي.

الخاتمة:

ازدهرت الحركة الشعرية في هذا العصر نتيجة لعوامل عديدة. والمتتبع لها، يستطيع أن يرى أنّ أغلبها يعود إلى ظروف سياسية، فتشجيع الأمراء للشعراء جاء حرصاً منهم على أن يعطوا حكمهم صفة الشرعية، وهذا الدور الإعلامي لا يقوم به إلا الشعراء، ولذلك ليس من الغريب أن نرى هؤلاء قد تقلدوا مناصب سياسية مهمة كالوزير لسان الدين بن الخطيب وغيره.

ولعلّ ضياع المدن الأندلسية كان نتاجاً لهذه الظروف، فمن الطبيعي أن يواكب الشعراء ما يجري لإخوانهم، فصوروا حجم المأساة التي حدثت لهم، فأرسلوا الصرخة تلو الأخرى، لعلهم يجدون مجيباً يلبي هذه الصرخات.

ووجد هؤلاء الشعراء في مدينة غرناطة ملاذاً لهم بعد سقوط مدنها بيد الأسيبان،
فانتشرت الهجرات إلى هذه المدينة وازداد عدد سكانها، وضم العديد من الأدباء والشعراء
المهاجرين، فعمرت بهم، ما زاد في تطوّر هذه الحركة ونموّها.

وكان الشعراء حريصين على شخصيتهم العربية الإسلامية، فواجهوا الأسيبان
بالسيف والكلمة.

ونظر أهل الأندلس إلى المشرق العربي على أنه مثالٌ للعلم والأدب، فجاءت الأغراض
مشابهة لتلك التي سادت عند إخوانهم من الأمويين والعباسيين. فالعلاقات الثقافية بين المشرق
والأندلس لم تنقطع، واستمرت الهجرات فيما بينهم حتى سقوط الأندلس كاملةً بيد الأسيبان.

ولعبت الطبيعة دوراً مهماً في رقد الحركة الشعرية بالصور والأخيلة، فكانت سبباً رئيساً
في شذو قرائحهم، فتميّزت بالرقّة والعذوبة، وجرت في أحضانها العديد من المجالس الشعرية،
فانتشرت أشعار الروضيات والخمريات، واستهلّ الشعراء قصائدهم بوصفها في مطالع
قصائدهم، فأشبهت بذلك أطلال الجاهليين.

وجاءت لغتهم سهلة وجميلة، وانسجمت مع الحضارة والبيئة عندهم. وحرصوا على
استخدام المحسنات البديعية المختلفة، من طباق وجناس وغيرهما. والشاعر في قصيدته يبدو
رسّاماً يُعنى بالتلوين وبأدقّ التفاصيل، فظهر التشخيص والرمز واضحاً في معظم أشعارهم،
وخصوصاً الوصف منها.

وأكثر الشعراء من التكرار في قصائدهم، فكان مناسباً للمعنى تارةً، وتقيلاً على القصائد
تارةً أخرى، على نحو ما رأينا من وصف الفرس عند ابن زمرك، حيث تكررت المعاني نفسها.

وحاولوا أن تكون ألفاظهم مناسبة للحال والظروف، فاستخدموا الفعل الماضي في
الرثاء، والأمر في الاستجداء، والمضارع في المديح، وضمّتوا قصائدهم الآيات القرآنية
والأحاديث الشريفة وأشعار المشاركة ليزيدوا من قوة المعاني فيها.

وظهرت موسيقا القصيدة عندهم من خلال الوزن والقافية، فالرومي جاء متناغماً مع الألفاظ ومعانيها. وأحسنوا استخدام البحور الشعرية، التي استوعبت تجاربهم المختلفة، فأكثرُوا من استخدام بحريّ الطويل والكامل، لما فيهما من سمات تصلح لأغلب الأغراض الشعرية.

و من خلال عرضنا للأغراض الشعرية التي مرت بنا في هذا العصر، نستطيع أن نستخلص نتائج عدة منها: أن الأفكار التي جاء بها الشعراء، كانت في أصولها وقواعدها بصورة رئيسية ذات صلة مباشرة بمعاني المشاركة وأفكارهم، ولكنها في الوقت نفسه لم تبتعد عن البيئة الأندلسية التي انفردت بكثير من الخصوصيات. واستطاعوا أن يعبروا عن شخصيتهم بجميع ما تتطوي عليه من السمات والخصائص. ولعلَّ هذا التقليد لم يخرج عن الإطار الطبيعي لفنون القول الشعري، فلا نستطيع أن نقول إن الشعر في العصر الإسلامي جاء مقلداً للعصر الجاهلي، أو أن العصر العباسي جاء مقلداً للعصرين الإسلامي والأموي مع عدم إغفال التأثير، إلا أننا نستطيع أن نخلص إلى القول: إنَّ كل عصر له خصائصه التي تميزه عن غيره من العصور التي سبقته، لذلك لا نستطيع أن نستنتج العصور الأندلسية من هذا الحكم، والمتصفح لكتب المصادر التي تبحث في عصر غرناطة، يرى أن هذه المملكة قد ضمت عدداً وفيراً من الشعراء الذين استطاعوا أن يتركوا لنا كمّاً وفيراً من النتاج الشعري، الذي عبر بصورة صادقة عن جميع جوانب الحياة في هذه المملكة، التي دافعت عن كيان المسلمين لما يقرب من قرنين ونصف من الزمن، وجاء هذا في ظل ظروف جعلت الكثيرين يتوقعون سقوطها قبل هذا الوقت بكثير.

إنَّ هذا التمثيل الصادق للأحداث التي جرت في هذه المملكة، جعلنا نحكم بأن هناك فنونا كان لها انتشار واسع جعلها تتميز عن غيرها من الفنون الأخرى، حيث لعبت الظروف السائدة آنذاك دوراً فاعلاً في هذا التميز، ولعلَّ الظروف السياسية وما واكبها من أحداث، جعلها من أكثر العوامل التي أسهمت في هذا التأثير، على نحو ما رأينا في فنون المدح والرثاء والهجاء. وانتشر فن الوصف انتشاراً واسعاً، ممّا جعله يتبوأ القمة بين هذه الفنون، وساعده في ذلك طبيعة غرناطة الجميلة من سهول وجبال وأنهار، وكذلك وجود المنتزهات التي عمّرت بالقصور

والمظاهر العمرانية التي تباها فيها على غرار أجدادهم من بني أمية. ولم يترك هذا الفن جانبا إلا وطرق بابه، فوصفوا الطبيعة وجمالها، وما يدور فيها من مظاهر ترف ولهو، والمعارك وما يجري فيها من قتل وبطولات. وعلى عادة الشعراء في كل زمان، فقد حرصوا على التقرب من أصحاب النفوذ والسياسة، مما دفعهم إلى مدحهم وإظهارهم في مظهر جعلهم يتفردون عن غيرهم من طبقات المجتمع. ولم يكن شعراء غرناطة بمعزل عن هؤلاء فانتشر المدح بينهم، ولم يتركوا مناسبة إلا وأحسنوا استغلالها من أجل هذه الغاية، فمدحوا الملوك والأمراء والوزراء وغيرهم ممن كان لهم كلمة في الدولة. وحاولوا في مدحهم أن يظهرُوا بني الأحمر بأنهم ملوك شرعيون لهذه الأمة، وهذه الشرعية مستمدة من نسبهم للصحابي الجليل سعد بن عبادة، الذي ينتمي إلى الأنصار الذين وقفوا مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته، وإذا ما نظرنا إلى الحماسة والفخر فإننا نجدهما يأتیان في سياق غيرهما من الفنون، فلم ينظروا إليهما على أنَّهما فنان مستقلان، على نحو ما رأينا في الفنون الأخرى كالوصف والغزل والمدح، فالشاعر يلجأ إليهما ضمن قصيدته المدحية أو الوصفية ثم يعود إلى غرضه الذي يرمي إليه، مما دفعنا أن نبحث عنهما في ثنايا هذه القصائد.

والهجاء من الفنون التي تراجعت في هذا العصر، وجاء هذا نتيجة للظروف السياسية التي سادت آنذاك، واعتقادنا هذا يقودنا أن نقول: إنَّ الشاعر عندهم يمثل المجتمع الغرناطي بطبقاته المختلفة من حكام ومحكومين. وكان الشعور السائد عندهم يتسم بالتشاؤمية والإحساس بقرب النهاية، وهذا ظهر في رثاء المدن، فالخطر الإسباني يقرع أبواب مدينتهم. ومقابل هذا التراجع للهجاء، فقد شهدت فنون أخرى إزدهارا على نحو ما حدث في فنون الرثاء والإستعطاف، فأكثر الشعراء من إثارة الدافع الديني عند الملوك وعامة الناس، وهذا بدا واضحا في رثاء المدن الضائعة. وجاءت هذه الفنون لتكون مرآة نقية تعكس الوقائع جميعها بصورة واضحة جلية، يستطيع الناظر إليها أن يلمَّ بتاريخ استطاع شعراؤه أن يدوتوه؛ ليشكل وثيقة تاريخية قد تتصف هذه المملكة التي أضاع الإسبان جزءا كبيرا من تاريخها الحضاري.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1. القرآن الكريم.
2. ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: *نثير الجمان في شعر مَنْ نظمني وإياه الزمان*. ت: محمد رضوان الداية. بيروت: دار الثقافة. 1967.
3. ابن الأحمر، إسماعيل: *نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان*. ت: محمد رضوان الداية. بيروت: دار الثقافة. 1967.

4. البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. ت: طه عبد الرؤوف سعد. المنصورة: مكتبة الإيمان. 2003
5. ابن برد، بشار: **الديوان**. شرح مهدي محمد ناصر الدين. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.
6. أبو تمام، حبيب بن جاسم بن أوس الطائي: **الديوان**. ت: إيليا حاوي. ط: 1. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
7. الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز**. ت: الدكتور فايز الداية ومحمد رضوان الداية. ط: 2. دمشق: مكتبة سعد الدين. 1987.
8. الجاحظ: **البيان والتبيين**. ج: 3. ت: عبد السلام هارون. ط: 3. القاهرة. 1968.
9. أبو حيّان، محمد بن يوسف: **تذكرة النحاة**. ت: عفيف عبد الرحمن. ط: 1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1986.
10. ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد: **التقريب إلى المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية**. ت: إحسان عباس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
11. ابن خاتمة، جعفر: **الديوان**. ت: محمد رضوان الداية. ط: 1. دمشق: دار الفكر. 1994.
12. ابن الخطيب، لسان الدين: **تاريخ إسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام)**. ت: ليفي بروفنسال. دار المكشوف.
13. **الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**. ت: إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة. 1983.
14. **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**. ت: محمد كمال شبانة. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

15. الديوان. ت: محمد مفتاح. ط: 1. الدار البيضاء: دار الثقافة. 1989.
16. الإحاطة في أخبار غرناطة. ت: يوسف الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2003.
17. اللوحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية. القاهرة: المطبعة السلفية. 1347 هجري.
18. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. ت: أحمد مختار العبادي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
19. ابن خفاجة: الديوان. شرح يوسف فرحان. بيروت: دار الجيل.
20. ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. ج 7. ط 1. ت: تركي فرحان المصطفى. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1999.
21. الخنساء: شرح الديوان. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
22. ابن رشيقي، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. ج: 2. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: 3. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. 1964.
23. ابن زمرك: محمد الصريحي. ت: أحمد سليم الحمصي. ط: 1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر. 1988.
24. ابن زمرك، محمد: الديوان. ت: محمد النيفر. ط: 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1997.
25. الزوزني، الإمام أبو عبد الله: شرح المعلقات العشر. ت: عمر أبو نصر. حلب: منشورات جامعة حلب كلية الآداب. 1966.
26. السيوطي، عبد الرحمن: المزهري في علوم اللغة وأنواعها. ج: 2. ضبط وتصحيح: محمد جاد المولى. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

27. ابن أبي سلمى، زهير: **الديوان**. شرح علي حسن فاعور. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.
28. ابن العبد، طرفة: **الديوان**. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1980.
29. العسكري، أبو هلال: **كتاب جمهرة الأمثال**. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: 2. بيروت: دار الفكر. 1988.
30. الفيروز آبادي، مجد الدين: **القاموس المحيط (مجلّد واحد)**. ط: 2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1987.
31. القزويني، جمال الدين: **الإيضاح في علوم البلاغة**. ت: محمد عبد المنعم الخفاجي. ط: 4. بيروت: لبنان: دار الكتاب اللبناني. 1975.
32. امرؤ القيس: **الديوان**. شرح: حسن السندوبي. ط: 5. القاهرة: مطبعة الاستقامة.
33. مؤلف مجهول: **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر**: ت: حسين مؤنس. ط: 1. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي. 1991.
34. مؤلف مجهول (مجاهد من المقاومة الإسلامية في غرناطة) 900 – 1000 هـ . آخر أيام غرناطة وهو كتاب (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) ت : محمد رضوان الداية. ط: 2. دمشق: دار الفكر المعاصر. 2002 .
35. المتنبّي، أبو الطيّب: **الديوان**. ت: بدر الدين حاضري. ط: 1. بيروت: دار الشرق العربي. 1992.
36. المعريّ، أبو العلاء: **شروح سقط الزند**. ت: طه حسين ومصطفى السقا. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر. 1954.

37. المقري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عيَّاض. ت: مصطفى السَّقا وآخرون. الرباط: مطبعة فضاله- المحمدية. 1979.
38. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1998.
39. ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب. ط: 3. بيروت. دار صادر. 1994.
40. النباهي، ابو الحسن: تاريخ قضاة الأندلس. (المَرْقَبَةُ العليا فيمن يستحقُّ القضاء والفتيا). ت/ د: مريم الطويل. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1995.
41. أبو نواس: الديوان - الخمريات. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. 1971.
42. ابن هاشم الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعراب. ت: مازن المبارك وآخرون. دمشق. 1972.
43. يوسف الثالث، الديوان (ديوان ملك غرناطة). ت: عبد الله كَنُون. ط: 2. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1965.

ثانياً: المراجع:

1. إبراهيم، مصطفى وآخرون: المعاني. القاهرة: المطبعة الأميرية. 1951.
2. أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. 1983.
3. إرفنج، داشنجن: قصر الحمراء. ترجمة إبراهيم الإبياري. ط: 2. مصر: دار المعارف. 1957.

4. أسعد، عبد المنعم: علم العروض والقافية. ط: 1. القدس: كلية الآداب للبنات - جامعة القدس. 1987.
5. الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ط: 4. الأردن: عالم الكتب الحديث. 2004.
6. أمين، إسماعيل: العرب لم يغزوا الأندلس. ط: 1. لندن. رياض الريس للكتاب والنشر. 1991.
7. أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر. ط: 4. مصر: مكتبة الأنجلو. 1972.
8. الأصوات اللغوية. ط: 5. مصر: مكتبة الأنجلو. 1979.
9. بالنثيا، أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. ط: 1. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1955.
10. بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس. ترجمة ذوقان قرقوط. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
11. بسبح، أحمد: لسان الدين بن الخطيب، عصره، بيئته، حياته وأثاره. ط: 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1994.
12. البستاني، بطرس: أدباء العرب. وهو عصر الأندلسي. بيروت: دار مارون عبّود.
13. بشتاوي، عادل: الأمة الأندلسية الشهيدة. ط: 1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2000.
14. بشر، كمال: علم اللغة العام - الأصوات - . مصر: دار المعارف. 1980.
15. التميمي، قحطان: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري. بيروت: دار المسيرة.
16. الجارم، علي وآخرون: البلاغة الواضحة. ط: 21. مصر: دار المعارف. 1969.

17. جبّور، جبرائيل: الملوك الشعراء. ط: 1. بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1981.
18. من رياض الأدب والتاريخ. ط: 1. بيروت: دار الآفاق الجديدة. 1981.
19. جرّار، صلاح: زمان الأتس، دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس، ط: 1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2004.
20. جطل، مصطفى: النحو والصرف. حلب: منشورات جامعة حلب. 1985.
21. جودة، صادق: تاريخ المغرب والأندلس. ط: 1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1985.
22. جوميث، إميلييو: الشعر الأندلسي. ت: حسين مؤنس. ط: 2. القاهرة: دار الرشيد. 2005.
23. الجبوسي، سلمى: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ط: 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1998.
24. حاوي، إيليا: فن الهجاء وتطوّره عند العرب. بيروت: دار الثقافة. 1998.
25. الحجّي، عبد الرحمن: التاريخ الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة. ط: 1. الإمارات العربية المتحدة: دار الاعتصام. 1983.
26. حزّان، حبيب: الأدب الأندلسي من الاحتلال إلى الارتحال. فلسطين: دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر.
27. حسنين، محمد: أساليب الصناعة من شعر الخمرة والأسفار بين الأعشى والجاهليين. بيروت: دار النهضة العربية. 1972.
28. أبو حسين، محمد: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين. الأردن: عالم الكتب الحديثة. 2003.

29. الحمصي، أحمد: ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه. ط: 1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1985.
30. حمودة، سعد: دروس في البلاغة العربية. مصر: دار المعرفة. 2000.
31. الحنفي، الشيخ جلال: العروض، تهذيبه وإعادة تدوينه. ط: 2. بغداد: مطبعة الإرشاد. 1982.
32. حميد، بدير: قضايا أندلسية. ط: 1. القاهرة: دار المعرفة. 1964.
33. الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي. بيروت: دار العلم. 1961.
34. أبو الخشب، إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس. ط: 1. مصر: دار الفكر العربي. 1966.
35. خضر، حازم: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. 1987.
36. الخطيب، حسام وآخرون: اللغة العربية. ط: 2. حلب: منشورات جامعة حلب.
37. الخطيب، رشا: تجربة السجن في الشعر الأندلسي. ط: 1. أبو ظبي: المجمع الثقافي. 1999.
38. خفاجة، محمد: قصة الأدب في الأندلس. بيروت: منشورات مكتبة المعارف. 1962.
39. خفاجي، محمد: الأصول الفنية لأوزان الشعر العربي. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1992.
40. الأدب الأندلسي التطور والتجديد. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1992.
41. الداية، فايز: جماليات الأسلوب (علم المعاني). حلب: منشورات جامعة حلب. 1989.
42. الدقاق، عمر: ملامح الشعر الأندلسي. بيروت: منشورات دار الشرق.

43. الدوسري، أحمد ثاني: الحياة الاجتماعية في غرناطة في دولة بني الأحمر. الإمارات العربية المتحدة: المجتمع الثقافي. 2004.
44. الركابي، جودت: في الأدب الأندلسي. ط: 2. مصر: دار المعارف 1966.
45. الطبيعة في الشعر العربي. ط: 2. دمشق: مطبعة الترقى. 1970.
46. الزين، نبيل: المرشد في البلاغة. ط: 1. عمان: دار أسامة. 1996.
47. السعيد، محمد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس. ط: 1. بيروت: الدار العربية للموسوعات 1985.
48. السيّد، سالم: تاريخ مدينة المريّة الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس. ط: 1. بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر. 1969.
49. السيّد، عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير. ط: 2. بيروت: عالم الكتب. 1996.
50. سعد، عبد المنعم: علم العروض والقافية. ط: 1. القدس: كلية الآداب للبنات - جامعة القدس. 1987.
51. سعيد، محمد: دراسات في الأدب الأندلسي. ط: 1. ليبيا: منشورات جامعة سبها. 2001.
52. سليمان، نايف: الواضح في العروض وموسيقى الشعر. ط: 1. عمان: دار الفكر للنشر. 1991.
53. الشايب، أحمد: الأسلوب، دراسة بلاغية لأصول الأساليب الأدبية. ط: 12. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 2003.
54. شايندلين، ريموند: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ط: 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1998.

55. الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ط: 5. بيروت: دار العلم للملايين. 1983.
56. شلبي، إسماعيل: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
57. شلبي، سعد: الأصول الفنية للشعر الأندلسي، عصر الإمارة. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر. 1982.
58. الشناوي، علي: دراسات في الشعر الأندلسي. ط: 1. مكتبة الآداب. 2003.
59. الصائغ، عبد الإله: الخطاب الشعري الحدائوي والصورة الفنية. ط: 1. بيروت: المركز الثقافي العربي. 1999.
60. الصابوني، محمد: الموجز في البلاغة العربية والعروض. ط: 1. بيروت: المكتبة العصرية. 1988.
61. ضيف، أحمد: بلاغة العرب في الأندلس. ط: 2. تونس. دار المعارف للطباعة والنشر. 1998.
62. ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط: 10. القاهرة: دار المعارف. 1960.
63. العصر الجاهلي. ط: 7. مصر: دار المعارف. 1960.
64. الطوخي، أحمد: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 1997.
65. الطويل، يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسي. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1991.
66. الطيبي، أمين: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس. ليبيا: الدار العربية للكتاب. 1984.

67. عاشور، سعيد: **محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي**. بيروت: منشورات جامعة بيروت العربية. 1975.
68. عاصي، ميشال: **الشعر والبيئة في الأندلس**. ط: 1. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر. 1970.
69. عبّاس، فضل: **إعجاز القرآن**. ط: 2. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1977.
70. عبد البديع، لطفي: **الإسلام في إسبانيا**. ط: 1. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1958.
71. عبد المهدي، عبد الجليل: **تاريخ الأدب والنصوص**. الأردن: منشورات وزارة التربية. 1994.
72. عبد الله، محمد: **جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقدية والفنية والفكرية**. ط: 1. القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية. 1993.
73. عتيق، عبد العزيز: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**. ط: 3. بيروت: دار النهضة العربية. 1980.
74. **علم البديع**. بيروت: دار النهضة العربية. 1985.
75. **علم المعاني**. بيروت: دار النهضة العربية. 1978.
76. **الأدب العربي في الأندلس**. القاهرة: دار الآفاق العربية.
77. عدّس، محمد: **الواضح في قواعد النحو والصرف**. ط: 1. عمّان. دار مجدلاوي للنشر. 1991.
78. العثماوي، محمد: **موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي**. بيروت: دار النهضة العربية. 1981.

79. العلي، فيصل: الميسر الكافي في العروض والقوافي. عمّان: مكتبة الثقافة للنشر.
80. البلاغة الميسرة في المعاني والبيان والبديع. ط: 1. الأردن مكتبة دار الثقافة. 1995.
81. أبو علي: محمد وآخرون: علم البلاغة. ط: 1. عمّان. منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1997.
82. عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس. ط: 3. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1966.
83. عناني، محمد: تاريخ الأدب الأندلسي، مصر: دار المعرفة الجامعية. 1999.
84. عودات، أحمد وآخرون: تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس الهجري حتى القرن العاشر الهجري. اربد: دار الأمل للنشر والتوزيع. 1989.
85. عيد، يوسف: أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 1993.
86. الشعر الأندلسي وصدى النكبات. ط: 1. بيروت: دار الفكر. 2002.
87. عيسى، فوزي: دراسات في أدب المغرب والأندلس. مصر: دار المعرفة الجامعية. 2000.
88. غريب، جورج: شعراء اللهو والخمر، تاريخه وأعلامه. ط: 1. بيروت: دار الثقافة. 1966.
89. الغلاييني، لشيخ مصطفى: جامع الدروس العربية. ط: 38. بيروت: المكتبة العصرية. 2000.
90. غومث، إميلييو: مع شعراء الأندلس والمنتبني. ترجمة الطاهر أحمد مكي. ط: 3. القاهرة: دار المعارف. 1983.

91. الفاخوري، حنا: الموجز في الأدب العربي وتاريخه. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1985.
92. فاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. حلب: منشورات جامعة حلب - كلية الآداب. 1987.
93. فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من أمريء القيس إلى ابن أبي ربيعة. ط: 4. بيروت: دار العلم للملايين. 1959.
94. المجتمعات الإسلامية في القرن الأول وتطورها اللغوي والأدبي. بيروت: دار العلم للملايين.
95. الفيومي، محمد: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس. ط: 1. بيروت: دار الجيل. 1997.
96. فيود، بسيوني: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع. ط: 2. القاهرة: مؤسسة المختار للطباعة والنشر. 1998.
97. القاسمي، جاسم: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. 2000.
98. القطن، مناع: مباحث في علوم القرآن. ط: 7. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1980.
99. كرّو، محمد: شخصيات أدبية من المشرق والمغرب. ط: 2. بيروت: دار مكتبة الحياة. 1966.
100. لوبون، غوستاف: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. ط: 2. مطبعة دار إحياء الكتب العربية. 1948.
101. مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس. ط: 1. القاهرة: دار ومطابع المستقبل. 1980.

102. محمد، سعيد: دراسات في الأدب الأندلسي. ط: 1. ليبيا: منشورات جامعة سيها. 2001.
103. الشعر في قرطبة، أبو ظبي: المجمع الثقافي. 2003.
104. محمد، محمود: الأصوات العربية بين اللغوين والقراء: المدينة المنورة: مكتبة دار الفجر الإسلامية. 1998.
105. المطعني، عبد العظيم: البديع في المعنى والألفاظ. ط: 1. القاهرة: مكتبة وهبة للطباعة والنشر. 2002.
106. معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ت: محمد أبو شوارب. ط: 1. الإسكندرية. 2003.
107. مكي، محمد: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. ط: 1. بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية. 1998.
108. الملائكة، نازك: قضايا الشعر المعاصر. ط: 9. بيروت: دار العلم للملايين 1996.
109. الملاح، ياسر: من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس. ط: 1. القدس: مطبعة الإسرائ. 1993.
110. ملحس، محمد: أحكام تجويد القرآن على رواية حفص بن سلمان. ط: 16. نابلس: مطبعة عبد الرحمن حجاوي.
111. ملحم، إبراهيم: الأنا في الخطاب الشعري "دراسة في شعر بشار بن برد". ط: 1. الأردن: دار الكندي. 2004.
112. ناصيف: إميل: أروع ما قيل في الزهد والتصوف. بيروت: دار الجيل.

113. نافع، عبد الله: **الهجاء في الشعر الأندلسي**. ط: 1. بيرزيت: منشورات كلية الآداب. 1984.
114. النّاطور، شحادة: **مدخل على تاريخ الحضارة العربية والإسلامية**. ط: 1. اربد: دار الأمل. 1989.
115. النّوري، محمد جواد: **علم الأصوات العربية**. ط: 1. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 1996.
116. **فصول في علم الأصوات العربية**. ط: 1. نابلس: مطبعة النصر التجارية. 1991.
117. هدّارة، محمد: **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري**. القاهرة: دار المعارف. 1963.
118. هلال، محمود: **الأدب المقارن**. ط: 9. بيروت: دار العودة. 1953.
119. هونكة، زيغريد: **شمس العرب تسطع على الغرب**. ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي. ط: 8. بيروت: دار صادر. 2002.
120. هيكل، أحمد: **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**. ط: 7. مصر: دار المعارف. 1979.
121. الوائلي، عبد الحكيم: **موسوعة قبائل العرب**. ط: 1. الأردن: دار أسامة. 2002.
122. اليازجي، كمال: **الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم**. ط: 1. لبنان: دار الجيل. 1986.
123. ياغي، هاشم وآخرون: **تاريخ الأدب العربي**. ط: 1. عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة. 2005.

ثالثاً: الرسائل الجامعية:

1. جبالي، أسعد: الاستعطاف في الشعر الأندلسي، عصر ملوك الطوائف. رسالة جامعية غير منشورة. نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية - كلية الدراسات العليا. 2003.
2. عتيق، عمر: دراسة أسلوبية في شعر الأخطل. رسالة جامعية: نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية. 2000.
3. مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. رسالة جامعية. نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية - كلية الدراسات العليا. 2004.

الدوريات:

1. أعراب، الطرايسي: الأصوات النضالية والانهازامية في الشعر الأندلسي. مجلة عالم الفكر: المجلد الثاني عشر. الكويت: منشورات وزارة الإعلام. 1981.
2. العبادي، أحمد: الإسلام في أرض الأندلس. مجلة عالم الفكر: العدد 2. الكويت: منشورات وزارة الإعلام. 1979.
3. د: عودة، خليل: المستوى الدلالي للون في شعر عنترة. مجلة الدارة. العدد الثاني، السنة الثانية والعشرون. 1417هـ.

فَهْرِسْتُ الْأَشْعَارِ

البحر / الصفحة	البيت
حرف الهمزة	
102	الكامل حبُّ الرياسة يا له من داء كم فيه من محن وطول عناء
156	الكامل يا فخر أندلس وعصمة أهلها يجزيك عنها الله خير جزاء
158	الكامل برق أضواء بحاجر ما يهدأ وسناه في جنح الدجى يتلألأ
160	البسيط غزيرٌ غزلتُ ألحاظه جسدي أرقّ من غزلي في لطف معناه
حرف الباء	
28	الطويل لنا السلف الأرض حماها قد ارتضى وناهيك من جدّ كريم ومن أب
44	الطويل كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه
46	الطويل كتاب لعبد المالك الأسقف الندب جوادٌ نبيل الرقد في زمن الجذب

51	الكامل	يطفو بصفتها وبعضُ يرسبُ	والزّهر في نهر المجرّة بعضها
61	الطويل	وبين أخيه والمزار قريب	ألا ربّ رأس لا تزاور بينه
63	البيسط	من لم ير البحر يوماً ما رأى عجا	البحر أعظم مما أنت تحسبه
78	الطويل	صبح تمشي في سناه غيب	وقد امتطينا زورقاً فيه فقل
90	البيسط	في الحرب أن كتّب الأجناد أو كتبا	أنا الهمام الذي تخشى عزائمهُ
108	الطويل	وجودك فينا لا السّحاب السواكب	سعودك لا ما تدعيه الكواكب
108	البيسط	حازت ندى السّحب مسكوباً بمسكوب	يا أيّها السيّد الأعلى الذي يده
109	الطويل	قصوري عن إدراك تلك المناقب	أروم امتداح المصطفى فيصدني
110	البيسط	في الملك أو خطب العلياء خاطبه	يا خير من خلصت لله نيته
118	الخفيف	نحو أمّ العزيز أبغي احتسابا	أقبل العيد فابتدرت مهلاً
135	الطويل	وهاج اشـتياقي والمزار قريب	تباعد عنّي منزلٌ وحبیب
135	الطويل	أجرني فإنّ السهم منك مصيب	أيا دهرُ إني قد سئمتُ تهدي
136	الوافر	فلا وطن لديه ولا حبيب	غريب كلّما يلقى غريب
141	الطويل	وإني من ذنبي إليك لهاربُ	إلهي أجرني إني لك تائب
147	المتقارب	وغائب الموت لا يـؤوب	وكلّ ذي غيبةٍ يـؤوب
155	الكامل	يئست عفاة النجح من أسبابه	يا طلعة الشؤم التي مهما بدت
177	البيسط	للسيف ما كتّبوا والمحو ما كتّبوا	والملحدون بما قالوا وما فعلوا
181	الطويل	وتلقى حسام النصر في كفّ ضارب	إذا شئت أن تُعطي المقادة أهلها
194	الكامل	حتى تثيب على الهوى وأثيبها	الله يكفي عاذلي ورقيبها
حرف التاء			
67	الطويل	وأقطع في أوصافك الغرّ أوقاتي	أحبيك يا معنى الكمال بواجب
134	المتقارب	وجئنا بوعظ ونحن صموت	بعدنا وإن جاورتنا البيوت
142	الطويل	واسكنتُ لما أن بدت حركاتي	تفرّدت لما أن جمعتُ بذاتي
170	المتقارب	وأعدى من السّيف في سطوته	لسانك كالسّيف في شكله
حرف الجيم			
129	البيسط	والمشـتري طالع والشمس هيلاج	لم لا تنال العلى أو يعقدُ التّاج
138	الخفيف	فشفى لواعج قلبي المهتاج	هبّ النسيم معطرّ الأراج
حرف الحاء			
124	الكامل	من وجه من أحببته مصباحا	لا توقد المصباح وأعلم أنّ لي

172	الطويل	كذحتُ إلى ربِّ الجمال ملاقياً	فيا أيُّها الإنسان إنَّكَ كادحٌ
178	الخفيف	أنا من خالص الحديد غديرٌ	فترى وسطيَّ الردى وهو سابح
حرف الدال			
34	الكامل	أفلا تذوب قلوبكم إخواننا	مما دهانا من ردى أو من ردي
72	السريع	الورد سلطان كل زهر	له أنه دائم الورد
77	الطويل	ووردية الجلباب أعجبتها الورد	فغنت وما بالغانيات لها عهدٌ
82	الكامل	إنَّ النصرى قد تجمّع شملها	فعسى ببأس سيوفكم تتبدّد
84	السريع	من ذا يطهر نفسه بعزيمة	مشحودة في نصر دين محمد
89	الطويل	الأئمة في الجود والجود شيمتي	جلبت على آثارها يوم مولدي
95	الكامل	كم جامع فيها أعيد كنيسة	فاهلك عليه أسى فلا تتجدد
97	الطويل	أيا زفرتي زيدي ويا عبرتي جودي	على فاضل الدنيا على ابن مسعود
98	الطويل	ضريح أمير المؤمنين محمد	يخصّك ربي بالسّلام المرّد
106	الطويل	ومن كيني نصر جلاله منصب	بهم نصر الرحمن دين الهدى محمدا
107	الطويل	بحيث البنود الحمر والأسد الورّد	كتائب سكاّن السّماء لها جند
114	البيسيط	أشكو إليك ولا أشكو إلى أحد	يا من عليها من الأقوام معتمدي
117	الكامل	بهرت كشمس في غلالة عسجد	وكبدر تم في قضيب زبرجد
117	الكامل	وإذا ابتسمت يروقك ميسم	يزرى بعقد اللؤلؤ المنضود
118	الطويل	فهل عند ليلي نعم الله ليلها	بأن جفوني ما تلم من السهر
122	الوافر	أدرها بين مزمار وعود	ودونك فاغتم زمن السعود
123	البيسيط	تسفيك من يدها خمراً ومن فمها	خمراً فما لك من سكرين من بدّ
126	الطويل	لقد ذم بعض الخمر قوم لأنها	تكر على دين الفتى بفساد
128	الطويل	يهنيك نيروز سعيد قد انقضى	أنتك على آثاره منه أعداد
136	الخفيف	حيّ حيّ بالله يا ربح نجد	وتحمّل عظيم شوقي ووجدي
141	البيسيط	يا ربّ إنّ ذنوبي قد عظمت	فما أطيق لها حصراً ولا عددا
144	الطويل	لقد حاز أصحاب الحديث وأهله	شأواً وتيراً ومجداً ملحداً
145	الطويل	به يُعرف القرآن والسنة التي	هما أصل الدّين ذو أنت عابده
145	الطويل	فمنهم أبو بكر خليفته الذي	له الفضل والتقديم في كل مشهد
159	الطويل	ومن كعليّ ذي الشجاعة والرضا	للإصرار مذعور وإيواء مطرود
160	الطويل	يا أمة المحراب والحرب أخلصوا	لسامع نجوى حيه وجماده

161	الخفيف	توارثت كريم الإصدار والإيراد	في سبيل الإله مجدّ
168	الطويل	فيأتيك بالأخبار مَنْ لم تزود	ومحتمل الركبان طيبَ حديثه
168	الطويل	ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزود	ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
170	الخفيف	ن وقد ألحقت حروب الشداد	ومن كعمرو مضنى الراجم والمد
178	الطويل	لمسجد تقواه وسبق جواده	وكم لي في غرناطة من مبادر
180	الطويل	وكف أكف البغي من كل معتد	ومدّ ظلال العدل في كلّ جهة
180	الكامل	عودوا وعهدكم القديم مجدّوا	أوطانكم إخوانكم وبلادكم
187	الكامل	مع ناتيء النارج في تنضيد	وثمار نارنج أزهارها
198	الطويل	تهيجُ من الأشجان ما أوجد الوجدُ	حمامُ حمامٍ فوق أيك الأسي تشدو
199	الكامل	وبكفكم سيف الجهاد يجرّد	أبني مرين والحماية شأنكم
حرف الراء			
17	الكامل	وسموا بطيب أرومة ونجار	يا ابن الألى قد أحرزا فضل العلا
18	الكامل	تليت بفرقان الهدى أسطاره	أبني عبادة إن فخر قديمكم
35	المنسرح	سواك أنت الثمال والوزرُ	ليس لنا ملجأ نؤمله
39	الطويل	وصاعقة وارى جسوم ظهورها	معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
46	الكامل	وجه جميل والرياض عذاره	بلدٌ تحفّ به الرياض كأنه
57	السريع	فهم يلقون بها نضرة	سكانها مَنْ اسكنوا جنّة
57	السريع	الماء والبهجة والخضرة	غرناطة ما مثلها خضرة
61	الكامل	فاستيقظت في الدوح أجفان الزهر	هبّ النسيم على الرياض مع السحر
69	الكامل	والروض منك على الجمال قد اقتصر	يا قصر شنيل وربك أهل
73	الطويل	وما عنده علمٌ لطول ولا قصر	وشيخ جليل القدر قد طال عمره
75	الطويل	نجوم بأكناف المجرة تزهر	وأزرق محفوف بزهر كأنه
75	الطويل	قلائد ياقوتٍ عليها الجواهرُ	وزنجية فإن الكؤوس بنحرها
77	البسيط	لصاحبي والدجى مستقبل العمر	وأقول والبدرُ يسمو في السما سعداً
79	الكامل	تنقضُ رجماً في سماء غبار	أتبعتها غرر الجياد كواكباً
80	الكامل	جهّزته في وجهة المزار	أركبته في المنشآت كأنما
87	الطويل	لنتصفا مما جنى عبدك الدهرُ	قصدناك يا خير الملوك على النوى
101	الطويل	وإن لم يكن أهلاً لرقعة مقدار	أرى الناس يولّون الغني كرامة
103	المنسرح	في ربك اليوم غارة البعير	قل للوزير البليد قد ركضت

104	المنسرح	ومجرى اللسان بالهذر	يا ناقص الدين والمروءة والعقل
114	الطويل	ولله ذاك الثغر وهو مؤشر	قله ذاك القد وهو مهفهف
120	الكامل	فاردد تحيته بكأس عقار	حيّا الربيع بنرجس وبهار
122	الطويل	وجارية تسقى وساقية تجري	وغانية يُغني عن العود صوتها
124	الكامل	من جوهر لألاء بهجته بهر	في كف شفاف تجسد نوره
127	الكامل	وأهدتك فتح ممالك الأمصار	هي نفحة هبت من الأنصار
128	البسيط	أهلاً بمقدمك الميمون طائره	يا قادماً عمّت الدنيا بشائره
134	الطويل	وشبت فشبّت في ضلوع له جمر	لقد خاض لجّ الحبّ مني فتى غر
148	الكامل	والبرّ يسمّح وإن تجرأ جاره	الحرّ يصفح وإن أخلّ خليله
148	الكامل	وإذا دهتك ملامة فتصير	اقتنع بما أوتيته نلّ الغنى
149	الطويل	مخافة فقر فالذي فعل الفقر	ومن ينفق الساعات في جمع ماله
153	الكامل	ما شئت من شمس ومن بدر	ما شئت من حُسنٍ ومن حُسنٍ
157	الكامل	ما لاح نورٌ للأنجُم الزهر	لو أن ما بي بالأفق من أسف
157	الكامل	حيناً يعقبُ بعد ذلك سراره	والعمرُ مثل البدر يونق حسنه
158	المجثث	فأنت حتماً أميرة	وأنعّم على من تشاء
158	الكامل	وقد قصرت عنه مدارك شكره	ألبيست عبدك من ثيابك ملبساً
166	الطويل	تطيف حوالها حماة بني نصر	لمن راية حمراء ترتاح بالنصر
169	الكامل	إنّ العلاء علمٌ وفخر نار	هيات يجحد فضل مجدك جاحد
169	الكامل	كأنه علم في رأسه نار	وإن صخرًا لتأتم الهداة به
172	المتقارب	تساقط عليك الأمانى ثمارا	وهزّي إليك بجذع الرضى
172	الكامل	ولويت ديني عن وجود يسار	مطلّ الغنيّ ظلمّ فقيم ظلمتي
180	الكامل	فشانيك مخذول وراجيك منصور	محكّ بالدنيا، بالدين معمور
188	الرملي	تدرك الآمال إلا بالغرر	خضت بحر الحبّ والدمع وهل
210	الكامل	بدرٌ يسير البدر حيث يسير	هجروا وخطب الهجر ليس يسير
211	الكامل	لم يلف غيرك في الشدائد من وزر	هذا وزير الغرب عبّ أبق
200	البسيط	وورد خديك يزكي في الحشا ناراً	عيناى تفهم من عينيك أسراراً
حرف السين			
32	البسيط	إن السبيل إلى منجاتها درسا	أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
44	الكامل	ضحك الظلام لها وكان عبوسا	أطلعن في سدف الفروع شموسا

44	الكامل	تقري ضيوفك لوعنة وريسا	أقشيب ربعمهم أراك دريسا
85	البسيط	من أن يجوس عدو الدين أندلسا	معاذ من كتب الحسنى لأندلس
109	الطويل	ووجهة تعظمي وروضة ايناسي	أيا سيدي الأعلى وشمس هدايتي
110	البسيط	فالشرك في مأتّم والدين في عرسي	حمى حمى الحق إرغاماً لمبطله
123	الطويل	وقد شرفوا الناسوت إذا عبدوا عيسى	طرقنا ديور القوم وهنا وتغليسا
187	الطويل	سوانح تكسو السرح حسن لباس	سقت ساريات السحب ساحة فاس
حرف الشين			
88	الطويل	يجانبها داعي الهدى ويحاشيها	وعصبة شرّ من يهود لقيتها
115	الرمل	كلّما شاء ومرعاه الحشا	يا غزلاً وردة في أدمعي
حرف الصاد			
110	المتقارب	وأوثقن ثم منعن الخلاصا	خرجن ولم يتقين القصاصا
حرف الضاد			
74	الطويل	وسدّ عليّ رحيب الفضيا	شليبر لعمرى أساء الجوارا
حرف الطاء			
129	الطويل	وعسكره الزنجي همّ به القبط	شحطت وفود الليل بأن به الوخط
حرف العين			
58	الطويل	فإنسانها ما نحن فيه ولاع	إذا كان عين الدمع حقيقة
166	البسيط	وأحرص عليه إذ تابأه يمتنع	أعرض عن الشيء إن تهواه تحظ به
حرف الفاء			
15	السريع	عليّ ملك الأرض قد وقفا	ملكته القلب وإنني امرؤ
28	الطويل	وبالرعب منصور وبالله مسكتفي	وبالسيف سفاخ وبالهدى مهتدي
60	البسيط	فرشاً وظلنا من الأظلال في لحف	وروضة قد وطننا من رياحينها
61	البسيط	أجري بردّ عذول فيه معتسف	أجر ذيل التصابي فيه محتسباً
71	الطويل	وقد نازع المحبوب في الحسن وصفه	يقرّ بعيني لأن أرى الزهر يانعا
84	الطويل	فقد كان نور الله بالكفر أن يطفا	أخواننا لا تتسوا الفضل والعطفا
114	السريع	أقلّ شيء في المليح الوفا	واعدني وعداً وقد أخلفا
114	الطويل	هنيئاً لهم هذا الثناء المخلف	أنت ابن أنصار الهدى وحماته
115	الطويل	وبشرى بها الداعي على الغور يشرف	عزاء فإن الشجو قد كان يسرف

		حرف القاف	
56	الطويل	نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق	أحنُّ إلى غرناطة كلما هفت
57	الكامل	فيها المعرف والعوارف تصفّق	لله جنات العريف فإنها
68	الطويل	بمنهل سحب مأوهن هريق	سقى الله من غرناطة كل منهل
71	الطويل	نضى فوق درّ فيه عقيق	وقد سلّ شنيل فرنداً مهنداً
96	الطويل	وعصن ذوى تاقت إليه الحدائق	شبابٌ ثوى شابت عليه المفارق
108	الوافر	فمن بمناهُ يندفق اندفاقا	إلى الغيث الذي إن شحّ غيثٌ
115	الطويل	ويصبح عاني الحبّ وهو طليق	متى يتلاقى شائق ومشوق
157	الكامل	ما ناله كسفٌ ونكس محاق	لو أن للبدر المنير كماله
157	الطويل	حنونكم والله أعي على الرّاقبي	أعشاق غير الواحد الأحد الباقي
		حرف الكاف	
130	الطويل	لك الصاحب الخوان ملّ وتاركا	عتبت ولم تغدر وتزعم أنني
140	الطويل	وتسألها العبي وها هي فارك	تراجع من دنياك ما أنت تارك
141	المتقارب	ويا من بكربي له اشـتـكي	أيا من الحكم في خلقه
		حرف اللام	
70	الكامل	أنس الخليع ونزهة المتبتل	أهلاً بأيام الربيع وطيبها
75	الكامل	صبح به نجم الضلالة يأفل	من أشهب كالصبح يعلو سرجه
80	الكامل	تختال في برد الشباب وترفل	هنّ الجواري المنشآت وقد غدت
80	الطويل	ل عم استقلت للسعود محافلا	ولما استقامت بالزقاق أساطي
90	الكامل	فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل	فإذا الملوك تفاخرت بأجدادها
91	الكامل	تروى على مرّ الزمان وتنقل	أثاركم في الدين غير خفيّة
96	المنسرح	وسامنى التكل بعد إقبال	روع بالي وهاج بلبالي
100	الكامل	من منّة لو كان ممن يعقل	لم ير إسماعيل ما طوقته
101	الوافر	لرائيها بأشكال الرجـال	ذئابٌ في ثيابٍ وقد تبدّت
106	الكامل	أضفت على إسرائه زلزالها	أنتم بني نصرٍ نصرتم ملّة الإسلام
107	الكامل	تلقي الغمامم أرسلت حطّالها	إن تلقه في حرب يوم عداته
119	السريع	والفال محبوب لتعليه	يا فرجاً علّت نفسي به
119	الطويل	وأصبح مثلي سيء الظنّ والبال	لما التحى من كنت أشقى بنوره
125	الكامل	كهلاً وأخفض في الزمان الأول	لا تعجبنّ لطالب نال العلا

128	السريع	والتبر لونا والهوى في اعتدل	كالمسك ريحاً واللمى مطمعاً
132	الوافر	بما أدركت من رتب الجلال	بما قد حزت من كرم الخلال
137	الكامل	والله عن أحكامه لا يُسأل	الحق يعلو والأباطل تسفل
154	الكامل	م ابن الإمام وقدرها لا يجهل	يا ابن الإمام ابن الإمام
160	الكامل	ببيانه ذرُّ الكلام يفصلُ	من أين للشمس المنيرة منطق
156	الطويل	ومختطف الأبطال يوم نزاله	مثير رياح العزم في حومة الوغى
161	الكامل	فيك الحجى وتأول المتأول	يهنئك صنع الله حين تبلدت
161	الكامل	تتابعوا للردى كالسابق العجل	ثلاثة بسماط الملك مطهرهم
165	الكامل	وعزيز قوم لم يطعك ذليل	فمن استجار علاك عزّ جوارهُ
199	الكامل	الله يؤتيك الجزاء جزياً	يا ناصر الإسلام يا ملك العلا
حرف الميم			
36	الوافر	لكان لجانب الدين اهتضام	لولا صبرنا في كل حرب
43	الكامل	فيمشي على خطّ به متوهم	ومنوع الحركات من ركب الهوا
44	الطويل	وإن يرق أسباب السماء بسلم	ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
44	الطويل	من التقع فيها للأسنة وأعجم	وكم ليلة قد جئت فيها بليلة
85	الكامل	في كل خطب قد تجهّم مظلم	يا آل نصر أنتم سرج الهدى
86	الطويل	على البعد محفوظ الوداد سليمه	ألا يا رسول الله ناداك ضارع
86	الوافر	يهزّ به لدمى الروح الحسام	لنا الأيدي الطوال بكلّ ضرب
87	البيسيط	رعيا لما مثله يرى من الذمم	مولى ملوك العرب والعجم
97	الكامل	بحبيبه نفذت بذا الأحكام	من لم يصب في نفسه فمصابه
102	الكامل	فلم أبلغ أداني صفاتهن الذميمة	قد هجوت النساء دهوراً
116	الطويل	جفون ظباهم والفؤاد كليم	أيا لبنى الرفاء تتضى ظباؤهم
125	الرمل	تصدع لهم بكاسات المدام	يومنا يوم سرور فلتقم
129	الكامل	واستقبلتك بثغرها البسام	عادت ببرئك بهجة الأيام
130	مجزوء الكامل	أو جائر يشكو ظلمة	والناس إما جائر
149	البيسيط	جدوى سوى جمع مال خيف العدم	يا من إذا ينفق العمر الثمين بلا
155	البيسيط	فقد أتيت به أسعى على قدمي	مولاي مولاي إن أرضاك بذل دمي
156	الطويل	تكنفهم غمر النوال عميمه	رحبية أطف إذ الوفد حلهما
156	الطويل	إذا ابتل عطفاً في الوغى يتضرم	وأحمر قد أدكى به البأس جذوة

164	الطويل	رضيتُ بما تقضي عليّ وتحكمُ أهان فأقصى أم أعزُّ فأكرم
169	الكامل	أنت الأمير وأنت خصمي فاحكمي لي أو عليّ فلن أسائل: ذالمه؟
169	البيسيط	يا أعدل الناس إلا في معاملاتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
170	الكامل	الفاتحون لكل صعب مقفل والفارجون لكل خطب مبهم
170	البيسيط	يهنيك بسرى قد استبشرت مذ وردت بها لعمرك وهو البر في القسم
حرف النون		
18	الكامل	شيدت بملكك للهدى أركان وسام فوق السها بنيان
23	البيسيط	وطفلة ما رأتاه الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان
34	البيسيط	لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغربطيب العيش إنسان
36	الكامل	فتح قضاه لملكك الرحمن لم تأت قط بمثله الأزمان
38	البيسيط	لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان
61	الكامل	بالحسن من مكناسة الزيتون قد صح عذر الناطق المفتون
72	البيسيط	وأخضر فسقتي اللون غض يروق بحسن منظره العيونا
73	الكامل	بسط البياض كرامة لقدمه وافترت تغراً عن كرامة معنتي
77	الطويل	ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان
77	مجزوء الرجز	ما حيوان في اسمه إذا اعتبرته فنون
94	البيسيط	تبكي الحنيفة من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
95	البيسيط	ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
116	الكامل	كم قلت للبدر المنير إذا بدا هيهات وجه فلانة تحكي لنا
127	الطويل	أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان
136	البيسيط	أيام قربك عندي ما لها ثمن ولكنني صدتني عن قربك الزمن
140	الطويل	حديث الأمان في الحياة شجون إن أرضاك شأن أحفظتك شؤون
140	البيسيط	يا من لذة قوم بعد عزهم أحوال حالهم كفر وطغيان
188	البيسيط	في راحتك حياة الروح والبدن وفي رضاك مجال السر والعلن
207	الكامل	مولاي، إن أذنبت ينكر أن يرى منك الكمال ومني النقصان

فَهْرِسْتُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

الصفحة	الآية	السورة	متن الآية
77	8	الرعد	"الله يعلم ما تحمل الأنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار"
146	62	العنكبوت	"الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم"
172	6	الانشقاق	"يا أيها الإنسان إنك كادخ إلى ربك كدحاً فملاقيه"
172	25	مريم	"وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً"

فَهْرِسْتُ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ

الصفحة	متن الحديث الشريف
--------	-------------------

173	"مطلُ الغنيّ ظلمٌ"
-----	--------------------

فهرست الأمثال

الصفحة	المثل
170	"إنَّ الشقيَّ وافد البراجم"
171	"مقتل الرجل بين فكيه"

**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

**The Poetic Movement in Andalusia
(The Era of Beni-Al-Ahmer)**

**By
Aymen Yousef Ibrahim Jarrar**

**Supervised by
Prof. Dr. Wa;il Abu-Saleh**

**Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of
Master of Arts in Arabic Language and Literature, at An-Najah
National University, Nablus, Palestine.**

2007

The Poetic Movement in Andalucia (The Era of Beni-Al-Ahmer)

By
Aymen Yousef Ibrahim Jarrar
Supervised by
Prof. Dr. Wa;il Abu-Saleh
Abstract

The poetic movement flourished in the kingdom of "Bani Al – Ahmar" which was established in 637 hejri within many conditions. The most important of which was the political aspect which came as a supporter for a variety of poetic purposes; at the foreground of which were the poetry of fighting for the sake of Allah "Al - Jihad", and raising the potentials of people.

The one who is following up the incidents that took place in that kingdom can obviously see that it passed three stages that had a clear influence in the spread of some poetic purposes more than the other ones:

The first stage: This stage is described as having a spread of the enthusiastic poetry that calls for going back to religion and gaining what was lost of the cities of Al – Andalus. This stage lasted five centuries.

The second stage: In it, prosperity and wealth spread all over the kingdom. The poetry of wine and compliment as well as the life of luxury shaped this stage that lasted about five centuries.

The third stage: It is considered the last stage that is described as having the retreat and fall down. There is also a return to the poetry of enthusiasm and condoling cities.

The nature played an important role in the prosperity of this movement. Granada was famous of having a beautiful nature since it had a lot of water, gardens and marvelous palaces. The kings of "Sons of Al - Ahmar" did the same as their former kings of Al – Andalus in that they encouraged arts and sciences and built palaces in which literary meetings and poetic arts were held. These appeared in this era which were the same as the ones in the previous eras. In the foreground of which came the description of nature. In its laps, the poets wrote the poems of win and flirt.

The poetry of fighting for the sake of Allah "Al - Jihad" boomed as a result of the acceleration that happened in losing their cities.

So, they hurried to motivate and strengthen the potentials of people to gain back these lost cities. Their poems of compliment focused mostly on clarifying the kinship of their kings that reached to the honoured companion Sa'd Ibn Obada Al – Ansari.

Their poetry came fresh and smooth, and had kind examples of metaphors and imaginations that cheered hearts. Also, their poets took care of ornamenting their vocabularies, so they obtained different language styles like alliteration, antithesis, quoting in addition to other kinds of eloquence, rhetoric. All these made their vocabularies suitable for the meanings they aimed to convey. Moreover, they used poetic styles which

suiting their real situation. Mostly, they used the styles of Al – Kamel Al –
Wafer, At – taweel and Al – baseet.